شعر الحماسة

فى العصر العباسى الثانى

دكتور / السيد محمد ديب

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م

GIFTS 2006

Mrs./ Ezdihar Abulela

Cairo

شعر الحماسة

في العصر العباسي الثاني

دكتور السيد محمد ديب

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م



مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩
س.ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما منح من إحسان ، وما وهب من بيان ، والصلاة والسلام على رسولنا الكريم ونبينا العظيم ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه الذين آزروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون . . . وبعد :

فإن بين شعر الحماسة وشعر الحرب كثيراً من الروابط والصلات ، غير أن أشعار الحماسة قد تجاوزت مفازع الحرب إلى فنون أخرى حرص المتقدمون على متابعتها وتعقبها ، وجمعوا ما وجدوه منها ، وأودعوه كثيراً من كتب الأدب وذخائر المعرفة . ولقد كان لأبى تمام والبحترى جهود محمودة فى تنسيق كثير من هذه الألوان ، وجمعها فى دواوين خاصة عرفت بهم ، وشرحت من بعدهم أكثر من مرة ، ثم سار على نهجهما الكثيرون فى إخراج العديد من كتب الحماسة .

والشعر الحماسى الذى نعرض له يتناول ما دار فى الحروب ابتداء من الإعداد لها ، وانتهاء بما آلت إليه ، وتمخضت عنه ، ويتناول أيضاً ما قاله الشعراء افتخاراً بجهودهم ، وإشادة بملوكهم وأبطالهم الذين بذلوا جهوداً مشكورة فى الدفاع عن الأوطان والمعتقدات ، بينما يُقتصر فى شعر الحرب على ما دار فيها ، ولا يتعداها إلى ما بعدها وما ترتب عليها ، وبذلك يظهر الفرق البسيط بين اللونين ، وإن كان من الممكن جعلهما لوناً واحداً من غير نظر إلى هذا التحديد

والحروب التى دار حولها الشعر الحماسى فى هذا الكتاب هى حروب الدولة الحمدانية مع الروم فى عصر سيف الدولة الحمدانى ، وحروب المسلمين مع الصليبيين فى القرنين السادس والسابع الهجريين .

وقد نهض المتنبي بتخليد سيف الدولة ، وأشاد به ، ووصف معاركه مع الروم في روعة لا نظير لها من خلال مجموعة من القصائد عرفت (بالسيفيات) . وشارك أبو فراس بقصائده الحماسية في تمجيد الحمدانيين جميعاً . وأنهينا الحديث عن هذين الشاعرين بموازنة بين شعر الحماسة عندهما ، ليقف القارىء على بعض ما بينهما من مواطن الاتفاق والاختلاف .

أما الشعر الحماسي في ظلال الحروب الصليبية ، فليس له شاعر معين ، أو عدد محدد من الشعراء وقفوا أنفسهم عليه ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لكثرة الحروب ، وامتدادها عبر قرنين من الزمان ، واتساعها لتشمل أكثر من دولة ، وقد واكبها انحدار الشعر إلى الزخرف والزينة ، وانتشار العامية والكلمات الأجنبية على ألسنة الشعراء ، وبقي شعر الحماسة مع ذلك قويا مؤثراً لصدق العاطفة ، وقوتها على أن الشعر الحماسي في هذه الحروب لم يصل إلى مستوى نظيره في حروب سيف الدولة مع الروم .

وقد انتهت فصول الكتاب بنهاية العصر العباسي الثاني ، وإن لم تكن الحروب الصليبية قد انتهت حتى ذلك الحين فأتممنا الحديث عنها في خاتمة الكتاب .

والكتاب بفصوله المختلفة وبحوثه الممتدة يتابع أطوار الشعر الحماسي في ذلك العصر الذي اشتد فيه صراع الأمة الإسلامية مع الروم والصليبيين ، وكان النصر للمسلمين من وراء جهادهم وإخلاصهم ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ؟

دكتور / السيد محمد أحمد ديب

المطرية بالقاهرة في يوم الاثنين : ٢٢ من ذي القعدة سنة ١٤٠٤ هـ
٣٠ من أغسطس سنة ١٩٨٤ م

تمهيد

الحماسة :

الحماسة فى اللغة : الشجاعة والشدة والصلابة ، وهى من الفنون الخالدة فى الشعر العربى على مر العصور « إذ كانت الحرب وما تزال سنة دائرة من سنن الحياة، حتى لتشبه أن تكون غريزة من غرائز الإنسان فهو ، منذ وجد محارب يجالد الخصوم حفظا على بقائه وحماية لأهله وماله »[1] .

ولم يكن العرب أول من اهتدى إلى هذا الفن ، فقد سبقتهم أمم كثيرة كالإغريق ، والرومان ، والهنود ، والفرس وغيرهم ، ولهذه الشعوب وغيرها ملاحم حربية طويلة سجلوا فيها أيام حروبهم ، وما فيها من انتصارات وهزائم.

ويعد هوميروس رائدا ومبدعا فى هذا الفن عند اليونان، فقد تناول فى قصائده الحماسية كالإلياذة والأوديسة معارك قومه مع أهل طروادة[2] فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد اتخذ فرجيل من هوميروس رائدا له فنسج على منواله ، وسار على نهجه ، وأبدع فى ملحمته الحماسية المسماه بالإنيادة وصور فيها طموح الشعب الرومانى وآماله ، وهى ذات طابع دينى ووطنى .

وللشاعر الهندى (فياسه) ملحمة طويلة إذ تبلغ مائة ألف بيت ، وقد نظمها فى الحرب بين شعوب الهند ، وهى المعروفة باسم المهابهاراته) .

وقد كتب الفردوسى المتوفى فى القرن الخامس الهجرى ملحمته الحماسية (الشاهنامة) مسجلا فيها تاريخ الفرس ، وحروبهم فى أربعة آلاف سنة .

---

(١) الحماسة للسباعى بيومى وآخرين ص ١ ، مطابع المصرى « تحت الحراسة » .

(٢) مملكة كانت تقع فى آسيا الصغرى بحذاء الدردنيل .

ولم ينقل عن العرب مثل هذا الشعر القصصى لطبيعة حياتهم ، وخصائص شعرهم ، فضلا عن فطرتهم البدوية ومعتقداتهم الدينية ولكل هذه الأمور وغيرها انصرفوا عن هذا الاتجاه إن صح أنهم لم يقولوه ، وعاشوا حياتهم يتغنون فيها بالآلاف من قصائد الشعر الحماسى .

وقد ارتبط فن الحماسة عند العرب وغيرهم بالحرب إذ تلجأ الشعوب إليها فى حياتها البدائية والفطرية ، وتميز العرب (أيضا) فى الجاهلية بكثرة معاركهم ، ووقائعهم ، حتى لتوشك أن تكون الحرب نظامهم اليومى المعتاد »[1]

وكان الشعر هو الوسيلة الوحيدة فى دفع الرجال إلى القتال ، وفى التغنى بالانتصارات ، ولهذا عظم الشعر بينهم ، وأصبح الشاعر لسان القبيلة فى الحرب والسلم ، ففى الحرب يمتدح البطولة العربية التى تقوم على الاستبسال فى القتال ، ومقاومة الأعداء . وفى السلم يشيد بالعزة والأنفة والوفاء ، وبكل الصفات الحميدة فى الشجعان والأبطال من رجال قبيلته .

وقد يأتى شعر الحماسة مستقلا وقائما بذاته أى أن القصيدة كلها تكون حماسية مرتبطة بالحروب ، والمواقف الشديدة ، أو يأتى هذا اللون الشعرى من خلال فنون الأدب المختلفة ، التى يعرفها أهل الأدب عام المعرفة كالمديح والفخر والوصف والرثاء وغيرها . على أن شعراء المديح لم يتركوا معركة بين العرب وأعدائهم إلا سجلوا فيها مجدنا العربى ... « ليدفعوا الشباب إلى سل السيوف ، وقطع رقاب الأعداء ، ومحقهم محقا ، وبذلك كان المديح طوال العصور ... صحيفة تربية ، وصورة للبطولة والفداء »[2] .

وكذلك توسع العرب فى فن الحماسة من خلال الوصف الشعرى ، فكان

---

(١) الحماسة ص ١

(٢) عصر الدول للدكتور شوقى ضيف ص٣٣٦، طبعة دار المعارف سنة ١٩١٠م .

الشعراء يصفون المعارك بما فيها من جيوش وآلات حرب ، وخيول وغيرها . وفى الفخر يمدحون أنفسهم ورجال قبيلتهم بالإقدام إلى الأعداء : والنيل منهم ، والانقضاض عليهم ، والظفر بهم ، ويشيدون بعزائمهم الجبارة ، وهممهم القوية ، ويفخرون بأيامهم الجيدة التى تحقق فيها النصر على الخصوم والأعداء. وعند ما يرثون ميتا من موتاهم يتحدثون عن بطولته ، وبسالته فى قتال الأعداء وفى الدفاع عن قومه وأهل عشيرته .

وهكذا توسع العرب فى هذا الفن ، ودخلوا إليه من منافذ متعددة وعلى هذا جمع أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى) ديوانا كبيرا من شعر العرب فى فنونه المختلفة ، واختاره لآل سلمة وسماه الحماسة ، ثم جاء البحترى من بعده واختار هو الآخر ديوانا حماسيا للفتح بن خاقان . وسار على نهجهما فى هذا الاختيار « الخالديان ، وابن الشجرى ، وأبو هلال العسكرى ، والأعلم الشنتمرى ، وأبو الحجاج يوسف بن محمد البياسى الأندلسى ، وأبو الحسن على بن أبى الفرج البصرى ، وفى دواوينهم المعروفة بالحماسات »[1] .

شعر الحماسة فى العصر الجاهلى :

يعد العصر الجاهلى العصر الذهبى لشعر الحماسة ، لأن طبيعة حياة العرب فى هذا العصر جعلتهم يندفعون إلى الحرب والقتال للرغبة فى السيطرة وامتداد النفوذ . « وطبعى أن تعم الحماسة فى هذه الحياة التى تحولت فيها الجزيرة العربية إلى ما يشبه ميداناً كبيراً من ميادين الحرب ، ففى كل قبيلة دعوة للجلاد

---

(١) من مقدمة ديوان الحماسة لأبى تمام ص ٦ ج ١ ، نشر احمد أمين وعبد السلام هارون الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٧ م .

والكفاح ، وفى كل دار صياح واستنفار للشجعان أن يدركوا أعداءهم »[1].

كانت الحياة فى جزيرة العرب حياة حرب وقتال ، وغارات لا تنقطع إلا ريثما تبدأ من جديد ، ومعظم هذه الحروب يدور بين القبائل العربية التى تتقاتل لأسباب الجيرة ، وما تجره من خلافات متعددة حول مواطن الكلأ أو للأخذ بالثأر ، وقد تمتد الحرب بينهم إلى عشرات السنين ، ولهذا كثرت أيام حروبهم حتى زادت عن الألف يوم ، وسميت هذه الأيام « بأيام العرب » كحرب البسوس وداحس والغبراء وغيرها .

وقد تقتتل القبائل العربية مع جيرانها من الفرس أو الروم كحرب ذى قار بين العرب من قبيلة بكر وحلفائها مع الفرس ، فالعرب فى جاهليتهم قد اقتتلوا مثلما كانت الأمم الأخرى تقتتل فيما بينها أحر قتال ، وليس بخاف علينا ما كان يدور بين الأغريق والرومان ، ولكن الاختلاف بيننا وبينهم فى الشعر الحماسى نفسه وليس فى أسبابه الداعية إليه ، فلقد ظهر الشعر الحماسى عند العرب فى صورة غنائية وليس فى شكل ملحمى أو مسرحى كما كان عند الأمم الأخرى.

ولم يغفل شاعر من شعراء الجاهلية الحديث عن الحماسة والبطولة والبسالة ، فهذا الفن عندهم ـ سواء أكان فنا مستقلا بذاته أو مختلطا بغيره من فنون الشعر المختلفة ـ لم يطاوله فن شعرى آخر .

ولقد أخذَتْ الحماسة عندهم أشكالا متعددة ، فهى تكون تعبيرا عن فروسية شاعر واحد يضرب فى الصحراء ، ويجابه مخاطرها فى غير خوف أو مبالاة ، وأصدق من يمثل هذا اللون من الحماسة الشعراء الصعاليك الذين ظهروا فى هذا العصر تمردا على قيود القبيلة ، وطلبا لحياة متحررة ، ومنهم تأبط شرا ،

---

(١) الحماسة ص ١٥ .

والشنفرى ، وعروة بن الورد ، ويلقى هذا اللون الحماسى اهتماما كبيرا من الأدباء والنقاد فى كل العصور .

وتأتى الحماسة تعبيرا عن مثالية فارس من فرسان القبيلة المكافحين الذين ينهضون للدفاع عنها بالسنان واللسان معا ، وأصدق من يمثل هذا الإتجاه الحماسى ، ويعبر عنه الشاعر عنترة العبسى فى شعره عن حروب قبيلتى عبس وذبيان ، يقول لمحبوبته عبلة فى معلقته المشهورة :

لما رأيتُ القوم أقبل جمعُهم   يتذامرون كررت غير مذمم (١)
يدعون عنتر والرماحُ كأنها   أشطانُ بئر فى لبان الأدهم (٢)
ما زلت أرميهم بثغرة نحره   ولبانه حتى تسربل بالدم (٣)
فازورّ من وقع القنا بلبانه   وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم (٤)
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمى

ومن أهم ألوان الحماسة فى الشعر الجاهلى الحماسة للقبيلة فى قتالها مع جيرانها العرب ومن خير مايميز عن هذا اللون معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى التى أنشدها أمام عمرو بن هند ملك الحيرة يحذره هو وقبيلته بكرا من التعرض لتغلب قبيلة عمرو .

ونجد الحماسة عند الأعشى معبرة عن التعصب للدم والجنس من خلال قصيدته عن حرب ذى قار بين العرب والفرس قال فيها :

لو أن كل معَدٍ كان شاركنا   فى يوم ذى قار ما أخطأهم الشرفُ

---

(١) يتذامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال .
(٢) الأشطان : حبائل الدلاء ، اللبان : الصدر ، الأدهم : الفرس الأسود .
(٣) ثغرة النحر : فقرته .
(٤) أزور : مال ، القنا : الرماح ، التحمحم : صهيل فيه حنين .

لما أمالوا إلى النُّشّاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف[1]
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

وفى الحروب السابقة وغيرها نجد الشعراء يعرضون لمسرح المعارك ويسجلون ما يدور فوقه، ويصفون شجاعة الأبطال، وأدوات الحرب، ويحددون زمن القتال، فى مقطوعات صغيرة من الشعر أو فى شكل معلقات وقصائد طوال.

ويعد الفخر والحب من أهم الفنون التى اختلطت، وامتزجت بالحماسة، أما الفخر فلطبيعة حياتهم فى الحواضر والبوادى على السواء، وأما الحب فلأن المرأة دورا (فى بعض القبائل) لا ينبغى إغفاله، فهى إما ملهمة للشاعر كعبلة محبوبة عنترة، وإما شاعرة تقول الشعر الحماسى مثل الرجال من الشعراء، كالخنساء التى رثت أخويها معاوية وصخرا ثم أجادت وأبدعت فى رثاء أولادها الأربعة الذين استشهدوا فى موقعة القادسية بعد ذلك.

شعر الحماسة فى صدر الاسلام :

تحولت الحماسة فى العصر الاسلامى (من بعد الهجرة وحتى نهاية حكم الخلفاء الراشدين) تحولا جديدا يواكب شريعة الاسلام فى الأخلاق والمعاملات، ونُظُم الحياة، فلقد اختفت عادة الأخذ بالثأر والشجاعة فى الباطل، والعصبية القبلية لتحل محلها تعاليم الاسلام فى الجهاد فى سبيل الله، والشجاعة فى الحق، والأخوة الإسلامية، وبعد أن كان العربى يعيش لنفسه ولأسرته وقبيلته أصبح يعيش لنفسه وللمجتمع الإسلامى الذى أصبح وحدة متكاملة فى الجهد والمال وأعباء الحياة.

ولقد انعطف الشعر الحماسى فى هذا العصر إلى منعطفين أساسيين، أما الأولى

(١) النشاب : النبل، البيض : السيوف، الهام : الرءوس.

فقد تحول الشعر فيه إلى غزوات الرسول التي خاضها مع كفار قريش ، أما الثانى فقد دار حول الفتوح الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين .

وكانت غزوة بدر أول احتكاك قوى بين الرسول وكفار مكة ولم تلبث الفئة القليلة المؤمنة أن انتصرت على الفئة الكبيرة الكافرة ، وعاد شعراء المدينة يرتلون الشعر الحماسى فى قوة وإيمان ومنهم كعب بن مالك الذى قال :

فكب أبو جهل صريعاً لوجهه   وعتبة قد غادرنه وهو عاثر (١)
وشيبة والتيمى غادرن فى الوغى   وما منهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها   وكل كفور فى جهنم صائر
وكان رسول الله قد قال أقبلوا   فولوا وقالوا : إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به   وليس لأمر حمه الله زاجر (٢)

ومن شعر حسان فى هذه الغزوة :

لقد علمت قريش يوم بدر   غداة الأسر والقتل الشديد
بأنا حين تشتجر العوالى   حماة الحرب يوم أبى الوليد (٣)
قتلنا ابنى ربيعة يوم سارا   إلينا فى مضاعفة الحديد (٤)

وهكذا تحول الفخر القبلى إلى نوع جديد هو الفخر الدينى كلون من الشعر الحماسى فى عصر صدر الاسلام .

ولقد استولى العرب فى عهد الخلفاء على مصر والشام من أيدى الروم ، كما

---

(١) كب لوجهه : انكفأ على وجهه ، العاثر : الساقط .
(٢) حمه : قدره .
(٣) العوالى : أعالى الرماح ، تشتجر : تشتبك ، أبو الوليد : عتبة بن ربيعة .
(٤) ابنا ربيعة : عتبة وشيبة ، مضاعفة الحديد : الدرع التى ضوعف نسجها .

استولوا على الدولة الفارسية ، وللشعراء المسلمين قصائد حماسية ، رائعة ، تصور إقبالهم على الحروب ، وإقدامهم على قتال الفرس والروم فى مواقع متعددة كالقادسية ونهاوند وغيرها . وممن عبروا عن حماسة العرب فى هذه الحروب أبو محجن الثقفى وعروة[1] بن زيد الخيل ، وبشر بن ربيعة الخثعمى والأسود ابن قطبة وغيرهم ممن كانوا شعراء وفرسانا .

شعر الحماسة فى العصر الأموى :

اتجه شعر الحماسة فى عصر بنى أمية إلى اتجاهين اثنين .

الاتجاه الأول :

نحو الفتوح الإسلامية ، التى بدأت فى عصر صدر الاسلام ، ولقد واصل الأمويون نشاطهم المحمود فيها إلى الشرق والغرب .

الاتجاه الثانى :

وهو الذى انصرف إليه معظم الشعراء فى هذا العصر نحو الداخل ومافيه من صراعات حزبية أحيتها العصبية القبلية التى عادت للظهور فى هذا العصر بعد أن اختفت على عهد الرسول ، وخلفائه الأوائل .

فشعراء الحماسة فى هذا العصر قد سعوا إلى تحقيق أهدافهم السياسية فى ظل الأحزاب المتعددة التى كادت تمزق الناس شر ممزق ، مستعينين فى ذلك بالعصبية القبلية التى كان الإسلام قد أماتها ، مع استغلال الدين أو التحصن به على اختلاف فى الهوى والقصد .

وإذا كان الشعر الحماسى فى هذا العصر قريب الشبه بنظيره الجاهلى من حيث

---

(١) أسلم والده زيد الخيل وسماه الرسول زيد الخير .

جزالة اللفظ وروعة الديباجة إلا أن شعر الحماسة عند الأمويين قد حفل بألفاظ ومصطلحات جديدة ، لم يكن للجاهليين عهد بها ، كما أن هذا الفن قد ضعف فى هذا العصر بالنسبة إلى حالته فى العصر الجاهلى باستثناء بعض الفحول من الشعراء

وأقوى الأحزاب السياسية انصهارا فى الحرب ، وحبا القتال فى هذا العصر حزب الخوارج، فكانت حماستهم دينية ممتزجة بالفخر والسياسة ومن زعمائهم الذين برزوا فى القتال وقول الشعر قطرى بن الفجاءة ، ومن شعره الحماسى الذى يخاطب فيه نفسه ، ويحثها على الصبر والثبات قوله :

فصبرا فى مجـال الموت صبرا ... فما نيل الخـلود بمستطاع
ولا ثوب البقـاء بثوب عز ... فيُطْوَى عن أخى الخَنَعِ اليراعِ (١)
سبيلُ الموت غاية كل حى ... فداعيه لأهل الأرض داعِى
ومن لا يُعْتَبَطْ يسأم ويهرم ... ويُسْلِمْه المنون إلى انقطاع (٢)
وما المرء خير فى حيـــــــاة ... إذا ماعد من سَقَطِ المتاعِ

كما يتجلى الشعر الحماسى أيضا فى شعر الشيعة الذين كانوا على طرفى نقيض من الخوارج وقد استقروا فى العراق ، وكانوا ينادون بأن تكون الخلافة فى آل البيت ، وخاضوا عدة حروب مع الأمويين ، وقُتِل الكثير منهم ، ولهذا جاء شعرهم مقرونا بالشجون ممزوجا بالدم والدموع ، وقد خلطوا السياسة بالدين : لأن فكرتهم دنيوية خالصة من أجل الوصول إلى الحكم الذى عض عليه بنو أمية بالنواجذ . وأول الشعراء عند الشيعة هو الكميت بن زيد الأسدى .

---

(١) الخنع : الذلة ، اليراع : الجبان .

(٢) يعتبط : يموت ، المنون : الموت .

وعبّر عبد الله بن قيس الرقيات فى شعره الحماسى عن مطالب آل الزبير الذين اتخذوا من الحجاز مركزا لانطلاقهم ، وامتد نفوذهم إلى بعض المناطق فى العراق ، وخاض عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب عدة حروب مع بنى أمية . وقد قُتِل الأول بحرم مكة وصلب بجوار الكعبة وقتل الثانى بأرض العراق . وظل ابن قيس الرقيات بمكة ثم فرّ هاربا إلى فلسطين بعد مقتل عبد الله بن الزبير فى الحرم الشريف .

والتف عدد كبير من الشعراء حول الحزب الأموى الحاكم ، فوصفوا الحروب ، وأشادوا بحماسة الجنود ، وسجل الأخطل وكعب الأشقرى ومسكين الدارمى وغيرهم بطولات الأمويين ، وقتالهم لخصومهم من أهل الأحزاب الأخرى ، وكان النصر غالبا فى هذه الحروب الداخلية لبنى أمية ، وخاض الجيش الأموى حروبا أخرى فى الخارج وهى التى أطلق عليها « حرب الفتوح الإسلامية » .

الحماسة فى العصر العباسى الأول :

مع أن عصر الأحزاب السياسية قد انتهى بانتهاء حكم الأمويين إلا أن البقية الباقية من فلول الخوارج والشيعة كانت تقاتل فى هذا العصر فى حروب داخلية للدفاع عن مبادئها وأفكارها السياسية والدينية ، ثم لم يلبث أن خمد صوت الحروب الداخلية بين هذه العناصر ، وكان ذلك أحد الأسباب فى ضعف الشعر الحماسى فى هذا العصر ، وعاون على هذا الضعف أيضا توقف الفتوح الاسلامية حينا من الزمن فى أوائل هذا العصر ، وذلك لانشغال العباسيين بتوطيد ملكهم ، وتأمين دولتهم .

ثم اشتعلت الحروب بين العرب والروم فى عصر هارون الرشيد ثم فى عصر المعتصم .

وسواء أكانت هذه الحروب على البر أو فى البحر ، فقد اهتم الشعراء أيضاً بالمعارك البحرية ، فوصفوا ما دار فيها فى شعر حماسى جديد ورائع .

ومن خوالد أبى تمام الحماسية فى حروب المعتصم مع الروم قصيدة :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

« وتفيض كتب التاريخ فى وصف هذه الحملة ، وما أفاء الله على المعتصم وجنوده من غنائم فيها ، وما قتلوا وأسروا من الروم ، وما سبوا من نسائهم. وهى لا ريب أعظم حملة فى تاريخ العباسيين ، وقد ألقوا بها الرعب والفزع فى قلب تيوفيل وأعوانه وأوشك أن يقع أسيرا لولا فراره على وجهه ، ولحاقه بعاصمته ، تاركا وراءه خيرة قواده تنوشهم سيوف المعتصم وجنوده »[1] .

قال أبو تمام عن هذه الحملة التى ذهبت لقتال الروم على أرض « عمُّورِيّة » :

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشبِ
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... تَشُلُّه وسطها صبح من اللهبِ[2]
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغبِ
ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمةٌ من دخان فى ضحى شحبِ[3]
فالشمس طالعة من ذا ، وقد أفلَتْ ... والشمس واجبة من ذا ولم تَجِبِ[4]

والقصيدة طويلة وكلها صور فنية رائعة .

ولأبى تمام قصائد أخرى حماسية يصف فيها حروب أبا سعيد الثغرى والى العباسيين على أرمينية ، وسائر ثغور الروم فى شمالى سورية ، وقد مدح البحترى

---

(١) الحماسة للسباعى بيومى وآخرين ص ٨٤ .
(٢) يشله : يطرده .
(٣) عاكفة : مخيمة .
(٤) أفلت ووجبت : غابت .

هذا الوالى لفتوحاته العظيمة ، ولكرمه وبسطة يده ، وارتياحه المعروف ، وحبه للشعر والشعراء ، وقد أجاد البحترى فى تصوير حماسة أبى سعيد ، فقال عنه :

فزعوا باسمكِ الصبى فعادتْ حركات البُكاء فيه سُكُونا

ويقول الدكتور زكى المحاسنى معلقاً على هذا البيت : « وإنى أرى فى هذا البيت وحده غنية عن قصائد فى تصوير بطولة أبى سعيد الثغرى وبطشه فى ديار الروم ، وحماية حدود المسلمين »[1] .

وقد استمرت الحروب بين العرب والروم فى العصر العباسى الثانى[2] ، وتحدث عنها وأجاد فى تصوير وقائعها الشاعران العظيمان أبو الطيب المتنبى ، وأبو فراس الحمدانى فى ظلال سيف الدولة ، وهذا ما سوف نعرض له بالتفصيل فيما يأتى من صفحات .

---

(١) شعر الحرب ص ٢٠٥ دار المعارف ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٠ م .

(٢) من ٣٣٤ هـ إلى ٦٥٦ هـ .

الباب الأول

شعر الحماسة فى ظلال الحمدانيين

الفصل الأول

الدولة الحمدانية فى ظل سيف الدولة

وأهم الشعراء فى عصره

كانت الدولة الحمدانية كغيرها من الدول الكثيرة التى ظهرت على مسرح الأحداث السياسية فى القرن الرابع الهجرى وما بعده ، لأن الدولة العباسية وهى الأم (الكبيرة) قد تجاوزت - وبسرعة - مرحلة الشباب والقوة إلى سن اليأس والضعف ، ولخيراتها الكثيرة ، ومساحتها الشاسعة طمع فيها الكثيرون ، وأصبحت اسما بدون مسمى ، أو رمزاً (ظاهريا) لوحدة المسلمين .

لقد كان الخليفة العباسى مع بداية القرن الرابع (بالذات) مشغولا بنفسه ، منصرفاً إلى حاشيته ، لديه مملكة واسعة تمتد شرقاً وغرباً ، لكنه مشلول الإرادة ، مسلوب الحركة ، تتحكم فيه وتسيّر أموره عناصر أجنبية من ترك وفرس ، وهم يتناوبون الجلوس حوله ، ويعدون له القرار ، ويحرسونه بقواتهم الخاصة ، ويتوعدونه بالقتل إن انفرد بالرأى دونهم ، وكانت هذه العناصر الأعجمية على وعى كامل بما تفعل وتخطط ، ولم يكن اختيارها للصغار من العباسيين ليكونوا خلفاء اختياراً عشوائياً .

ولهذا .. « زالت هيبة الخلفاء ، ولعب بهم الأعاجم لعباً يسطره التاريخ بمداد من الأسى والحسرة ، تدمع لرؤيته عينا كل من يمت إلى العروبة

بسبب ، وكل من يستشعر قلبه الكرامة والإباء ، وكان ذلك مؤذناً بأفول نجم العباسيين »(١) .

وقد ذهبت دماء عربية كثيرة ضحية لمؤامرات خبيثة خططت لها ، وأشعلت نارها تلك العناصر التي اتخذت من الإسلام ديناً جديداً ، كما تعرض الدين الإسلامي لهزات عنيفة ، وضربات مصمية ظهرت آثارها في القرون التالية . وأصيبت اللغة في مقتل ، وعاشت مدة بين المد والجزر ، وتقلص الناطقون بها ، واختفوا تماماً من بلدان كثيرة بالغرب والشرق كانت قد تعربت بالإسلام . وكونت هذه الدماء الأجنبية دولا متعددة ، واتجهوا بها شمالا وشرقاً في فارس، وبلاد الترك وخراسان وأفغانستان .. وغيرها .

وبقيت العناصر العربيـة في بعض أجزاء من العراق وسورية ومصر ، والجزيرة العربية ودول المغرب العربي والأندلس .

وكانت هذه الدول الصغيرة والمتعددة من عرب أو عجم ، والتي نشأت مع هذا العصر تخوض غمار حروبها تحت راية الإسـلام وضد أعدائه ، وكثيراً ما كانت تقتتل مع بعضها من أجل امتداد النفوذ ، وشمول السيطرة على مساحات أوسع ، ولهذا كانت حياتها قصيرة ، لأنها لم تتفق على هدف تسعى إليه ، فالمصالح مختلفة ، والأهواء متباينة .

والدولة الحمدانية إحدى هذه الدول ، فقد برزت إلى الوجود السياسي والجغرافي في القرن الرابع الهجري ، وعاشت معظم حياتها في حروب طويلة ومستمرة مع الروم والبيزنطيين من جهة ، ومع الدول المجاورة والقبائل العربية

---

(١) الشعر في ظل سيف الدولة د . درويش الجندي ص ٤٢ ، الأنجلو المصرية الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م .

من جهة أخرى ، فضلا عن حروب الشق الثانى من هذه الدولة[1] مع آل بويه والأكراد والعقيليين وغيرهم .

وهذه الدولة فى أساسها أسرة عربية كبيرة ، عريقة الأصل ، عظيمة المجد ، وهى قبيلة « تغلب » إحدى قبائل ربيعة ، وجدها الأعلى فى الجاهلية الشاعر الفارس عمرو بن كلثوم التغلبى ، فقد اشتهرت بالشعر كاشتهارها بالفروسية وإليها ينسب كذلك المهلهل الشاعر التغلبى الربعى الذى كان رائدا فى الشعر الجاهلى . وقد نزحت هذه القبيلة من تهامة إلى نجد والحجاز ، ثم استقرت على ضفاف الفرات فى سهل الرقة الفسيح . وكانت « تغلب » مسيحية الديانة ، ولم يقتنع أهلها بالإسلام كدين جديد عند ظهوره ، ثم صالحهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، واختلفوا مع على كرم الله وجهه ، واتجهوا إلى الأمويين ، وكان منهم الأخطل الشاعر الأموى المشهور ، ولم يستمروا على مسيحيتهم فدخلوا فى الإسلام واحدا بعد الآخر . وظهر من تغلب جد الحمدانيين الأكبر حمدان بن حمدون ابن الحارث الذى كان من رؤسائهم ، ومن أصحاب الشأن الكبير فى ديارهم ومحل إقامتهم بالعراق ، وقد نزل فى بلدة تسمى « رباح » بجوار الموصل . . . « وكان ذا مكانة عالية بين قومه ، ينظرون إليه بعين الإجلال الإكبار ، ومن عهده يبدأ الجهاد الحمدانى المتواصل لتنال الأسرة الحمدانية ما هى جديرة به من شرف السيادة وعزة الملك »[2] .

وقد بدأ حمدان بن حمدون محاولته لتكوين دولة حمدانية مستقلة وذات سيادة محدودة عندما استولى على قلعة ماردين سنة ٢٧٤ هـ ، ولكنه لم يوفق فى محاولته فقد أجهض الخليفة المعتضد محاولته ، وقبض عليه وسجنه سنة ٢٨١ هـ . ثم عادت

---

(١) وهو الذى اتخذ من الموصل مستقرا له .

(٢) الشعر فى ظل سيف الدولة ص ٢٩ .

الثقة بن المعتضد وآل حمدان، وسار الخليفة المكتفى على خطة أبيه فعين أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان حاكما الموصل وما حولها سنة ٢٩٢ هـ . . ولكن ولايته كانت محفوفة بالزعازع والانقلابات، لأن ولى الأمر فى بغداد لم يملك لنفسه خيرا ولا نفعا»[1].

وقد اشتد ساعد أبى الهيجاء، وزادت قوته بتعيين آخرين من بنى قبيلته فى مناصب متعددة من الخلافة العباسية المتسعة الأرجاء مما جعل الخليفة المقتدر يقلده الولاية المرة الثانية فى سنة ٣٠٢ هـ . واستمر أبو الهيجاء على ولائه للعباسيين حتى قتل سنة ٣١٧ هـ فى دار الخلافة ببغداد، ثم خلفه على ولاية الموصل ابنه (الحسن بن عبد الله) وضم إليه ديار بكر وديار ربيعة، واتسعت بذلك منطقة النفوذ للدولة الحمدانية.

وكان أبو محمد (الحسن بن عبد الله) وأخوه أبو الحسن (على بن عبد الله) من قواد الدولة العباسية النابهين، وقد قاوما بعض الخارجين على الخليفة المتقى، سنة ٣٣٠ هـ فأعجب بهما، ولقب الأول بناصر الدولة، ولقب الثانى بسيف الدولة، وأمر بضرب اسميهما على الدراهم والدنانير[2] وطوق كلاهما بطوقين وأربعة أساور من الذهب، وجعل سيف الدولة حاكما لواسط[3].

وقد زادت قوتهم، واتسع نفوذهم مع استمرارهم فى الولاء الظاهرى تجاه العباسيين، والعمل على خدمتهم، والدفاع عن دولتهم من أى عدوان خارجى أو داخلى . « لما بينهم وبين الخلفاء من وشيجة العروبة، وكثيرا ما اعتمد

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) انظر شعر الحرب فى أدب العرب للدكتور زكى المحاسنى ص ٢٥٥ طبعة دار المعارف .

(٣) مدينة بالعراق

عليهم الخلفاء فى قمع الفتن والثورات ، واحتموا بقوتهم ومنعتهم »[1] .

ولقد قامت الدولة الحمدانية بالعراق قياما طبيعيا حيث كان يعيش التغلبيون، وقامت فى شمالى سورية بالفتح والحروب ، إذ ترك سيف الدولة الموصل ، ويمم وجهه شطر الشام تاركا ما سيطر عليه الحمدانيون بالعراق تحت إمارة أخيه ناصر الدولة .

وقد استولى سيف الدولة على حلب ، وانتزعها من يد الأخشيديين فى سنة ٣٣٣ هـ وبسط سلطانه على شمالى الشام ، وكانت حلب عاصمة لهذه الدولة التى ضمت الثغور الشامية وحمص ومنبج وأنطاكية وغيرها مما وضع يده عليه ليكون مواجها الروم .

ولقد خفت صوت أخيه ناصر الدولة الذى كان مشغولا بحروب قبيلته مع العناصر المجاورة لحدود الدولة الحمدانية بالموصل بينما كان سيف الدولة ذائع الصيت بحروبه مع الروم، وقتاله لجيش الأخشيد بالشام ، وتوسيع الدائرة لنفوذ دولة بنى حمدان على حساب القبائل العربية المجاورة . . « ومهما يكن من شيء فقد أسس سيف الدولة فى شمالى سورية دولة يحمد لها التاريخ ما قامت به من جهود مشكورة فى سبيل الدفاع عن البلاد الإسلامية ضد الروم الذين كانوا لا يفتأون منذ أن فتح المسلمون الشام والعراق يحاولون أن يسترجعوا ما كان فى حوزتهم من تلك البلاد »[2] .

وعندما استولى بنو بويه على بغداد ، وأحكموا سيطرتهم على مقادير الأمور فيها سنة ٣٣٤ هـ وكانت الدولة الحمدانية فى الموصل والحلب وما يتبعهما دولة قوية وذات نفوذ ، ولهذا ابتعد بنو بويه عن الدولة الحمدانية ، واتجهوا إلى الشرق .

---

(١) الشعر فى ظل سيف الدولة ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٠ .

ولقد حكم الموصل أربعة من الحمدانيين ، إبان قيام هذه الدولة العربية ، ثم زال نفوذهم عنها فى سنة ٣٨٠ هـ على يد الأكراد والعقيليين بتأييد واستحسان من آل بويه فى العراق وفارس .

وحكم حلب خمسة من الحمدانيين أولهم سيف الدولة من سنة ٣٣٣ هـ إلى سنة ٣٥٦ هـ ثم خلفه أربعة من أولاده وأحفاده حتى استولى عليها الفاطميون فى سنة ٣٩٤ هـ ليمتد ملك الفاطميين فى مصر والشام .

وكانت الدولة الحمدانية والدولة الرومية البيزنطية فى عداء مستمر وحروب متصلة،وقد نهض سيف الدولة بالعبء الأكبر فى هذه الحروب،وحقق انتصارات عظيمة لم يحلم بها العرب ، وزرع الخوف والرعب فى قلوب قواد الروم ، وأخذوا يستعدون له لخوفهم منه ، وكان القتال بين العرب والروم - راجعا إلى سببين إثنين أما الأول فهو سبب دينى فكل منهما يدافع عن ديانته ، ويتعصب لها ويحارب من أجلها ، وأما الثانى فكان سببا دنيويا من أجل توسيع النفوذ ، وإحكام السيطرة على الأراضى والثغور والقلاع ، وقد استمرت الحرب بينهما سجالا .

والمعروف عن سيف الدولة وهو أقوى رجل، وأشهر شخصية فى هذه الدولة أنه كان شيعيا غير متطرف : « ولهذا استطاع بعد سقوط الإخشيديين ودخول الفاطميين مصر والشام أن يكون على علاقة طيبة بالخلافة الفاطمية »[1] .

سيف الدولة الحمدانى :

حقق سيف الدولة لبنى حمدان ، ولنفسه شهرة كبيرة ، فقد سجل التاريخ له

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبى ص ١١٠ جـ ٥ الطبعة الخامسة عام ١٩٨٢ م .

أنه القائد العربى الذى دخل مع الروم فى أربعين موقعة له أو عليه ، وهو الذى أرهبهم وجعل ملك الروم وقواده يتوجسون خيفة منه ، ويحشدون له الجيوش على الحدود فى أعداد كبيرة تفوق جيش سيف الدولة عشرات المرات ، وكانوا يجمعونها من أجناس مختلفة حتى كانت الجيوش تتكلم بلغات متعددة ، ولهذا كانوا يستعينون بالمترجين لإحكام السيطرة على هذه الجموع الكثيرة ، فهم دائما مشغولون بهذا الأمير الحمدانى العظيم ، فيتابعون أخباره ، ويكتبون عنه ، ويتدارسون طريقته فى الحروب ، لأنه مقاتل شجاع ، وبطل مغوار ، وفارس عربى أصيل .

ولد سيف الدولة فى مدينة «ميّافارقين»[1] فى أوائل القرن الرابع الهجرى[2] ، ونشأ كما ينشأ أبناء الأمراء من حيث العناية بالتثقيف والتربية ، وقد ذكر الثعالبى أن من أساتذة سيف الدولة من يسمى بأبى ذر ، وله شعر فى يتيمة الدهر .

وما أن تأتى سنة ٣١٧ هـ حتى يقتل والد سيف الدولة فى المأساة الكبرى التى وقعت بين الخليفة المقتدر بالله وأخيه القاهر ، ثم أصبح سيف الدولة فى كنف أخيه الأكبر ناصر الدولة بعد مقتل والدهما . ثم واصل سيف الدولة مسيرته - كما ذكرنا - حتى استولى على حلب وكون دولته فى شمالى الشام .

وقد تزوج بابنة عمه أسماء بنت سعيد بن حمدان أخت الشاعر الفارس « أبى فراس الحمدانى » وأنجب منها ، وممن دخل من أولادها ساحة التاريخ « أبو المعالى سعد الدولة » الذى باشر مهام أبيه بعد وفاته .

وبعد أن عقد سيف الدولة عهدا للصلح مع الأخشيديين تزوج بفاطمة بنت عبيد الله بن طغج الأخشيدى لتأكيد هذا الصلح وتوثيقه .

(١) أشهر مدينة بديار بكر (معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٣٥ طبعة دار صادر - بيروت) .

(٢) قيل إنه ولد فى سنة ٣٠١ هـ وقيل فى سنة ٣٠٣ هـ .

وذكر أبو منصور الثعالبي أن سيف الدولة تزوج عن حب خالصة من بنات ملوك الروم ، وأسكنها في إحدى القلاع خوفاً عليها من ضراتها ، وكانت مخلصة له معجبة به ، فلم تغضب أو تحاول منعه من قتال أهليها ، وكان الرجل يحمد لها ذلك فيهيم بها ، ويتغنى بشعره فيها .

ولقد اهتم صاحب اليتيمة بسيف الدولة فحلل أخلاقه ، ودرس عصره ، وذكر له نبذاً من شعره كقوله في زوجته الرومية :

راقبتني العيونُ فيـك فأشْـفقتُ ، ولم أخلُ قط من إشفاق
ورأيتُ المذولَ يحسدني فيـك مُجدا يا أنفسَ الأعلاق
فتمنيت أن تكوني بعيداً والذي بيننا من الود باقِ
رُبَّ هجرٍ يكون من خوف هجرٍ وفراقٍ يكون خوفَ فراق[1]

عاش الحمدانيون كدولة كبيرة في حروب مع الروم نحوا من ستين عاماً ، فضلا عن الحروب الأخرى مع آل بويه وغيرهم . وفي حلب علا صوت الحمدانيين ، وتوافد إلى مجالس سيف الدولة الشعراء والعلماء والخطباء ورجال التاريخ وأهل الفلسفة الذين التفوا حوله ، وأحاطوا به ، ولم يترك الشعراء والمؤرخون منهم معركة له أو عليه دون أن يسجلوا حماسته ويشيدوا بشجاعته ، وبسالة جنوده فيها .

وفي ديوان المتنبي (بالذات) الكثير من هذه الحروب ، وسوف نعرض لها في موضعها من هذا الكتاب .

وقد التقى المتنبي مع سيف الدولة ، وعاش معه في حلب تسع سنوات سجل

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي جـ ١ ص ٢٥ طبعة الصاوي سنة ١٩٣٤ م .

فيها كل ما شاهده ووقع تحت بصره خلدا بذلك تاريخ الحمدانيين وحياة أميرهم سيف الدولة ، كما شارك أبا الطيب ، وأكل المسيرة بعد وفاته الفارس والأمير أبو فراس الحمداني إلى أن توفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ .

كان سيف الدولة مثقفا ثقافة واسعة ، شاعرا ، متذوقا ، نقادة للشعر ، يميز مايقال فى مجلسه من صواب وخطأ، يفد إليه الشاعر وعالم اللغة والفيلسوف وغيرهم، لا طمعا فى التكسب لأن بعض الوافدين إليه لم يكونوا من طلاب المال ، وإنما لأن الرجل كان تجسيدا حيا للبطولة العربية ، ورمزا للحماسة ، وأهلا للفخر .

ولقد ساعد ذلك على نمو الحركة الأدبية فى عصره ، ولأنه كان شعاعا متفردا ينبعث منه الضوء على الأدب ، وقد تمكن بنزعته الأدبية من العمل على نهضة الأدب والعلوم الانسانية ، وكانت مجالسه فى أوقات السلم مدارس علمية يتثقف فيها الجاهل الخامل الذكر ، ويتهذب فيها الجاف ذو الطبع الغليظ ، وقد التف حوله عدد من الرجال تنوعت ثقافاتهم ، وتعددت مواهبهم ، وكانوا أهل سياسة وأدب . . « ولم تكن السياسة حتى أواخر العصور العباسية لتفترق عن الأدب ، ألم يكن الوزير كاتبا ، والقائد خطيبا ، وحاشية الخلفاء والأمراء من الشعراء والأدباء ، كذلك فإن رجال الدولة الحمدانية كانوا أدباء حربيين وشعراء من الفرسان ، وكان الشعر والأدب صناعتهم جميعا لأن سيف الدولة نفسه كان أديبا شاعرا »[1]. كانوا يغشون معه ساحة القتال ، فإذا انصرفوا وعادوا إلى قصر الملك فى المحل المسمى « بالحلبة » بحلب التفوا حوله ، وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم والهالة بالقمر ، وهو فى وسطهم كالدرة المضيئة يستدعم إليهم ويحكم بينهم .

وأول رجاله وألصقهم به على الإطلاق فى أزهى سنوات النصر أبو الطيب

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ص ٢٦١ .

المتنبى الذى لازمه تسع سنوات متتالية مدحه فيها بأروع القصائد والمقطوعات والتى عرفت باسم « السيفيات » وهى أعظم وأروع مافى ديوان أبى الطيب لما فيها من صدق فى العاطفة ، وعمق فى التجربة .

وثانى رجاله شاعر الفرسان وفارس الشعراء أبو فراس الحمدانى ابن عمه وربيب ملكه ، عاش معه عشرين سنة حاملا للسيف والقلم ، وذاق مرارة الأسر مرتين ، مدح سيف الدولة ، وأشاد بشجاعته ، وافتخر بنفسه وبقومه . وفى قصائده «الروميات» التى كتبها فى الأسر يستعطف ابن عمه لافتدائه ، من غير يأس ، ويتغنى بشجاعته كفارس بطل فى شعر وجدانى متوهج ، وأعظم شعر أبى فراس ما قاله فى الأسر بخَرْشَنَة أو بالقسطنطينية .

وممن اتصلوا بسيف الدولة ، وتحدثوا بحماسته ، وضمهم مجلسه من الشعراء أبو العباس النامى والسرى بن أحمد الرفاء ، وأبو الفرج الوأواء الدمشقى ، وممن ضمتهم هذه المجالس أبو نصر بن نباته الفارقى الواعظ البليغ والخطيب الذى تهتز له أعواد المنابر وأبو نصر الفارابى الفيلسوف الشهير ، والمعلم الثانى بعد أرسطو .

ومن الكتاب الذين وفدوا على سيف الدولة ، وأقبلوا على مجالسه العلمية والأدبية أبو الفرج الأصفهانى المؤرخ العظيم للأدب العربى الذى أهدى لسيف الدولة كتابه « الأغانى » بعد أن ألفه فى خمسين عاما ، وأبو على الحاتمى ، وأبو الفرج الببغاء المخزومى .

ومن علماء اللغة والنحو الذين شاركوا فى هذه المجالس الرائعة ابن خالويه العالم اللغوى الكبير وأبو على الفارسى عالم النحو والرائد فى مدرسة البصرة وابن جنى اللغوى المتخصص والشاعر المتذوق ، وصاحب التآليف الكثيرة وأبو الطيب اللغوى صاحب كتاب « مراتب النحويين » وغيرهم كثير .

وهكذا اجتذب سيف الدولة إلى حلب الأعيان من أهل الأدب واللغة والشعر، وإننا لنعجب عند ما نرى طباخه وهو كشاجم شاعرا وخزنة كتبه شعراء وهما الخالديان أصحاب كتاب « الأشباه والنظائر » فى الحماسة .

وعن هذه البيئة الأدبية فى هذا العصر يقول صاحب كتاب شعر الحرب « لم يشهد عصر من عصور الأدب العربى مجتمع علم وأدب ولغة وشعر مثل مجتمع سيف الدولة غير الرشيد المأمون[1] .

وقيل « لم يستطع غيره من الملوك فى زمانه مجاراته فى هذا المضمار[2] .

وقد كانت للصاحب بن عباد وابن العميد مجالس علم وأدب لكنها لم تجمع على كل حال مثل ذلك الحشد الكبير والمتنوع الذى ضمه مجلس سيف الدولة فى عاصمة ملكه ومن رجاله الذين عملوا معه، وأخلصوا له فى إدارة الدولة أبو العشائر الحمدانى والى انطاكية ، وأبو وائل تغلب بن داود الحمدانى ، وأبو وائل زهير بن نصر بن حمدان وهو رجل حرب وأدب . وقاضى القضاة أبو الحصين على بن عبد الله الرقى ، ومن غلمانه الذين عملوا معه ومع أولاده من بعده « قرعويه » الفارسى ، وقد أظهر المحبة والطاعة لمولاه فى حياته ، وحارب مع أبى المعالى سعد الدولة بعد وفاة والده .

وهكذا عاش سيف الدولة محاطا بهذه الدائرة الضيقة ، وقد حفل عصره بأعظم الانتصارات على الروم ، ثم انتهت حياته على غير ما يحب ويرضى ، فقد احتل الروم أرضه سنة ٣٥١ هـ ، ووقع معظم أفراد قبيلته ممن كانوا يعملون معه فى الأسر ، ثم دفع لهم الفداء ، وكان غالياً فى ظل الظروف المحيطة به ، ومات

---

(١) شعر الحرب ص ٢٧٢ .

(٢) الشعر فى ظل سيف الدولة لدرويش الجندى ص ٦٣ .

المتبنى قبله ، فلم يرثه ، ولكن ما قاله فيه من شعر السيفيات لكاف فى تخليد اسمه وتسجيل حروبه ، وإبراز حماسته .

ويؤخذ على سيف الدولة أنه كان مبذراً متلافاً خاصة فيما يتعلق بجوائز الشعراء والأدباء ، وفيما يتعلق أيضاً ببذخه فى قصره ، فضلا عما كان ينفقه الحمدانيون فى مواطن أخرى غير حلب ومنبج حيث يوجد قصرا سيف الدولة وأبى فراس .

ويضاف إلى ذلك أن سيف الدولة خاض كثيراً من الحروب مع الروم ومع العرب أيضاً ، وقد كلفته هذه وتلك الكثير من الأموال مما أرهقه وأرهق ميزانية دولته حتى أنه عجز فى بادىء الأمر عن افتداء الأسرى الذين وقعوا فى قبضة الروم بعد الانكسار الأكبر والهزيمة البشعة لجيش سيف الدولة سنة ٣٥١ هـ ، وكان بين هؤلاء الأسرى أبو فراس الحمدانى .

ويؤخذ عليه أيضاً أنه كان مستبداً برأيه لافتتانه بنفسه وإعجابه بحماسته ولهذا فشل فى آخر حياته فانهزم جيشه وتبددت قوته ، وكثرت الاضطرابات فى أرجاء مملكته . وقد أشار ابن مسكويه صاحب تجارب الأمم إلى ذلك فقال : « كان هذا الرجل - يعنى سيف الدولة - معجباً يحب أن يستبد برأيه وألا تتحدث نفسان أنه عمل برأى غيره ، وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذى يريد الخروج منه وشحنوه بالرجال ، فلم يقبل منهم ولج ، فأصيب المسلمون بأرواحهم ، وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه »[1]

على أن الحياة الأدبية فى الدولة الحمدانية بعد وفاة سيف الدولة قد أخذت

---

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨١ .

طابعاً ومنهاجاً يختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه الحال في حياة سيف الدولة .

أبو الطيب المتنبي :

لا أريد أن أشغل القراء بما اختلف فيه أهل الأدب وتاريخه حول نسب المتنبي وشعره وأخلاقه وطموحاته ، وقد دفع هذا الاختلاف في شخصية الرجل الأقدمين والمحدثين على السواء إلى البحث سعياً إلى الحقيقة ، وتطلباً لها ، ويكفينا أن نأخذ عنهم ما اتفقوا عليه ، وننقله الأصول من كتب الأقدمين على أن نشير إشارة عابرة إلى أهم ما اختلفوا فيه استكمالا للفائدة من غير إرهاق وإغراق .

ولد أبو الطيب (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي) بالكوفة في محلة تسمى (كِنْدَه) سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة . وكان والده (الحسين) من العامة ، يعمل سقاء فيحمل الماء على جمل له بالكوفة ، وكانوا يلقبونه (عِيدَان السقّاء)[1] .

ولم يتحدث المتنبي عندما كبر عن نسبه من جهة أبيه أو أمه ، مما جعل خصومه من الشعراء وهم كثر يمعنون في الكيد له ، والحط من منزلته كقول بعضهم :

أيُّ فضل لشاعر يطلب الفَضْـ ... ـل من الناس بُكْرَةً وعشيا
عاش حيناً يبيعُ بالكوفة الما ... ء وحيناً يبيعُ ماء المحيّا

أي أن أباه كان يبيع الماء وهو يبيع ماء وجهه على الممدوحين .

---

(١) عيدان : جمع عيدانة وهي النخلة الطويلة .

تلقى أبو الطيب علومه بكتاب للعلويين بالكوفة وبدأ بتعلم اللغة، وحفظ الشعر، وفهم الإعراب، وقد ماتت أمه فى صغره، فنهض أبوه بتربيته، وارتحل إلى بوادى الشام ليستكمل تعليمه بالحياة مع أهل البوادى، ومات أبوه بعد العودة إلى الكوفة التى بقى فيها أبو الطيب إلى جوار جدته لأمه حتى سنة تسع عشرة وثلاثمائة، ثم تركها لهجمات القرامطة[1] عليها ولكراهته للعلويين بها، وارتحل إلى بغداد ثم خرج منها إلى الشام سنة عشرين وثلاثمائة وبقى به ما يقرب من ثلاث سنوات.

مدح أبو الطيب سيف الدولة (لأول مرة) وذلك لإيقاعه بعمرو بن حابس وبنى ضبة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة[2]، فقال:

ذِكَرُ الصِّبا ومراتعُ الآرامِ   جَلَبَتْ حِمَامِى قبل يَوْمِ حِمَامِى

دخل أبو الطيب السجن فى حمص، وبقى فيه من سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وقد اختلفوا فى سبب دخوله السجن.

قيل: إنه دخل السجن لما خرج إلى بادية الشام، وأخذ يدعو الناس فيها إلى بيعته، لأنه كان يفكر ويطمع منذ أول شبابه فى أن يكون أميراً أو والياً، ولما علم أبو لؤلؤ والى حمص من قبل الإخشيد بدعوته خرج إليه فى بادية السماوة بالشام، وقاتل بنى كلاب الذين حموه، ودافعوا عنه، ودخل أبو الطيب السجن، ثم خرج منه فى العام التالى.

---

(١) فرقة من الشيعة الباطنية، وقد خلطت بين تعاليم الدين والعنف الحربى.

(٢) لا يميل الدكتور عبد الوهاب عزام فى كتابه عن المتنبى إلى تصديق ذلك وله رأى آخر حول هذه القصيدة ومناسبتها.

وقيل : إن دخوله السجن لم يكن بسبب ثورته فى بادية الشام ، وإنما كان لإدعائه النبوة فى قرية تسمى (نخلة) بالقرب من بعلبك . وقيل: إنه دخل السجن للتهمتين معا . وقيل : إنه دخل السجن مرتين الأولى بسبب الثورة فى بنى كلاب والثانية بسبب إدعائه النبوة فى قرية نخلة .

ويبدو أن حكاية ادعاء النبوة كانت تهمة لصقت بالمتنبى بعد خروجه من سجن حمص ، وساعد على ذيوعها بلاغة أسلوبه وروعة بيانه وثقته بنفسه ، وقد حبكوا التهمة فنسبوا إليه قولا يعارض به القرآن الكريم .

قال أبو الفتح عثمان بن جنى . سمعت أبا الطيب يقول : إنما لقبت بالمتنبى لقولى :

أنا تِرْبُ النَدَا وربُّ القوافى وسِمامُ العِدَا وغيظُ الحسود

أنا فى أمةٍ تداركها الله غريبُ كصالحٍ فى ثمود

وفى هذه القصيدة يقول :

ما مُقَامِى بأرضِ نَخْلَةَ إلا كمُقَامِ المسيح بين اليهود

وقيل : إن المتنبى هو الذى لقب نفسه بهذا اللقب لعظمته وعبقريته ، أو أن « بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به رمزاً لعبقريته الشعرية ، وأنه يأتى فى أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة »[1] .

ترك أبو الطيب الشام بعد الذى حدث له به ، ثم ذهب إلى الكوفة ، واستقر فيها ، وتزوج بها ، ثم عاد إلى الشام واتصل ببدر بن عمار الأسدى ومدحه ، وأقام معه مدة فى طبرية ثم رجع إلى الكوفة ، وتركها إلى الشام

---

(١) عصر الدول والإمارات ص ٣٤٥ لشوقى ضيف طبعة دار المعارف .

سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، وقد أرسلت إليه جدته (لأمه) تدعوه إلى الكوفة فمنعه العلويون من دخولها ، وماتت جدته سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، ورثاها ، فقال :

ولو لم تكونى بنتَ أكرمِ والدٍ
لكانَ أباكِ الضخمَ كونُكِ لِى أمّا[(١)]

وفى هذه القصيدة صب جام غضبه على حاقديه والشامتين عليه .

ترك أبو الطيب طبرية ، ولحق بالرملة من أرض الشام ومدح فيها أبا محمد ابن طغج الأخشيدى « وقد بقى أبو الطيب فى جوار الأمير أبى محمد بالرملة مكرماً يصحبه الأمير فى رحلاته ، ويحضره مجلسه ، ويرافقه فى زياراته ، ويفضل عليه كل الأفضال ، حتى أرضى ذلك القلب الذى كان بعض الأعاجم فيه طموحة مانية قائمة لا تفتر »[(٢)] .

ومن الرملة خرج أبو الطيب قاصداً أنطاكية فمر بطرابلس وبعلبك ودمشق حتى وصل إلى أنطاكية فى أواخر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، وكانت فى يد الحمدانيين العرب الذين انتزعوها من يد الأخشيديين الأتراك ، وقد وصل أبو الطيب إلى هذه المدينة وهو مكبر لنفسه مستشعر لعظمته وتفوقه على الشعراء، ومدح أبا العشائر فقال له :

أأصبرُ عنك ، لم تبخلْ بشىء ولم تقبلْ علىَّ كلامَ واش ؟
وما وُجِد اشتياقٌ كاشتياقى ولا عُرِف انكماشٌ كانكماشى
فسرتُ إليك فى طلبِ المعالى وَسارَ سِواى فى طَلبِ المعاش

---

(١) تسمى الجدة أما ، والضخم بمعنى العظيم .
(٢) المتنبى لمحمود شاكر جـ ١ ص ١٧٧ طبعة المدنى سنة ١٩٧٦ م .

وقد استقر المتنبي عنـد أبى العشائر ما يقرب من عام ، ونال منه العزة والكرامة .

المتنبي وسيف الدولة :

قدم سيف الدولة إلى أنطاكية فى جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة للراحة والاستجمام بعد أن ظفر فى حرب له مع الروم بحصن بَرْزويه ، وعندما استقبله ابن عمه أبو العشائر أخبره بما كان من قدوم المتنبي ، فطلب أمير بنى حمدان من أبى العشائر أن يستدعى شاعر العرب للقائه فهو لا زال يذكره منـذ مدحه فى سنة إحـدى وعشرين وثلاثمائة . والتقى الرجلان سيف الدولة وأبو الطيب ، وزاد إعجاب كل منهما بصاحبه ، وفى هذا اللقاء مدح أبو الطيب سيف الدولة بإحدى قصائده العظيمة والتى يقول فى مطلعها :

وفاؤُكما كالرَّبْعِ أشجاهُ طاسِمُه
بأنْ تُسْعِدَا والدمعُ أشفاهُ سَاجِمُه[1]

ومن الأبيات السائرة فى هذه المقدمة الغنائية قوله :

بَلِيتُ بِلَى الأطْلالِ إن لم أقِفْ بها
وقوفَ شحيحٍ ضاعَ فى التُّرْبِ خاتِمُهْ

ويقول فى مدحه :

سَلَكْتُ صروفَ الدهرِ حتى لقيتُهُ
على ظهرِ عَزْمٍ مؤيداتٍ قوَائِمُهْ

(١) وفاؤكما : الخطاب لخليليه اللذين عاهداه على أن يساعداه على البكاء عند ربع الأحبة . أشجاه : أحزنه ، الطاسم : الدارس ، ساجمه : من سجم الدمع إذا سال وهطـل .

مهالكَ لم تَصْحَبْ بِها الذئبَ نفسُه
ولا حَمَلَتْ فيهـا الغرابَ قوادِمُه(١)
فأبصرتُ بدْراً لا يرى البدرُ مثله
وخاطبت بحراً لا يرى العبْرَ عائمُه(٢)
غضبت له لما رأيتُ صفـــــاتِه
بلا واصف والشعرُ تَهْـذِى طَماطِمُه(٣)

بقى سيف الدولة بعد هذا اللقاء فى أنطاكية أشهراً وأبو الطيب إلى جواره، وقد تعاهدا على المصاحبة، ورحب المتنبى بملازمة الأمير فى حلب، وقالوا: إنه قد اشترط على سيف الدولة ألا ينشده وهو واقف، وألا يقبل الأرض بين يديه، فقد تعود المتنبى أن يتخذ من ممدوحيه صحاباً وأصدقاء، فكأنه قد رفض ما تعود عليه الشعراء فى عصره، وذلك اتعاظم فى نفسه، وإن كان دفء اللقاء بين الرجلين لا يتوافق مع برودة هذين الشرطين.

وعندما عزم سيف الدولة على الرحيل مدحه أبو الطيب بقوله:

أين أزْمَعْتَ أيُّهـذَا الهُمَامُ نحنُ نَبْتُ الرُّبى وأنتَ الغَمَامُ(٤)

وتبلغ أبياتها ثمانية عشر، وفيها من أبيات الحكمة قوله:

وإذا كانت النفوسُ كِباراً تَعِبَتْ فى مُرادِها الأجسامُ

---

(١) المهالك: المفاوز، وهى منصوبة على أنها كالبدل من «الصروف» القوادم: صدور ريش الجناح من الطائر.

(٢) عبر البحر: شطه.

(٣) تهذى، تتكلم بغير كلام معقول لمرض أو غيره، الطماطم المفرد طمطم، وهى عجمة فى اللسان لا يفصح معها.

(٤) الإزماع، العزم على الأمر، والهمام، الملك العظيم.

وقد تأخر المتنبي ، ولم يصحب أميره في الذهاب إلى حلب ، وبقي مدة في أنطاكية ثم لحق به .

ذكر الأستاذ محمود شاكر[1] أن مرض زوجة المتنبي وهي حامل ثم وفاتها ووفاة وليدها بعدها بعدة أشهر كان السبب في تأخره عن مصاحبة سيف الدولة من حلب إلى أنطاكية .

نعم أبو الطيب بالأمان والاستقرار في جوار سيف الدولة ، وأحب الأمير شاعره واختاره واصطفاه من بين الشعراء ، واتخذه خلا وأخا ، وصارحه بأسراره وكشف له عن مكنون قلبه . وقد اجتمعا على حب العرب وكراهية الأعاجم ، واتفقا في أمور كثيرة وكان منها المذهب السياسي ، ودام الوداد بينهما مايقرب من تسع سنين ، وكان المتنبي لايفارق سيف الدولة إلا في ساعات قليلة فيصحبه في حروبه ، وينشده في مجلسه ، ويشيد به إذا انتصر ، ويواسيه إذا هزم ، ويعزيه ، ويرثى من يموت من أقربائه .

وكانت هذه السنوات التسع أخصب فترة في حياة المتنبي من حيث كثرة الشعر ، وجودته ، وتنوعه ، وقد نفس عليه الكثيرون في حاشية سيف الدولة ، وفي مقدمتهم أبو فراس وأحمد بن خالويه .

قال البديعي فيما يرويه عن غيره : « كنت بحضرة سيف الدولة وأبو الطيب اللغوي ، وأبو الطيب المتنبي ، وأبو عبد الله بن خالويه النحوي ، وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالويه مع أبي الطيب اللغوي والمتنبي ساكت ،

---

(١) في كتابه « المتنبي » والأستاذ محمود محمد شاكر أديب وشاعر ومحقق ، متفرد في مواقفه ، جرىء في آرائه ، وقد تعرفت على مذهبه في الأدب والنقد والتأليف من قراءة كتبه ومتابعة أخباره ، وزيارته في منزله كثيرا بمصر الجديدة (بالقاهرة)

فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب ؟ فتكلم فيها بما قوّى حجة أبي الطيب اللغوى ، وضعّف قول ابن خالويه .

فأخرج من كُمّه مفتاحاً حديداً لِيَلْكُمَ به المتنبي ، فقال له المتنبي : « اسكت ويحك ، فإنك أعجمى ، وأصلك خوزى[1] ، فمالك وللعربية ؟ فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح ، فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبي من ذلك إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولا ولا فعلا ، فكان ذلك أحد أسباب فراقه سيف الدولة »[2] .

وذكر البديعى ما دار بين أبي فراس والمتنبي فى حضرة سيف الدولة ، قال : « قال أبو فراس لسيف الدولة : إن هذا المتمشدق كثير الإدلال عليك وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام ، وعمل فيه ، وكان المتنبي غائباً ، وبلغته القصة فدخل على سيف الدولة ، وأنشد :

ألا ما لسيفِ الدولةِ اليومَ عاتباً
فَدَاه الورى أمضى السيوفِ مَضَاربا
ومالى إذا ما اشتقتُ أبصرتُ دونَه
تنائفَ لا أشـــــتاقُها وَسَبَاسِبا[3]

---

(١) نسبة إلى أهل خوزستان بين فارس والعراق .

(٢) الصبح المنبي ص ٨٧ .

(٣) التنائف ، جمع تنوفة وهى المفازة الواسعة . السباسب ، الفلوات .

وقد كان يُدْنِي مجلسي من سمائِه
أحَادِثُ فيها بَدْرَهَا والكواكبا

حنانيْكَ مسئولا ، ولبيك داعِيا
وحسبيَ موهوبا وَحسبُكَ وَاهِبا[1]

أهذا جزاء الصدقِ إن كنت صادقا ؟
أهذا جزاء الكذْبِ إن كنت كاذبا ؟

وإنْ كانَ ذَنْبِي كلَّ ذنبٍ فإنه
محا الذنبَ كلَّ المحوِ من جاء تائبا

فأطرق سيف الدولة ، ولم ينظر إليه كعادته ، فخرج المتنبي من عنده متغيراً ، وحضر أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في الوقيعة في حق المتنبي »[2].

وقد انقطع المتنبي عن أميره مدة ثم مدحه فقال :

واحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قلبُه شَـــبِمُ
ومنْ بجِسْمِي ، وحالى عِنْدَهُ سَقَمُ[3]

مالى أكَتِّمُ حباً قد بَرَى جسدى
وَتَدَّعِي حبَّ سيفِ الدولة الأمَمُ

وفيها يقول :

يا أعدلَ الناس إلا في معاملتى
فيكَ الخصامُ وأنت الخَصْمُ والحكَمُ

---

(١) حنانيك ، كلمة استعطاف أى حنانا بعد حنان .
(٢) الصبح المنبى ص ٧٨ .
(٣) الشبم ، البارد .

وازداد أبو فراس غيظاً لقول أبي الطيب :

أنا الذى نظرَ الأعمى إلى أدبى
وَأسْمَعَتْ كلماتى مَنْ بهِ صَمَمُ

وقوله :

فالخيلُ والليل والبيــــداء تعرفنى
والسيفُ والرمحُ والقرطاس والقَلَمُ

وقـد انتقد أبو فراس هـذه القصيدة معنى معنى فى حضرة سيف الدولة ، وذكر الشعراء وأشعارهم التى سرقهـا أو احتذاها أبو الطيب ، ولم يأبه سيف الدولة كثيراً لنقد أبى فراس ، وأعطى المتنبى على هذه القصيدة ألف دينار ، فهدأت نفس أبى الطيب ، وسكنت الفتنة بينه وبين حساده مدة ، ثم عاد لإشهار تعاظمه بنفسه وثقته بفنه ، ولهذا كان ينصرف عنه سيف الدولة أحياناً ويستمع إلى ما يقوله خصومه وحساده .

وتعرض المتنبى لمؤامرة كادت تودى بحياته ، وقد دبرها له أبو العشائر الحمدانى ، وكلف بعض الغلمان بتنفيذها ، وأحسن أبو الطيب فى الدفاع عن نفسه ، وتذكَّر بعد نجاته أنه قد فرط فى حق أبى العشائر الذى استقبله وعرفه بسيف الدولة ، وتذكَّر أيضاً أنه قـد تنامى صلة أبى العشائر بسيف الدولة وأبى فراس ، ولام نفسه على أنه لم يمدحه منـذ أن اتصل بسيف الدولة فعاتبه وصالحه ، وقال فيه خمسة أبيات أولها :

وَمُنْتَسِبٌ عنـدى إلى مَنْ أُحِبُّـه
وَللنَّبْلِ حَولى من يَدَيْهِ حَفِيفُ[1]

(١) من أحبه ، يقصد أبا العشائر ، حفيف ، صوت يحف بى .

ولما ضاق أبو الطيب بخصومه وحساده اشتكاهم إلى سيف الدولة وأنشده :

أزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عنى بِكَبْتِهِمْ ... فأنت الذى صَيَّرْتَهُمْ لى حُسَّدَا

ثم يقول :

وما الدهرُ إلا من رواةِ قصائدى
إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنْشِدا
فسار به من لا يسير مُشَمِّرًا
وَغَنَّى به من لا يغنى مغردا
أجِزْنى إذا أنشدتُ شعراً فإنما
بشعرى أتاك المادِحُونَ مُرَدَّدَا

وقد اشتد الصراع بين المتخاصمين ، وأحس الشاعر أن الأمير ينصرف عنه، ولم يعد يستجيب له فيحميه ويمنعه من خصومه ، فكره المتنبى حلب وزهد فى عيشها ، ثم ودع سيف الدولة ، وأنشده آخر قصائده بحلب فى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وهى الميمية التى يقول فيها :

لا تطلُبن كريماً بعدَ رُؤْيَتِهِ
إن الكرام بأسخاهم يدا خُتِموا
ولا تبالِ بشعرٍ بعد شاعِرِه
قد أفسدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ

وهكذا فرق الكيد والحسد بين الرجلين العظيمين ، وأصيب أبو الطيب فى آماله السياسية ، وترك حلب ، وهو كاره لفراقها وسار منها إلى دمشق ، وانتقل إلى الرملة ، والتقى بابن طغج الأخشيدى الذى شجعه على السير إلى مصر ، وأحيا ما بداخله من آمال فى أن يكون والياً أو أميراً على إحدى البلاد فى صعيد مصر أو فى أطراف الدولة الأخشيدية بالشام ، واتجه المتنبى

إلى الفسطاط ، ونزل فى ساحة كافور الأخشيدى فى السنة نفسها ، واستهل مدحه بقصيدة يقول مطلعها :

كفى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شافِياً
وحسبُ المَنَايا أن يَكُنَّ أمانيا

وهو مطلع يعبر عن حزنه وضيقه ، ثم قال له فى آخر قصيدة مدحه فيها :

إذا نلتُ منك الودّ فالمالُ هَيِّنٌ
وكل الذى فَوْقَ الترابِ ترابُ

وقد مدحه بثمانى قصائد ، وبقى فى مصر أربع سنوات ، وساءت أحواله فيها ، فهرب منها فى ليلة عيد الأضحى من سنة خمسين وثلاثمائة ، وترك فى فراشه قصيدة يهجو فيها كافوراً بأفحش الهجاء قال :

عِيدٌ بأيةِ حالٍ عُدْتَ يا عيد بما مَضَى أمْ لأمْرٍ فيك تجديدُ

وسار إلى العراق بعد أن فارقه ما يقرب من ست عشرة سنة ، ودخل الكوفة فى شهر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، واستقر فيها عدة أشهر ، وهو كاره للاقامة بها ، فتركها إلى بغداد ، وأقام فيها سبعة أشهر أو ثمانية ، ولم يمدح أحداً بها ، ورجع إلى الكوفة فى أواسط سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، وفى هذه السنة أرسل إليه سيف الدولة ابنه من حلب إلى الكوفة ومعه هدية ، فشكره المتنبي ورد عليه باللامية المشهورة ، وأولها :

ما لَنَا كُلُّنا جَوٍ يا رسولُ أنا أهْوَى وقلبُكَ المَتْبُولُ[1]

---

(١) الجوى : الذى أصابه الجوى وهو الحرقة فى القلب من الحزن أو العشق ، والمتبول ، الذى هيمه الحب والمطلع تقليدى يتحدث فيه إلى رسول محبوبته وهما مشتركان فى حبها .

وفيها يقول له :

أنتَ طول الحيـاةِ للروم غازٍ فمتى الوعد أن يكون القُفُول[1]
وسوى الروم خَلْفَ ظهرك رومٌ فعَلى أىِّ جانبيْك تميلُ[2]
قعَدَ الناسُ كلهم عن مساعيـ ـك وقامت بها القَنَا وَالنُّصُول[3]
ما الذى عنــده تُدَار المنـايا كالذى عِنْدَهُ تُدَار الشَّمُولُ[4]

وفى هذه السنة نعيت إليه خولة (أخت سيف الدولة) فرثاها بالبائية المشهورة التى بدأها بقوله :

أرى العراقَ طويلَ الليل مذ نُعِيَتْ
فكيف ليلُ فتى الفتيانِ فى حلب ؟

وفى شهر ذى الحجة من سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وصله كتاب من سيف الدولة يدعوه للحضور إلى حلب ، فرد عليه بقصيدة ، وكانت آخر السيفيات فى شعر المتنبى ، ومطلعها :

فهمتُ الكتابَ ، أبرّ الكتب فسَمْعاً لأمرِ أمير العرب
وَطَوْعاً له ، وابتهاجا بهِ وإنْ قَصّر الفعلُ عما وجب

ولقد ذكر الأستاذ محمود شاكر فى كتابه عن المتنبى أنه « كانت بين سيف الدولة وأبى الطيب أسرار سياسية تخص أغراضهما وآمالها فى إعادة المجد العربى ، وإزالة الحكام الطاغين من الموالى ، وقمع الفتن التى قام بها العلويون والفاطميون فى البلاد . . »[5] .

(١) القفول : الرجوع .
(٢) يقصد آل بويه أو يعرض بالعباسيين .
(٣) القنا : الرماح ، والنصول ، جمع نصل وهو حد السيف .
(٤) الشمول : الخمر .
(٥) المتنبى ج ١ ص ٢٢٣ .

وإذا صح ذلك فإن سيف الدولة يكون قد غيّر رأيه فى العلويين والفاطميين معا ، فقد بدأ حياته السياسية بولاء نحوهما ، وقد ذكرت ذلك فى الحديث عنه فيما سبق .

وتدور عجلة الأيام بالشاعر إلى أن تصله رسالة من ابن العميد وزير دولة بنى بويه ، ورب النثر فى هذا العصر ، والذى انتهى به الفن الجيد للنثر الأدبى ، وقد دعاه للحضور إلى أرّجان ، وكان ابن العميد قد ترك مقر وزارته فى الرى فسافر إليه أبو الطيب من الكوفة فى المحرم من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، ووصل إلى أرجان فى شهر صفر ، وأحسن ابن العميد استقباله ، وأقام أبو الطيب عنده ما يقرب من شهرين ، ومدحه بثلاث قصائد ، أولاها الرائية التى يقول فى مطلعها :

بادٍ هواكَ صَبَرْتَ أو لم تَصْبِرَا
وَبُكاكَ إن لم يجرِ دَمْعُك أو جرَى
كم غرّ صَبْرُكَ ، وابتسامُك صاحِبا
لما رآك . . وفى الحشا مالا يُرى

وقد دعاه عضدُ الدولة إلى شيراز ، فارتحل أبو الطيب إليه ، وأقام عنده ثلاثة أشهر ، ولقى منه كل تقدير ومودة ، فمدحه بعدة قصائد متنوعة أولاها الهائية ، وأولها :

أوْهِ بديلٌ من قَولَتى واهاً
لمن نأتْ والبديلُ ذِكْراها(١)

---

(١) أوه : كلمة تعجب ، ونأت : فارقت .

وفيها يقول :

كلُّ جريحٍ تُرْجَى سلامَتُهُ إلا فُؤَاداً دَهَتْهُ عيناها[1]

وليست كثرة الشعر وتنوعه فى هذه المدة دليلا على حب المتنبى وإخلاصه لبنى بويه ، وإنما لأشياء أخرى فى نفسه ، وإلا فإن فترة إقامته عندهم قليلة جداً لا تتناسب مع هذا الإنتاج المتنوع والجيد فى الوقت نفسه . وأفضل ما فى إنتاج هذه الشهور القليلة القصيدة التى وصف فيها شِعْب بَوّان .

ولقد أغدق عضد الدولة ووزيرُه على الشاعر ، ومع هذا تركهما ، وأنشد أبو الطيب عضد الدولة آخر المدائح وآخر ما له من شعر ، فى شعبان من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، ومطلع قصيدة الوداع :

فِدًى لَكَ من يُقَصِّرُ عن مَدَاكا فلا مَلِكٌ إذَنْ إلا فَدَاكَا

وفيها يقول :

ولو أنى استطعتُ خَفَضْتُ طَرْفِى فلَمْ أُبْصِرْ به حتى أرَاكَا

وقفل أبو الطيب راجعاً إلى العراق ، بعد أن ذكر لعضد الدولة أنه راجع إليه (دهاء ومكراً) وانتهى إلى واسط .

وعند موضع يقال له « دير العاقول » فى الطريق إلى العراق خرج عليه مجموعة من أعراب بنى أسد وبنى ضبة بزعامة فاتك بن أبى جهل الكلابى فقتلوه ، وقتلوا غلمانه وابنه محسدا فى السابع والعشرين من رمضان من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة .

---

(١) دهته : أصابته .

وقد قاتلهم المتنبي قتالا شديداً ، وأراد أن ينهزم منهم ، فقال غلام له :
أين قولك ؟

الخيلُ والليلُ والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاسُ والقلمُ

فقال : قتلتني ، قتلك الله ، ثم قاتل حتى قتل ، وأخذ القتلة كل ما كان معه من أمتعة وأموال وأوراق ، وحزن الناس عليه ، ورثاه الشعراء منهم ، رحمه الله بقدر إخلاصه للغة وحبه للعرب والعروبة ، فقد عاش وحيداً ، ومات غريباً ، وشغل الناس في عصره ، ولا يزال يشغلهم حتى اليوم .

الفصل الثاني

الحماسة في سيفيات المتنبي

السيفيات :

يمتاز شعر المتنبي بالجودة ، والكثرة ، والتنوع ، ولقد برع أبو الطيب في المدح ، وفي وصف الجهاد بين المسلمين والروم ، ويعد شعره في سيف الدولة والمسمى بالسيفيات أفضل ما قاله من شعر ، ويمكن أن تؤلف هذه السيفيات ديواناً خاصاً لا نظير له ، فلم ينقل الشعر العربي مديحاً لأمير أو ملك بلغ ثمانين قصيدة ومقطوعة ؛ وليست الكثرة فحسب بل الجودة كذلك .

وقد تنوعت السيفيات تبعاً لحياة سيف الدولة ، وما يعتورها من تغير واختلاف ، وأجاد فيها أبو الطيب لموهبته الشعرية وقدرته اللغوية ، ولحبه لسيف الدولة ، واقتناعه التام بجهاده ضد الأعاجم وبقتاله للخارجين عليه ، ومن أهم أسباب إجادته في هذه السيفيات بيئة حلب وما فيها من حب للأدب، وتذوق للشعر ، إذ كان سيف الدولة ممن يقولون الشعر ويحكمون عليه ، وقد جمع حوله عدداً كبيراً من الشعراء والعلماء والفلاسفة والمؤرخين وغيرهم .

وقد ذكر الرواة بعض المواقف التي انتقد فيها سيف الدولة شاعره ، ومنها ما نقل عنهما حول الميمية التي أنشدها المتنبي بعد موقعة الحدث .. وأولها :

على قدرِ أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ
وتعظم في عين الصغير صغارُها وتصغُر في عين العظيمِ العظائم

فقال البديعى : « ولما بلغ المتنبى إلى قوله »[1] :

وَقَفْتَ وما فى الموتِ شكٌّ لواقفٍ كأنك فى جَفْنِ الردى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً وَوَجهُك وَضاحٌ وثغرك باسِمُ

قال سيف الدولة : قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرىء القيس قوله :

كأنّى لم أركبْ جَوَاداً لِلَذةٍ ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال[2]
ولم أسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِى وَلَمْ أقُلْ لِخَيْلِى كُرِّى كَرَّةً بعدَ إجْفَالِ[3]

فبيتاك لم يلتئم شطراهما ، كما لم يلتئم شطرا بيت امرىء القيس ، وكان ينبغى له أن يقول :

كأنى لم أركبْ جَوَاداً ولم أقُلْ لِخَيْلِى كُرِّى كَرَّةً بعد إجْفَالِ
ولم أسْبَأِ الزقَّ الرَّوِىَّ لِلذةٍ ولم أتبطن كاعباً ذات خَلْخَال

وكذلك كان ينبغى أن تقول :

وقفت وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ باسِمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً كأنك فى جَفْنِ الردى وهو نائمُ

فقال المتنبى : إنْ صَحَّ أنَّ الذى استدرك على امرىء القيس هذا أعلم بالشعر منه[4] فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزّاز كما يعلمه الحائك لأن البزاز يعلم جملته ، والحائك يعلم تفاصيله ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، والشجاعة فى منازلة الأعداء بالسماحة فى شراء الخمر للأضياف للتضايف بين كل من الفريقين . وكذلك لما ذكرت الموت فى صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى فى آخره

---

(١) الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ص ٨٤ .

(٢) أتبطن : أحتضن .

(٣) سبأ الخمر : اشتراها ، الزق : وعاء الخمر ، الروى : الذى يروى ويشبع ، الإجفال : النفور .

(٤) وفى بعض النسخ « وهو أعلم بالشعر منى » .

ليكون أحسن تلاؤمًا ، ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوسا ، وعينه باكية قلت : (ووجهك وضاح وثغرك باسم) لأجمع بين الأضداد فى المعنى ، فأعجب سيف الدولة كلامه » .

ونقد سيف الدولة أبا الطيب فى قوله عن موقعة الحدث أيضاً :

وكان بها مثلُ الجنون فأصبحت ... ومن جُثَثِ القتلى عليها تمائمُ

قال المتنبى : « ما رد على أحد شيئًا فقبلته إلا سيف الدولة فإنى أنشدته : ومن جيف القتلى ، فقال : مه قل : ومن جثث القتلى ، فقبلت وقلت كما قال لى »[1] .

وكانت حركة النقد متوهجة فى بيئة حلب ، ولم يكن سيف الدولة وحده هو الذى ينتقد أبا الطيب بل كان ينتقده معظم من كانت تضمهم حلقة الأدب فى مجلس الأمير ، وكان هذا يدفع المتنبى إلى الإجادة أحيانًا وإلى الإمعان فى التغريب والتعقيد أحيانًا أخرى نكاية فيمن حوله ممن سماهم بالمتشاعرين ، وقد سبقت الإشارة باختصار يقتضيه المقـام إلى نقد سيف الدولة المتنبى ، ولم يكن أبو الطيب على وفاق مع ابن خالويه الذى كان ينقده من جانب اللغة ، وقد نقم عليه الشعراء الآخرون فى مجلس سيف الدولة ، كأبى العباس النامى[2] الذى قال : « كان قد بقى فى الشعر زاوية دخلها المتنبى ، وكنت أشتهى أن أكون سبقته إلى معنيين قالهما ماسبق إليهما أما أحدهما فقوله :

رمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتّى ... فؤادى فى غشاءٍ من نبال
فصرتُ إذا أصابتنى سهامٌ ... تكسَّرتِ النصالُ على النِّصالِ

---

(١) الديوان جـ ٤ ص ٩٧ شرح البرقوقى .

(٢) أبوالعباس احمد بن محمد الدارمى المعروف بالنامى كان من الشعراء البارزين فى عصره ، وكان يلى أبا الطيب فى المنزلة والرتبة توفى سنة ٣٧٠ هـ على المشهور (بتصرف عن هامش الصبح ص ٨٠) .

والآخر قوله :

في جحفلٍ سترَ العيونَ غبارُه فكأنما يُبْصِرْنَ بالآذانِ[1]

ولقد تفوق أبو الطيب فى شعر الحماسة والحرب ، وفى وصف الجهاد بين المسلمين والروم ، وفى وصف القتال بين سيف الدولة والقبائل العربية التى تجاوره ، وكان الشاعر محبا لأميره ، وأخلص له ، وأشاد بانتصاراته ، فكان يحضر معه الغزوات والحروب ثم يعود لينشده الشعر فى مجلسه بحلب ، ومما أسهم فى إجادة المتنبى لشعر الحماسة أنه كان فارسا ومقاتلا ومحبه للدم العربى ومنتصرا لبنى جلدته أليس هو القائل مفتخرا :

الخيلُ والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلَمُ

وإذا كانت السيفيات قد زادت عن الثمانين قصيدة ومقطوعة فإن شعر الحماسة فيها يبلغ أربع عشرة قصيدة ومقطوعتين فى وصف وقائع سيف الدولة مع الروم ، ومن السيفيات كذلك أربع قصائد فى حروب سيف الدولة مع القبائل العربية غير الميمية التى قالها أبو الطيب فى صدر شبابه يمدح فيها سيف الدولة بعد انتصاره على بعض القبائل العربية ، وكل هذه القصائد الحماسية تفيض بالقوة والشجاعة والبسالة .

وسوف نعرض لعدد من المعارك التى خاضها سيف الدولة وتحدث عنها أبو الطيب ، وتجلت فيها موهبته الشعرية ، وقدرته على وصف الحروب ، والاشادة بالانتصارات .

---

(١) الصبح المنبي ص ٨١ .

أولا : معارك سيف الدولة مع الروم

— ١ —

لم تنقطع الحروب بين الدولة الحمدانية والروم فى القرن الرابع الهجرى ، وقد كثرت هذه الحروب فى المدة التى تولى فيها سيف الدولة إمارة حلب وماجاورها ، ولم يمر عام من غير أن تكون هناك موقعة كبيرة أو سرية صغيرة ، وكان سيف الدولة يهب أحيانا لنصرة أخيه ناصر الدولة بالموصل ، ثم ينصرف من عنده فجأة للدفاع عن الثغور العربية ، أو للغزو فى أرض الروم إذا كان هناك ما يدعو إليه .

كان الجيش الحمدانى أقل عددا من جيش الروم ، لكن رجاله كانوا أكثر حماسة ، وأقوى عقيدة ، وأقدر على تحمل مشاق القتال ، فكانوا يحاربون بشجاعة وبسالة مع قلة عددهم ، وكانت انتصاراتهم أكثر من انتصارات الروم ، فتشكيلات جيش الروم من جنود مرتزقة لا يجمعهم دين ، ولا توحد بينهم لغة ، وما يحققونه من انتصار يأتى نتيجة لكثرة عددهم أو لعظم ماوعدوا به من عطاء أو نتيجة لتكاسل وتهاون أو لخيانة أو لغرور من جيش سيف الدولة . وعلى كل فقد كانت الحروب فى معظمها سجالا بين الفريقين .

وفى معركة خرشنة أو معركة جبل اللقان سار سيف الدولة بجيشه ومعه المتنبى لأول مرة وتوغل فى أرض الروم ، وعبر نهر « آلس » وهو نهر عظيم تحدث عنه الشعراء ، ومنهم أبو تمام ، وهو على مسافة يوم من « طرسوس » . ثم نزل فى مدينة « صارخة »[1] ولبس فيها أياما ، وأحرق أرباضها ، ثم نزل « بخرشنة »[2] فى منتصف ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة ،

(١) فى الكتب الرومية (ضارجة) .

(٢) بلد بالروم قرب ملطية (مسيرة خمس ساعات من الفرات) .

وهى ذات قلعة حصينة جبلية ، وعلى مقربة من جبل اللقان، وقد أحرق أرباضها كذلك ، وطهر بهذا طريقه ، وأذل عدوه . وهذه النواحى مناطق جبلية فيها بعض القرى كخرشنة و بعض الأنهار مثل « آلس وبردى » .

ولقد استغل سيف الدولة ذكاءه وخبرته فى ممارسة الحروب فالحرب خُدعة، وهو يعلم من كثرة تجاربه مقدرة الدمستق ملك الروم ، ويعرف العدد الهائل لجيشه ، ويعلم طبيعة الأرض التى يقاتل عليها ، لكنه لا يشك فى مقدرته الحربية ، ويثق فى حماسة جنوده وخبرة قواده .

كان جيش الروم فى هذه الموقعة فى ألوف من الخيل غير أن هذه الألوف قد خدعت كما خدع الدمستق[1] نفسه ، فعندما ظهرت له سرية من جيش العرب، وكانت بمثابة مقدمة للجيش ظنها كل الجيش، وقد أراد سيف الدولة ذلك حتى يستنفد الروم كل قواهم ، ثم طلع عليهم ببقية الجيش فملأ الفضاء كثرة ، وقاتل العرب ببسالة ، واشتدت المعركة ، وحمى وطيسها ، وانتصر أمير حلب انتصارا عظيما ، وهزم الدمستق هزيمة منكرة ، وقتل وأسر من الروم الكثيرين وأسر من البطارقة وكبار القواد أكثر من ثمانين شخصا ، ثم فر الدمستق هاربا ، وولى بقية جيشه الأدبار ، وعاد العرب بالأسرى والغنائم والنصر العظيم ولم تكن هذه هى النهاية .

يقال : إن سيف الدولة وجنوده قد لحقهم الغرور بعد نصرهم العظيم فى جبل اللقان ، فعمهم الأسرى والغنائم ، وخلفهم الخراب والدمار ، وقد نسوا أنهم فى أرض الأعداء ، بعد كل ذلك هب الروم للدفاع عن شرفهم ، وللانتقام

---

(١) الدمستق : معناه الخادم الأعظم ، وهو أعظم القواد فى جيش الروم أثناء هذه الحروب .

لأرضهم وجنودهم ، فحملوا على العرب بقيادة « قسطنطين بارداس[1] » عند مقطع الأظفار بالقرب من بحيرة الحدث فى منتصف جمادى الآخرة من السنة نفسها ، وقد حوصر سيف الدولة بين جبلين ، وقُتل من جيشه عدد كبير ، وتفرق معظمه وأخذ يستنفر الناس فلم ينفر أحد ، وأمر بقتل البطارقة ومن تبقى معه من أسرى الروم ، وتخاذل الناس لكثرة التعب وطول السفر ، وقسوة المعارك .

وقد ارتجع الروم السبى الذى كان المسلمون قد غنموه ، وقتلوا وأسروا عددا كبيرا من العرب ، وغنموا غنيمة عظيمة : وعاد سيف الدولة إلى حلب مع بعض جيشه منكسرا منهزما ، بعد أن استغرقت هذه الحرب بشقيها النصر والهزيمة ثلاثة شهور ، وقد سميت بغزوة القفزة لأن سيف الدولة كان يقفز بين الجبال قفزات كبيرة لينجو هو ومن معه ، وسماها الثغريون غزوة المصيبة للنتيجة المحزنة التى انتهت إليها ، ومن سوء حظ المتنبى أن هذه الغزوة كانت أول غزوة يحضرها مع سيف الدولة فى حروبه مع الروم فتألم لما حدث فيها ، وساءه أن يرى أميره مهزوما ورجاله من حوله لا ينفرون معه ، ولا يلبون نداءه .

وقد قال أبو الطيب فى هذه المعركة قصيدتين الأولى بعد الانتصار فى جبل اللقان وقبل الهجوم على جيش سيف الدولة فى وادى الأظفار وأولها :

لهذا اليوم بعد غدٍ أريجُ ونارٌ فى العدو لها أجيجُ

وهى قصيدة لا تزيد عن اثنى عشر بيتا . إذ إن ساحة القتال ليست مكانا ملائما للإطالة فى قرض الشعر ، وهى لا تعدو أن تكون إشادة بسيف الدولة ، وإنذاراً للأعداء ، وتحريضا لجيش المسلمين ، وتعبيرا عن آمال المتنبى وثقته فى الفوز العظيم على الروم .

(١) هو امبراطور الروم .

والقصيدة الثانية ، قالها فى حلب ، وأنشدها فى قلعة سيف الدولة ، وفيها يشيد بحماسته ويذكر إقباله على العدو ، والتحامه معه ، ثم يعيب على الأسرى الذين وقعوا فى قبضة الروم ، والقصيدة فى تسعة وأربعين بيتا ، وهى من أعظم السيفيات الحربية لاعتبارات كثيرة ولهذا سوف نتوسع بعض التوسع فى الحديث عنها ، والتعليق عليها ..

ولقد ابتدأ المتنبى هذه العينية حزينا ملتاعا بسبب هؤلاء الجبناء الذين يتقاعسون عن القتال ، ولا يتشجعون إلا بالكلام ، فشجاعتهم بالقول لا بالعمل وهم جبناء أدعياء ، يتحمسون للقتال قبل التجربة ، وبعدها يتركون لعجزهم وفشلهم وكسلهم .

وذكر أنه لا يريد الحياة ولا يشتهيها إذا كانت على هذه الصورة ، ولعله قد نظر إلى قول قطرى بن الفجاءة وهو من شعراء الحماسة عند الخوارج :

وما المرء خيرٌ فى حياة إذا ما عُدَّ من سقط المتاع

ويواصل أبو الطيب حديثه الحماسى فى مطلع هذه السيفية مؤكداً أن الجمال ليس فى الوجه الجميل ، أو فى استقامة الأنف ، وإنما فى البأس والكفاح ، إذ أن العزيز المتحمس عندما ينقطع العز عنه يكون كالذى جدع أنفه مع أنه صحيح الوجه سليم الأنف ، فالمجد وبسطة العيش إنما يطلبان بالسيوف التى هى داء الكريم أو داؤه .

قال :

غيرى بأكثرِ هذا الناسِ ينخدِعُ إن قاتلوا جَبُنُوا أو حدثوا شَجُعُوا[1]

---

(١) قال : هذا الناس ، ولم يقل : هؤلاء الناس لأنه نظر إلى لفظ الناس لا إلى معناه ، وفى رواية : هذا الخلق .

أهلُ الحفيظةِ إلاّ أن تجرّبهم ... وفى التجاربِ بعد الغيّ ما يزَعُ(١)
وما الحياةُ ونفسى بعدَ ما عَلِمت ... أنّ الحياةَ كما لا تشتهى طَبَعُ(٢)
ليسَ الجمالُ لوجهٍ صحّ مارنُهُ ... أنفُ العزيز بقطع العز يُجتَدَعُ(٣)
أأطرحُ المجدَ عن كتفى وأطلبُهُ ... وأترك الغيثَ فى غِمدى وأنتجعُ(٤)
والمشرفيّةُ لا زالت مشرّفةً ... دواءُ كل كريمٍ أوهى الوجَعُ(٥)

وهذا مطلع حماسى رائع أملته التجربة ، ومعايشة الحرب ، وأوحت به المناسبة الحزينة التى عانى منها أمير بنى حمدان . وفيه نغمة خطابية قوية تتلاءم مع حديث الشاعر عن شروط الفروسية فليست نهباً لكل من هب ودب . وفى المطلع ثورة غاضبة ، وعاصفة عاتية ، وتوبيخ موجع ، وتسفيه لبعض الجنود الذين جبنوا وانهاروا ، وانصهروا فذابوا ، وتكاسلوا فأساءوا فى المعركة المذكورة . وهو يستنهض المسلمين ، ويقرر أدب الحرب ، ويقنن للفروسية ، ويواسى الأمير ، ويعبر عما فى دخيلته من حزن واكتئاب .

ثم انتقل بعد ذلك إلى سيف الدولة ، فذكر أنه الفارس الشجاع الذى يثبت على الخيل ، ويوقرها إذا أرادت الفرار ، ودمه منسكب على جوانبها ، وهو شجاع وإن كان وحيداً ، وحليم فى ساعة الغضب .

وذكر أن الملوك تحتمى بجيوشها ، لكن ابن أبى الهيجاء هو الذى يحمى

---

(١) الحفيظة : الحمية والأنفة ، الغى : الانهماك فى الجهل أو الاغترار ، يزع : يكف ويردع .
(٢) الطبع : الدنس والشين ، وما استفهامية فى قوله : وما الحياة ؟
(٣) المارن : ما لان من الأنف ، واجتدع أنفه : قطع .
(٤) المراد بالغيث لازمه من بسطة العيش ، الانتجاع : طلب الكلأ .
(٥) المشرفية : السيوف .

جيشه ، ويقوده للقاء العدو ، وهو لا يقنع بالانتصارات كالموت الذى لا يرتوى ولا يشبع .

وقد واصل إسراعه على مقانبه حتى نزل بضواحى « خرشنة » وأقام فيها لتشقى به الروم لأنه يسبى النساء والأطفال ويقتل الأولاد الكبار ، وينهب الأموال ويحرق الزروع .

ويواصل المتنبى حديثه عن هذه الغارة التى التهمت الأخضر واليابس عند الروم ، فذكر أن الأمير بلغ النهاية فى النكاية بهم عندما احتل دورهم وبلادهم وأقام فيها شعائر الإسلام . وصوّر الشاعر الهزيمة أبلغ تصوير عندما قال إن الطيور الجارحة قد طمعت فى أكل الأحياء منهم لطول أكلها من لحوم قتلاهم ، ولو رأى الحواريون منهم سيف الدولة وشهدوا عدله وإنصافه لجعلوا محبته واجباً وفرضاً عندما يشرعون لأهل دياناتهم ، لنقرأ له قوله :

وفارسُ الخيل مَنْ خفَّت فوقَّرَها
فى الدربِ والدمُ فى أعطافها دُفَعُ[(١)]
وَأوحدَتْهُ وما فى قلبِــهِ قَلَقٌ
وَأغْضَبتْهُ وما فى لَفْظِهِ قَذَعُ[(٢)]
بالجيشِ تمتنِــعُ الساداتُ كلهُمُ
وَالجيشُ بابن أبى الهيجاءِ يَمْتَنِــعُ[(٣)]

---

(١) فارس الخيل : المقصود سيف الدولة ، خفت : أسرعت ، وقرها : ثبتها ، الدرب ، الطريق الى الروم ،أعطافها : جوانبها .

(٢) أوحدته الخيل : تركته وحيدا ، قذع ، فحش .

(٣) ابن أبى الهيجاء : سيف الدولة .

قاد المقانبَ أقصى شُرْبِها نَهَلٌ
على الشكيمِ ، وأدْنَى سيرها سِرَعٌ(١)

لا يَعْتَقِي بلدٌ مَسْرَاهُ عَنْ بلدٍ
كالموتِ ليسَ لهُ رِيٌ ولا شِبَعُ(٢)

حتى أقامَ على أرباضِ خَرْشَنَةٍ
تشقى به الرومُ وَالصُّلْبَانُ وَالبِيَعُ(٣)

للسبي ما نكحوا وَالقتلِ ما ولدوا
وَالنهبِ ما جمعوا ، وَالنَّارِ ما زرعوا(٤)

مخلّى لهُ المَرْجُ منصوباً بصارخةٍ
له المنابرُ مشهوداً بها الجُمَعُ(٥)

يُطَمِّعُ الطيرَ فيهم طولُ أكلهم
حتى تكاد على أحيائهم تَقَعُ

ولو رآهُ حواريُّوهُمْ لبنوْا
على محبّتِهِ الشرعَ الذى شَرَعُوا(٦)

---

(١) المقانب ، جمع مقنب وهو الجماعة من الخيل ، النهل ، الشرب الأول ، الشكيم والشكيمة فى اللجام ، الحديدة المعترضة فى فم الفرس . السرع ، السرعة .

(٢) لا يعتقى ، لا يعوق .

(٣) أرباض : جمع ربض وهو ما حول المدينة من العمارة .

(٤) أقام (ما) مقام (من) فى الشطر الأول لتوافق (ما) فى الشطر الثانى ، ويجوز أن تكون محمولة على المصدر .

(٥) المرج ، موضع ببلاد الروم ، صارخة ، مدينة من مدنهم وهى فى كتبهم ضارجة (Dharija)

(٦) الحواريون ، أتباع السيد المسيح ، وأضافهم إلى الروم لأنهم من أهل دعوته .

وقد ركز أبو الطيب فى هذه الأبيات على وصف سيف الدولة بالشجاعة والإقدام ، وتابع سير الجيش وهو يتحرك إلى أرض الأعداء فى سرعة مذهلة ، وصور نزوله بمكان المعركة وإبادته لأرباض خرشنة تصويراً بليغاً فى شعر حماسى متوهج لا نظير له .

ثم انتقل إلى وصف اللقاء بين الجيشين ، فبدأه بذم الدمستق الذى خانته عيناه فذمهما ، إذ أنه أبصر بهما كتائب سيف الدولة فظنهما شراذم قليلة مع أنها جحافل عظيمة ، وقد عبر بسود الغمام عن كثافة الجنود ، وبالقزع وهو السحاب المتفرق عن قلة الجنود . ونلحظ هنا الألفاظ جزلة قوية والمعانى ملائمة أشد الملاءمة والعاطفة قوية وصادقة ، قال :

ذمّ الدمُسْتُقُ عينيه ، وقد طلعت سُودُ الغمامِ فظنُّوا أنها قَزَعُ[1]
فيها الكماةُ التى مفطومُها رَجُلٌ على الجياد التى حَوْلِيُّها جَذَعُ[2]
تَذْرِى اللُّقَانُ غُباراً فى مناخِرها وفى حناجرها من آلس جُرَعُ[3]
كأنما تتلقاهم لِتسلُكهُمْ فالطعنُ يفتح فى الأجوافِ ما تَسَعُ
تهدِى نواظِرَهَا والحربُ مظلمةٌ من الأسنَّةِ نارٌ وَالقنا شَمَعُ[4]
دُونَ السّهامِ ودونَ القُرِّ طافحةً على نفوسِهِم المُقْوَرَّةُ المُزُعُ[5]

---

(١) الدمستق : قائد جيش الروم ، القزع ، المتفرق من السحاب واحدتها قزعه .

(٢) فيها أى فى سود الغمام والمقصود جنود سيف الدولة ، الكماة، جمع كمى وهو البطل الشجاع ، الحولى ، الذى أتى عليه الحول، والجذع الذى أتى عليه حولان .

(٣) اللقان : موضع ببلاد الروم وآلس ، نهر بها .

(٤) نار فاعل لتهدى ، والقنا ، الرماح .

(٥) القر : البرد ، طافحة : مسرعة ، المقورة : الضامرة ، المزع : السريعة .

فقد وصف أبطال العرب وخيول الحرب فذكر أن السكاة من طول تمرسهم بالحرب لا زالوا بالنسبة إلى الأعمار الحربية فى سن الفطام ، أو أن الصبى فيهم رجل لدى الوغى ، وهم على الجياد . ووصف الخيول بالسرعة الرهيبة لدرجة أن مناخرها قد امتلأت بغبار اللقان ، وهى بلد بالروم وراء خرشنة بيومين ووصلت إليها قبل أن تبتلع الماء الذى شربته من نهر آلس ، وهذا البيت كما ذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان من إسرافات المتنبى فى المبالغة الذى يثب ويقفز بخياله قفزات طويلة مسرعة ، ويتابع فى وصف رائع ومعان خلابة الخيول وهى تعدو ومن فوقها الفرسان الذين يطعنون بسيوفهم جنود الأعداء، ويشقون لخيولهم بين صفوف الروم أجوافاً تسعها . ولما أظلمت أرض المعركة بالغبار كانت الخيل تهتدى بالنار المنبعثة من ضوء الشموع ، فالرماح هى الشمع، وأسنتها هى تلك النار المضيئة .

ويبدع المتنبى فى وصف الخيل فقد عرف أوصافها وأنواعها ، ولا تكاد تأتى قصيدة من شعره الحماسى دون أن يذكر الخيل ، فلقد تعرف عليها وتعرفت عليه. وهو فى هذه العينية يتابع حركتها وانطلاقاتها إلى الأعداء ، حيث تصل إليهم قبل السهام ، وقبل برد بلادهم فكأنها تسبق الرياح فتعدو على أجسامهم وتطؤهم بحوافرها .

ثم يواصل حديثه فى هذه القصيدة الرائعة عن انتصار سيف الدولة على الروم فى بلادهم، فيذكر أن الرماح السمر تفرق بين ضلوعهم، وتمزق أعلاجهم ويصف ابن الدمستق بالجبن والخور إذ أنه قد سبق الخيل بفراره فلم تدركه وأعظم منه قدراً أسير مشدود لأنه قاتل حتى أسر ، وأشجع منه قتيل مصروع، إذ أنه قاتل حتى قتل ، ولم ينج من السيوف من نجا إلا وفى قلبه منها خوف وفزع ، فإذا عاد الهارب إلى وطنه ، وصار فى مأمنه عاش مختبل العقل ، أصفر

اللون ، لا تحيل الحمرة لونه إلى الحمرة لشدة ما لحقه من الفزع ، ولقد أبدع المتنبي في هذا التصوير الرائع لجيش الروم ، فهم بين مقتول ومأسور وهارب لم تدركه الخيل لسرعته في الفرار .

ثم انتقل إلى وصف البطارقة المقيدين بالأغلال كي يقتلوا إذا دعت الحاجة إلى قتلهم ، فقال : إن أرواحهم في ضمان القيود الأمينة التي لا تخون من وكل إليها الحفاظ عليهم حتى تضرب أعناقهم بالسيوف ، وهذه القيود غير ورعة ، لأنها تقلق المقيدين بمنعها الخطو والنوم عنهم ، ثم ذكر أن المنايا تأتمر بأمر سيف الدولة فتنصرف عنهم أو تتدفق عليهم ، وهذه من مبالغات أبي الطيب ، ومن معانيه العميقة ، قال :

إذا دَعَا العِلْجُ عِلْجًا حالَ بينهُما
أظْمَى تُفارِقُ منه أختَها الضِّلَعُ[1]
أجلُّ من وَلَدِ الفُقَّاسِ مُنْكَتِفٌ
إذ فاتَهُنَّ وَأمْضَى منه مُنْصَرِعُ[2]
وما نجا من شِفَارِ البِيضِ منفَلِتٌ
نجا ، ومنهن في أحشائه فَزَعُ[3]
يُباشِرُ الأمنَ دهرا وهو مُخْتَبَلٌ
ويشرب الخمر حولا وهو مُمْتَقَعُ[4]

---

(١) العلج : الرجل الغليظ من أهل الروم ، أظمى : رمح أسمر .

(٢) الفقاس : لقب امبراطور الروم ، وكان يلقب بالدمستق Domestique ومعناه الخادم الأعظم لجيش الشرق : منكتف ، مشدود الكتفين .

(٣) شفار : جمع شفرة وهي حد السيف .

(٤) المختبل : المضطرب ؛ الممتقع : المتغير اللون .

كم من حُشَاشَةِ بِطْرِيقٍ تضمنها
للبـاترات أمينٌ ما له وَرَعُ[1]

يقاتلُ الخطوَ عنه حينَ يَطْلُبُهُ
ويطرُدُ النوم عنه حين يَضْطَجِعُ[2]

تغدُو المنـايا فلا تَنفَكُّ وَاقفـةً
حتى يقول لهـا عودى فتندفِـعُ

وبعد هذه الأبيات التى أشاد فيهـا المتنبي بانتصارات سيف الدولة يتبقى من هذه القصيدة عشرون بيتاً (كما ذكر الديوان) . تحدث فى العشرة الأولى منها عن هزيمة سيف الدولة وانـكسار جيشه فى طريق العودة إلى حلب ، ولا يصرح بذكر الهزيمة بل يكتفى بالإجمال وسرد الدلائل وإبراز العلامات وتحديد الملامح « وهو لا يرى الهزيمة إلا امتحاناً للمسلمين ، وتمحيصاً لهم ، وتنقية لجيشهم من الضعفاء والجبناء »[3] .

وقد جعل الأسرى من الجيش الحمدانى (بعد هزيمته) خونة بانحيازهم إلى الروم فى حديث موجه إلى قائد الروم ، وأبدع عندما دافع عن سيف الدولة ملتمساً له العذر فى وقوع بعض جنوده فى الأسر لـكن ماذا قال ؟

قال إن هؤلاء الجنود الأسرى ضعافاً وخونة وأن الأمير أراد أن يعاقبهم

---

(١) الحشاشة : بقية الروح ؛ البطريق : الفارس أو القائد من جيش الروم . تضمنها : كفلها ، الباترات : السيوف ، والمراد بقوله : أمين ماله ورع : القيد .

(٢) الضمير فى « يقاتل ويطرد » راجع إلى الأمين وهو القيد ، وعنه : أى عن القيد .

(٣) حديث الأربعاء ص ٢٣١ .

فرضي بتسليمهم إلى الأعداء ، وكانوا قد شهدوا المعركة ، ولجموا بمناظر القتلى من الروم وأن دماء هؤلاء القتلى لطخت ملابسهم فوقعوا في الأسر أو رضى الأمير واستحسن وقوعهم في الأسر حتى يذهبوا إلى الأعداء وهم متلطخون بدمائهم ومفجوعون بقتلاهم ، (أذكر أنى ما قرأت مثل هذه المعانى !) .

ويواصل حديثه عن الأسرى فيقول : إنهم من الضعف بحيث لو هموا بقتال العدو لأعرض عنهم وهم ضعاف كالأموات ، والروم ضباع ولا تأكل الضباع إلا الموتى ، ثم يخاطب الروم قائلا : هلا وقفتم ، وقد صمد إليكم أبطال شجعان فرادى لايتوقف بعضهم على بعض فى الحرب لحماستهم القوية ، ولثقتهم الكبيرة فى أنفسهم ويذكر أن الخيول بمن عليها من الفرسان تشق صفوف الأعداء كأنه قد نسى أنه يتحدث عن انكسار وهزيمة ، فذكر خيول العرب وعليها الجنود البواسل الذين يضربون فى جيش الروم أعداداً أكثر ممن يتركون منهم بلا ضرب وإيذاء . ويعود لمناقشة الروم فى مسألة الأسرى ليهون الهزيمة ويعزى أميره ، فذكر أن المأسورين من جنود سيف الدولة عجزة ضعاف لا يتشرفون بأن يكونوا تحت قيادته ، ولا يصلحون للحرب معه ، وما دام قد تخلص من هؤلاء الضعفاء ، فسوف يكتب له النصر فى كل غزواته فهو أمير الغزاة وكل غاز تابع له ومقتد به .

ويقول لسيف الدولة : إن غيرك من الكرام متبعون لغيرهم أما أنت فمبتدع ومبتكر لما تفعل ، ولن يشينك ويعيبك قتل الأعداء للضعاف من جنودك وعن هذه المعانى قال :

قلْ للدُّمُسْتُقِ إنَّ المُسْلَمِين لـكم خانوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا[1]

(١) المسلمين : الذين أسلمهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم .

وجدتموهم نياماً في دمائكم
كأنّ قتلاكم إياهم فجعوا[1]

ضعفى تعف الأيادى عن مثالهم
من الأعادى وإن همّوا بهم نزعوا[2]

لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق
فليس يأكل إلا الميتَ الضبُعُ

هلا على عقب الوادى ، وقد صعدت
أسْدٌ تمرُّ فرادى ليس تجتمعُ[3]

تشقّكم بفتاها كلُّ سلهبة
والضربُ يأخذ منكم فوق ما يدَعُ[4]

وإنما عرّض الله الجنودَ بكم
لكى يكونوا بلا فسْل إذا رجعوا[5]

فكل غزو إليكم بعدَ ذا فله
وكلُّ غازٍ لسيفِ الدولةِ التّبَعُ

يمشى الكرامُ على آثار غيرهم
وأنت تخلقُ ما تأتى وتبتدعُ

وهل يَشينُك وقتٌ كنت فارسه
وكان غيرَك فيه العاجزُ الضرِعُ[6]

(١) فى دمائكم : أى فى دماء قتلاكم .
(٢) ضعفى : جمع ضعيف .
(٣) العقب : جمع عقبة ، فرادى : جمع فردان — أى فرد — على غير قياس .
(٤) السلهبة : الطويلة من الخيل .
(٥) الفسل : العجز .
(٦) الضرع : الضعيف .

وقد رأينا كيف كان أبو الطيب بارعا فى حديثه عن الهزيمة ، فأشاد بسيف الدولة وببراعته فى تنقية جيشه ، ولكنه المتنبى ! الذى يحول بقدراته البيانية الهزائم إلى انتصارات ، ويرفع أعلام النصر بدلا من رايات الاستسلام . ثم تحدث فى الأبيات العشرة الأخيرة من هذه القصيدة عن سيف الدولة بقصد تعزيته وتسليته وتهوين الأمر عليه فقال :

إن من بلغ الغاية ، وارتفع فوق الشمس لا يبالى بمن يرفعه أو يضعه ، وقال : إذا كان الأصحاب قد خذلوه ، فإنه لم يفرط فى حق نفسه بل كان يدافع عنها بمعاودة الكر على أعقاب الأعداء ، ثم تحول أبو الطيب إلى الحديث عن نفسه للتنويه بمكانته ، وبيان فضله فقال : ليت الملوك يعطون الشعراء حسب قدراتهم ، ولو فعلوا لما طمع فى خيرهم خبيث خسيس ، وهو وحده الذى يشترك مع الأمير فى الحرب دون سائر الشعراء . وهم يغشون سيف الدولة ، ويأخذون أمواله بشعرهم الكاذب . ثم عاد للحديث عن ممدوحه فأبرز حماسته وقوة جبروته ؛ فالدهر يعتذر إليه بما حدث من قتل الروم لضعفاء أصحابه ، والسيف يأتمر بأمره ، وينتظر كرته عليهم ، وأرض الأعداء ملك له ينزلها صيفا أو ربيعا ، وإن الجبال لن تحميهم ، ولن تحمى أوعالهم إذا انتصرت هى الأخرى .

شهد أبو الطيب هذه المعركة ، ورأى سيف الدولة وهو يجالد الأعداء بسيفه ، وقد حمده فى هذا القول بعد أن جربه عندما كان يقاتل ، بينما جنوده يلوذون بالفرار .

وذكر أنه يمدح عن تجربة ، ويصف بعد الرؤية والمشاهدة فليس مدحه عن ظن أو تخمين فالظن قد يجعل من الأخرق شجاعا ، ومن الشجاع الذى به رعدة من الغضب جبانا ، ثم يختم هذه الميمية الرائعة بحكمة ملائمة للشعر الحماسى فذكر

أنه ليس كل من يحمل السلاح شجاعا ، كما أنه ليس كل ذى مخلب أسدا يزأر ويفترس .

لنقرأ الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة قال :

من كان فوق محل الشمس موضعهُ ... فليس يرفعهُ شيء ولا يضعُ
لم يسلم الكرُّ فى الأعقاب مهجته ... إن كان أسلمها الأصحابُ والشيعُ
ليت الملوكَ على الأقدار معطيةً ... لم يكن لدنىء عندها طمعُ
رضيت منهم بأن زرتَ الوغى فرأوا ... وأن قرعت حَبِيكَ البيضِ فاستمعوا[(١)]
لقد أباحك غشاً فى معاملة ... من كنت منه بغير الصدقِ تنتفع
الدهر معتذر والسيفُ منتظر ... وأرضهم لك مصطاف ومرتبع
وما الجبالُ لِنَصْرانٍ بحاميةٍ ... ولو تنصر فيها الأعْصَمُ الصَّدَعُ[(٢)]
وما حمِدْتُكَ فى هولٍ ثبتَّ له ... حتى بلوتُك والأبطالُ تمتصعُ[(٣)]
فقد يُظن شجاعاً من به خَرَقٌ ... وقد يظن جباناً من به زَمَعُ[(٤)]
إن السلاحَ جميعُ الناس تحمِلهُ ... وليس كلُّ ذوات المِخْلَبِ السَّبُعُ

ويلاحظ أن الأفكار غير مرتبة وليس بينها ما يسمى بالوحدة العضوية ، ولم يبال أبو الطيب باستجلاب محسنات بديعية فتتقهقر المعانى ، ولكنه عنى عناية شديدة بالألفاظ فجاءت قوية ومؤثرة وصاخبة وذات جرس وهى ملائمة للمعنى أشد الملاءمة ، وهى فملا ألفاظ حماسية مجلجلة وليست رقيقة ناعمة ، وكيف توجد الرقة فى معامع القتال ؟

---

(١) الحبيك : جمع حبيكة وهى الطرائق .

(٢) الأعصم : الوعل الذى فى إحدى يديه بياض ، الصدع : الوعل لا بالمسن ولا بالصغير .

(٣) امتصع فى الأرض : ذهب فيها هاربا . (٤) زمع : رعدة .

أما المعانى فبعيدة وعميقة ومعبرة أعظم تعبير عن هذه الحروب وصادقة ... لأن الرجل قد شهد الموقعة وعاين أحداثها وعايش ما فيها من نصر وهزيمة ، وكانت عاطفته عميقة وصادقة ، ومتلائمة مع خياله الوثاب .

ولم تكن الحرب بين العرب والروم تنتهى حتى تبدأ من جديد فى شكل معارك كبيرة أو سرايا صغيرة يقوم بها أحد الفريقين ، ويرد عليه الآخر ، وقد يهدأ الطرفان لمدة بسيطة يتبادلان فيها الأسرى ، ويأخذان الأهبة بالسلاح والرجال ثم يواصلان الحرب من جديد .

— ٢ —

القصيدة التى بين يدى الآن هى اللامية التى يقول أبو الطيب فى مطلعها :

لياليّ بعد الظاعنين شُكُولُ طوالٌ وليل العاشقين طويلُ(١)

يُبِنّ لى البدر الذى لا أريده ويُخْفِينَ بدراً ما إليه سبيلُ

وما عشت من بعد الأحبة سلوةً ولكننى للنائبات حمولُ

وقد أنشدها المتنبى فى حلب ، وليس فى ميدان المعركة كما كان يفعل فى بعض الأوقات عندما تطول الإقامة مع الأمير فى أرض القتال ، وقد أراد أن يصف ما وقع فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٢ هـ . أما عن تفاصيل هذه المناسبة فسوف أكتفى بما ذكره الدكتور عبدالوهاب عزام فى التقديم لهذه القصيدة فى شرحه لديوان المتنبى قال : « رحل سيف الدولة من حلب إلى ديار مضر لاضطراب البادية بها ، فنزل حران فأخذ رهائن بنى عقيل وقشير والعجلان وحدث له بها رأى فى الغزو فعبر الفرات إلى دُلُوك إلى قنطرة صنجة إلى درب القلة ، فشن

---

(١) الظاعن : المرتحل ، شكول : جمع شكل أى شبيه ومثيل ، ويجمع على شكول وأشكال .

الغارة على أرض عَرْقة وعاد ليعبر من درب مَوْزَار فوجد العدو قد ضبط عليه فرجع وتبعه العدو ، فعطف عليه فقتل كثيراً من الأرمن ، ورجع إلى مَلَطْية. وعبر قباقب ، وهو نهر ، حتى ورد المخاض على الفرات تحت حصن يعرف بالمنشار ، فعبر إلى بطن هنزيط بسمنين ، ونزل بحصن الران ، ورحل إلى سميساط فورد عليه بها من خبره أن العدو فى بلد المسلمين فأسرع إلى دلوك وعبرها ، فأدركه راجعاً على جيحان ، فهزمه وأسر قسطنطين بن الدمستق ، وجرح الدمستق فى وجهه . . »[1] .

ولا يختلف ما ذكره الدكتور عزام عما ذكره البرقوقى فى شرح الديوان نفسه .

وهذه القصيدة من أبرع وأجمل ما قاله المتنبى فى حروب سيف الدولة ، ويلاحظ أن هذه السيفية تختلف عن غيرها من السيفيات فى نواح كثيرة ، فمن حيث المطلع جاء هنا غنائياً حزيناً على غير العادة فى قصائد المتنبى الحماسية . كما أن القصيدة لم تخلص كلها للحرب فضلا عن المطلع الغنائى الذى زاد عن عشرة أبيات من القصيدة وعددها ستة وستون بيتاً ، كما اعتمد المتنبى ببعض الأبيات فمدح فيها سيف الدولة مدحاً تقليدياً خالياً من الحديث عن حماسته وحماسة جنوده ، وفى القصيدة عدة أبيات أخرى اختص المتنبى بها نفسه كعادته فى معظم مدائحه إذ يجعل من مدحه الملوك والأمراء قسطاً يختصه لنفسه ويعبر فيه عن كبريائه وشموخه وثقته بنفسه. وأحب أن تطالع بعضا من هذا اللون حتى يتجمع لك قدر من الشعر يمكن أن تتضح به شخصية المتنبى عندك قال :

أنا السابقُ الهادى إلى ما أقولُه ... إذ القولُ قبلَ القائلين مقولُ

وما لكلام الناس فيما يُرِيبُنِي ... أصولٌ ولا للقائليه أصولُ

---

(١) الديوان ص ٣٤٧ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٣ هـ سنة ١٩٤٢ م . وقد رتب الدكتور عزام القصائد والمقطوعات ترتيبا تاريخيا .

أعادَى على ما يوجب الحبّ للفتى ... وأهدأ والأفكارُ فىّ تجولُ
سوى وجع الحُسّاد داوِ فإنه ... إذا حلّ فى قلب فليسَ يحولُ
ولا تَطمَعَنّ من حاسدٍ فى مودةٍ ... وإن كنتَ تبديها له وتنيلُ
وإنا لنلقى الحادثاتِ بأنفس ... كثيرُ الرزايا عندهن قليلُ
يهون علينا أن تصاب جُسُومُنا ... وتَسلَمَ أعراض لنا وعقولُ

وقد تعجب من المتنبى كيف اقتطع هذه الأبيات فتحدث فيها عن نفسه ، وانشغل بها عن ممدوحه وابس فيها مسوح الحكماء ، وحذر من الحساد ، وهكذا بدت القصيدة على جمالها وروعتها مختلة اختلالا عضويا إذا نظرنا إليها بمنظور النقد الحديث .

وبعد هذا الاغتراب عن حماسة سيف الدولة ، وتصوير المتنبى لها نعود إلى ما تبقى من هذه اللامية فنجد أن القسم الأكبر منه قد تحدث فيه أبو الطيب عن الخيل وهى تعبر الأنهار وتمرق من بين الجبال . فالبطولة هنا للخيل ومعها سيف الدولة ، والأدوار الثانوية للسلاح والجنود . فالخيل هى السهام أو كالسهام فى سقوطها على الأعداء ، وهى التى تقطع الفيافى وتنفذ الركض ، وتجرى مسرعة ، وتمرح وتصهل رافعة أذنابها ، وقد هزلت وضمرت لكثرة الركض وسرعة الجرى فى بلاد الروم من غير راحة أو مقيل ، وهى كالسحائب بما عليها من أسلحة وعتاد فإذا ما وصلت إلى الهدف صَبّت أو صبّ من عليها السيوف على الأعداء فتغسل الأرض بدمائهم ، وأخذت السبايا تنتحبن ، وشققن الملابس فتهدلت على الأرض كأنها ذيول ، قال :

رمى الدربَ بالجُردِ الجيادِ إلى العدا
وما علموا أن السهام خيولُ[(١)]

(١) الدرب : الطريق إلى الروم ، الجرد : الخيل القصيرة شعر الجلد .

شوائلَ تشوالَ العقارب بالقنا
لها مَرَحٌ مِنْ تحته وصهيل[1]
وخيل بَرَاها الركضُ في كل بلدة
إذا عرَّسَتْ فيها فليس تقيل[2]
فما شعَرُوا حتى رأوها مغيرة
قِباحًا ، وأما خلقها فجميل
سحائبُ يُمطِرْنَ الحديدَ عليهم
فكلُّ مكانٍ بالسيوف غسيلُ
وأمسى السبايا ينتحبن بعَرْقَةٍ
كأن جيوب الثاكلات ذيول[3]

ولما حقق سيف الدولة هذا النصر ، وفاز بما غنم أراد القفول ، ففرح الأعداء ، ولما وجد أن الطريق ليس له ، انقضت الخيل عليهم ، وأحاطتهم النيران ، فأكلت الدور ، وحولتها إلى طلول ، وكرت الخيل على الروم وهي تركض في دماء أهل مَلَطْيَة ، وعندما عبرت قباقب — وهو نهر — عطلت سير الماء فيه ، ولكثرتها حلّ الورع في قلب نهر الفرات . ثم نزلت النهر كالسيل لتطارد موجه ، وهي تخوض وتسبح ، وكانت تظهر من الماء وتختفي فلا يبين منها إلا العنق والرأس . وانظر إلى براعة المتنبي في وصف الخيل ومتابعتها أثناء الكرور والاقتحام ، حيث قال :

(١) شوائل : رافعات ، تشوال مفعول مطلق ، وقد شبه حملها للرماح كحمل العقارب لأذنابها ، المرح : اللعب والنشاط .

(٢) براها : هزلها ، تعرس : تقيل وقت الهاجرة .

(٣) عرقة : بلد بالشام ، الجيب : ما انفتح من القميص على النحر .

وعادت فظنُّوها بمَوْزَارَ قُفَّلاً ... وليس لها إلا الدخول قُفُول[1]
تسايرها النيرانُ في كلِّ مسلك ... به القوم صرعى، والديار طُلُول
وكرّت فرّت في دماء مَلَطْيةٍ ... ملطيةُ أمٌّ للبنين ثَكُول[2]
وأضعفن ما كُلِّفْنَهُ من قباقبٍ ... فأضحى كأن الماء فيه عليل[3]
وَرُعْنَ بنا قلبَ الفراتِ كأنما ... تخِرُّ عليه بالرجالِ سُيُولُ
يطاردُ فيه موجَه كلُّ سابح ... سواء عليه غَمْرَةٌ ومسيلُ
تراه كأن الماء مرَّ بجسمه ... وأقبل رأسٌ وَحْدَهُ وَتليل[4]

ولقد عايش الشاعر الأحداث ، ورأى وشاهد ، وأبدع وأجاد بعبقرية فذة ، وموهبة خارقة ، وخيال رحب ... ثم انتقل مع الخيل إلى أرض المعركة ، وكانت بمَرْعَش وهي بلد بالثغور قرب أنطاكية ، وأراد أبو الطيب أن يسجل انتصار سيف الدولة على الروم في هذه البلدة بعد أن انتصر عليهم في عدة ثغور أخرى . فذكر أن الخيول قد وصلت في ظلام إلى مرعش ، لأن الأعداء قد غافلوه وهربوا منه في أرضهم ونزلوا بأرض المسلمين مما جعله يعجل بغزوهم، والإغارة عليهم أينما كانوا .

ولعل القارىء يلاحظ معي مقدرة المتنبي في متابعة الأحداث من موقع

---

(١) موزار : حصن في بلاد الروم .

(٢) ملطية : بلد بالروم تتاخم الشام وقد بناها المسلمون سنة ١٤٠ هـ في عهد أبي جعفر المنصور (بتصرف عن معجم البلدان ج ٥ ص ١٩٢ طبعة دار صادر ، بيروت) .

(٣) قباقب : اسم نهر .

(٤) التليل : العنق .

إلى آخر. وقد جعل السرعة ركيزة أساسية فى معركة مرعش وما سبقها من لقاءات بالثغور، فالخيل تجرى وتسرع كالسهام والسحاب، لا تقيل ولا تهدأ، وتعبر الأنهار فتعطل جريان الماء بها، ولا تنتظر إلى الصباح حتى تواجه الأعداء بالكر، بل تلبس الدجى وتلتحف الظلام، وتباغت الروم فتجعلهم يفرون بأسرع ما يكون الفرار، حتى بحر الطويل الذى عرفناه وئيداً هادئاً بدا سريعاً متحفزاً، فيطاوع الشاعر والخيل والليل، ويمعن فى الإسراع والوثوب.

وجعل المتنبى القسم الباقى من الأبيات الحماسية فى هذه القصيدة لتصوير ما جرى فى مرعش ولبيان ما حل بالدمستق وابنه.

وقد واجه سيف الدولة الأعداء بنفسه بعد أن حلوا بأرض المسلمين، فلما رأوه على هذه الصورة تعجبوا، ثم علموا أنه يقوم بما يقوم به كل الجيش، فكانوا يلاقونه، فيقتلون بسيفه عند ورودهم عليه، ونحن نعرف ما للمتنبى من خيال يجنح به إلى مبالغاته المعهودة، وهى على كل حال تروق وتعجب، بل وتأخذ بالألباب.

وسيف الدولة شجاع، كريم يبذل المال، ولكنه ضنين وبخيل بالرجال فيصونهم ويرعاهم ويحافظ عليهم، ولهذا أعجب قسطنطين ابن قائد الروم — بعد أن وقع فى الأسر — بكرم الأمير وشجاعته مما جعل أبا الطيب يقول:

لَبِسْنَ الدجى فيها إلى أرض مَرْعَشٍ
وللرُّوم خَطْبٌ فى البلاد جليل[1]

فلما رَأَوْهُ وَحدَهُ قَبْلَ جيشه
دروا أن كل العالمين فُضُول

---

(١) مرعش: بلد بالثغور قرب انطاكية

فأوردهُمْ صدرَ الحصانِ وَسَيْفَهُ فتى بأسُـه مثلُ العطاءِ جزيلُ
جوادٌ على العلاتِ بالمـال كله ولـكنه بالدارعين بخيلُ(١)
على قلب قسطنطين منه تعجب وإن كان في ساقَيْهِ منه كُبُولُ

ثم يوجه حديثه إلى الدمستق وهو القائد الرومي العظيم فيعذره ، ويسخر منه ، لأنه آثر نفسه ، وترك ابنه يقع في الأسر ، وبهذه السخرية قال أبو الطيب في قصيدة أخرى قيلت عن هذا الانتصار ، وأنشدها بحلب مهنئاً الأمير بعيد الأضحى الذي أعقب هذا الانتصار :

فذلك سمَّى ابن الدُّمُسْتُقِ يومَهُ مماتا وسماه الدمستقُ مولدا

وأول هذه الدالية :

لـكلِّ امرىءٍ من دَهْرِهِ ما تعوَّدا وعادةُ سيفِ الدولة الطعنُ في العدا

ونعود إلى اللامية بعد هذا الاستطراد فنذكر أن الشاعر كان يسخر من جبن الدمستق وأنانيته ، عندما هرب — وجروحه تنزف من وجهه — وترك ابنه — وهو مهجته الثانية — إلى الهلاك والموت . ثم ذكر أن كثرة أعداد الروم لا معنى لها ، وربما كان الدمستق وهو كالفيل في الضخامة صالحاً لغذاء الليث وهو سيف الدولة ، وعن هذه المعاني قال أبو الطيب :

لعلك يوماً يا دُمُسْتُقُ عائد فـكم هاربٍ ممـا إليه يئولُ
نجوت بإحدى مهجتيك جريحة وخلفت إحدى مهجتيك تسيلُ(٢)
أتُسْلِمُ للخَطِّيَّةِ ابنك هارباً وَيَسْكُنَ في الدنيا إليك خليلُ؟(٣)

---

(١) على العلات : على كل حال
(٢) المهجة : الروح
(٣) أسلمه : خذله ، الخطية : الرماح

أغرُّ كَمْ طُولُ الجيوشِ وعرضُها — علىٌّ شَرُوبٌ للجيوشِ أكولُ
إذا لم تكن لَيثٍ إلا فريسةً — غَذاهُ ، ولم ينفعك أنك فيلُ[1]

واكتفى من هذه القصيدة بما ذكرته من أبياتها على أن في الشرح والتحليل مايكفى ، وإن كنت أفضل أن يرجع إليها القارىء في الديوان ليستمتع بها وهى تامة غير منقوصة .

— ٣ —

كان العرب قد أقاموا مدينة الحدث فى أرض الروم سنة تسع وتسعين ومائة من الهجرة ، واتخذوا منها قلعة يحمون بها ثغورهم وأطراف دولتهم فى أقصى الشام، وقد بنيت فى أول الأمر بالطوب اللبن، فتهدم سورها .. «وأعاد الرشيد عمارتها ، ودفع عنها الروم ، وأسكنها الجند »[2] .

تقع مدينة الحدث ، وهى قلعة حصينة بين مَلَطْيَة وشمشاط ومرعش فى بلاد الأناضول، ومكانها الآن فى تركيا ، و« يقال لها الحمراء لأن تربتها جميعا حمراء ، وقلعتها على جبل يقال له الأحيدب »[3] ويقال : إنها وصفت بالحمراء لكثرة ما أريق عليها من دماء الروم البيزنطيين ، وعلى أرضها دارت معارك كثيرة بين الروم والعرب، ولما كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة التقى الجيشان الرومى والعربى على هذا الحصن ، وانتصر الروم فى هذه الموقعة ، واستولوا عليها ، وهدموا قلعتها، وقد أبى سيف الدولة إلا أن يعيد هذا البناء ويستولى على هذه القلعة ، وأخذ يعد للأمر عدته بجمع الأموال وتجهيز الجيش ، واختيار الوقت

(١) غذاه : صار له غذاء
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨٨
(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٨٨

الذى يبدأ فيه تحركه ، وتهيأ لذلك بعد أن فرغ من ثورة الكلابيين فى الشتاء من سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وخرج فى جيش قوامه خمسة آلاف مقاتل بين فارس وراجل، وفيهم خمسمائة فارس من أخاص الرجال لسيف الدولة ، واستشعر الروم خطرا محققا فى ذلك البناء إذ كانت هذه القلعة أحد الأبواب المهمة إلى بلادهم ، فجمع بروزوس فوكاس والذى يسمى بالدمستق جيشا ضخما من الروم والروس والبلغار والخزر وغيرهم ، وعدد رجاله خمسون ألف مقاتل وهو عدد كبير بالنسبة للجيش العربى ، وتحرك هذا الجيش ليمنع سيف الدولة من الوصول إلى الحصن والاستيلاء عليه . ولكن سيف الدولة كان قد سبقهم إليه ، ونزل به فى يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الآخرة فى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، ثم بدأ الأمير الحمدانى من يومه ، فوضع الأساس ، وحفر أوله بيده مع البنائين ، واستقرت جيوشه فى هذا الحصن، فلما كان يوم الجمعة التقى الجيشان، وتضعضع العرب شيئا ، وكادوا ينهزمون لولا أن الأمير ومعه خاصاؤه مضوا يشقون الصفوف حتى وصلوا إلى مكان الدمستق ، فانهزم الروم هزيمة نكراء وقتل منهم ثلاثة آلاف ، وأسر أضعاف ذلك ، ثم هرب الدمستق بعد أن قتل ابنه وصهره ، ولم يتوقف البناءون عن البناء فى يوم الجمعة الذى دارت فيه رحى الحرب . وبقى المبنى فى أرض الحدث حتى اكتمل البناء فى يوم الثلاثاء تاسع رجب من السنة نفسها ، وأقام سيف الدولة فى ذلك اليوم حفلا مهيبا تخليدا لهذا الانتصار العظيم . وفى هذا الحفل أنشد أبو الطيب قصيدته (الميمية) وأولها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائمُ وتأتى على قدر الكرام المكارمُ

وتعد هذه القصيدة من أعظم قصائد الحماسة فى الشعر العربى فقد كان الشاعر حاضرا لهذه الموقعة ، وشهد بعينيه انتصار العرب وهزيمة الروم ، وتابع استبسال -

سيف الدولة عليها ، وقد أبرز الشاعر حماسه ، وحماسة جنوده الذين قاتلوا معه أعظم قتال ، ووصف أبو الطيب أرض المركة التى تلطخت بدماء الأعداء ، ووصف جيش الروم ، وهول المركة ، وأشاد بانتصار العرب إلى غير ذلك من الأوصاف والمضامين الحماسية .

وبعد هذه الموقعة بعام شنت سرية من جيش الروم غارة على هذا الحصن ، فتصدى لها العرب . ودافعوا عن الحدث وانسحبت السرية فى خوف عظيم ، فقال المتنبى قصيدة أخرى جاء فيها :

لا ألومُ « ابنَ لاونَ » ملكَ الرُّو م وإن كان ما تمـنَّى محالا

وميمية الحدث هى القصيدة الثالثة التى أعرض لها من بين أربع عشرة قصيدة حماسية فى وصف وقائع سيف الدولة مع الروم ، ولهذه القصيدة شهرة كبيرة لما فيها من خصائص فنية متميزة وإيقاع موسيقى رنان ويبدو أن ما سبقها من أحداث قد أسهم فى بناء هذه الشهرة ، ناهيك عما بذله الأبطال العرب لاستكمال بناء القلعة ومما أغرى الدارسين بهذه القصيدة أنها من ألفها إلى يائها فى الحماسة والحرب ، وقد استجاب المتنبى للأحداث ، وتفاعل معها ، ووفق فى وصفها والتعبير عنها . والذى أنكر أن يكون أبو الطيب قد قال شعراً خالصاً للحرب يكفيه أن يقرأ هذه الميمية فلربما أعاد النظر فى مقولته ، وأرجو ألا ينكر القارىء على إعجابى بهذه القصيدة مستثقلا التكرار فى هذا الإعجاب من قصيدة لأخرى فنحن مع المتنبى لا نختار إلا ما يروق ويعجب .

ولقد بدأ أبو الطيب القصيدة بالحكمة ، ولكنه كان يعنى سيف الدولة ، ويرمى إلى وصفه بالشجاعة والحماسة والبطولة . والحكمة لا تصدر إلا من حكيم مجرب ، وقد كانت تجارب أبى الطيب فى الحياة كثيرة ، وهو هنا أمام انتصار عظيم لقائد عظيم يراه أهلا لما يوصف به ، فجاءت الحكمة بالبيتين الأول والثانى

من القصيدة فى إيجاز وتركيز، ووضوح وتصريح . فالعزائم والهمم تأتى على قدر أصحاب العزم وتأتى المكارم أيضا على قدر أصحابها ، ومن كان كريم النفس كان عطاؤه من المكرمات عظيما ، فأعمال المرء تتناسب مع طاقته واستعداده ، إذ أن الرجال قوالب الأحوال ، ولهذا كان صغير الهمة يستعظم الأمور الصغيرة ، وكبير الهمة يستصغر الأمور العظيمة أى إن همة سيف الدولة كبيرة وعزيمته جبارة كأن ما حققه من نصر يعد ضئيلا بالنسبة لقدراته وعزائمه ، ولما كانت همته بهذه الطاقة فهو يكلف جيشه بالقيام بأفعال عظيمة تتناسب مع هذه الهمة لكنها صعبة جدا إذ تعجز عنها الجيوش الكبيرة ، فكيف بجيش صغير العدد كجيشه ، ويطلب من الناس أن يكونوا مثله فى الشجاعة والإقدام ، ولكن ذلك صعب التحقيق حتى على الأسود . قال :

على قدر أهل العزمِ تأتى العزائمُ ... وَتأتى على قدر الكرام المكارمُ (١)
وَتعظُم فى عين الصغير صغارُها ... وَتصغرُ فى عين العظيم العظائمُ (٢)
يكلف سيفُ الدولةِ الجيشَ همَّهُ ... وقد عجزت عنه الجيوش الخضارمُ (٣)
ويطلُب عندَ الناس ما عندَ نفسِهِ ... وذلك ما لا تدَّعيهِ الضراغِمُ (٤)

ثم عمد أبو الطيب إلى وصف أرض المعركة ، وبدأ ذلك بالتساؤل : هل تعرف هذه القلعة لونها ؟ . . . كان اللون أحمر لكثرة الدم الذى أريق عليها

---

(١) العزم : الثبات والجد . العزائم . جمع عزيمة وهى ما يعزم عليه من الأمر ، المكارم : جمع مكرمة وهى فعل الكرم

(٢) الضمير فى « صغارها » للعزائم والمكارم

(٣) يكلف : يطلب أمرا شاقا ، همه : « الهمه » ما هممت به من أمر لتفعله ، الخضارم : جمع خضرم وهو الكثير العظيم من كل شىء

(٤) الضراغم : الأسود والمفرد ضرغم أو ضرغام

فصبغ أرضها ، وهل كانت تعلم أى الساقيين لها؟ أهو الغمام أم جماجم الأعداء؟ فلقد أجرت عليها الجماجم من الدماء مثلما أجرت عليها الغمائم من المطر . وأقام سيف الدولة بناءها فى وقت المعركة (والقنا تقرع القنا) ومن حوله المنايا تتلاطم تلاطم الأمواج ، فجعل المنايا بحرا تتلاطم أمواجه . وكان بالحدث شىء يشبه الجنون لكثرة الإضطرابات فيها نتيجة لاتجاه الروم إليها بالمحاربة والقتال لصرف الناس عن دينهم ، وإذا بسيف الدولة يدافع عنها ، ويبعد الأعداء الذين كانت جثثهم كأنها تمائم وتعاويذ تمنع عنها شر الفتنة وهوس الجنون ، ثم يقول: كيف يؤمل الروم والروس هدم هذه القلعة وهى مؤسسة على طعنه فيهم وقتله لهم . وهذا الطعن كأنه أسس ودعائم لها تتقوى بها مثلما يتقوى بالأسس والدعائم أى بناء .

وجعل الشاعر الأعداء والقلعة يتحاكمان إلى المنايا ، وقد حكمت بينهما ، فأبقت المظلوم وهو القلعة ، واختطفت الظالم وهو الروم فلنقرأ هذه الأبيات :

هل الحدثُ الحمراء تعرف لونها وتعلم أىُّ الساقِيَيْنِ الغمائم(١)

سقتها الغمامُ الغرُّ قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم(٢)

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم(٣)

وكان بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ ومن جثثِ القتلى عليها تمائم(٤)

---

(١) وصف الحدث بالحمراء لأنها احمرت بدماء الروم . أو أنها قامت على تل يسمى الأحمر

(٢) الغر : جمع أغر وغراء بمعنى بيضاء

(٣) المنايا : جمع منية وهى الموت .

(٤) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة يتوقون بها مس الجن ، ومثل : اسم كان وهو عوض عن موصوف محذوف تقديره وكان بها شىء مثل الجنون

وكيف تُرَجّى الرومُ وَالروسُ هدمَها ... وذا الطعنُ آساسٌ لها ودعائم[1]
وقد حاكوها والمنايا حواكمٌ ... فما مات مظلومٌ ولا عاش ظالم

ولعل القارىء يلاحظ ما فى الأبيات من خيال رائع ومبالغة فطرية، ورؤية بدائية، وقوة فى الصياغة، وجهارة فى الألفاظ، فجاء وصف القلعة بديعا رائعا.

ثم يصف المتنبى جيش الروم لبيان قوته وضخامته وحسن استعداده، فيقول لسيف الدولة: لقد أتاك الأعداء مدججين فى مختلف الأسلحة، ولكثرة ما على الرجال والفرسان من أسلحة بدت الخيول لمن ينظر إليها كأنها بلا قوائم، وإذا سطعت الشمس وانعكس ضوؤها على أسلحة الروم لم يعرف ما الذى يبرق فيهم أسيوفهم أم دروعهم أم خوذهم؟ فهم غارقون فى الحديد البراق، ويذكر أن هذا الجيش ضخم جدا يكاد يملأ الأرض كثرة، وتصل ضخامته إلى عنان السماء، فقد تجمعت فيه أجناس مختلفة لا تقدر على التفاهم إلا بواسطة المترجمين، وكل هذا تأكيد على عظم الجيش، وبيان لكثرة المقاتلين فيه، والشاعر يقصد بذلك الإشادة بسيف الدولة، والتأكيد على مقدرته الحربية إذ استطاع بجيشه القليل العدد أن يهزم كل هذه الجيوش المجتمعة. قال:

أتوْكَ يجرون الحديدَ كأنهم ... سَرَوْا بجيادٍ ما لهُنَّ قوائمُ
إذا بَرَقُوا لم تُعْرَفِ البيضُ منهمُ ... ثيابُهم من مثلها وَالعمائمُ[2]

---

(١) أساس: جمع أس، والأس هو أصل البناء، الدعائم: جمع دعامة وهى عماد البيت.

(٢) البرق. اللمعان، البيض: السيوف، ثيابهم: دروعهم، والمراد بالعمائم: الخوذ والمغافر.

خميسٌ بشرق الأرض والغرب زحفُه — وفى أذنِ الجوزاء منه زمازمُ (١)
تجمّعُ فيه كل لِسْنٍ وأمّةٍ — فما تُفهِمُ الحداثَ إلا التراجِمُ (٢)

وعمد الشاعر فى هذه الميمية بتصوير جو المعركة وأحداثها فوق أرض الحدث الحمراء لإبراز حماسة سيف الدولة ورجاله ، ونعجب من مقدرة المتنبى على هـذا الوصف بهذه التفاصيل ! وقد ذكر أن المعركة رهيبة جدا ، وأن نيرانها قد أذابت ما كان مموها مغشوشا ، فلم يبق من السيوف إلا ما كان صارما ، ولم يصمد من الرجال إلا من كان بطلا جريئا شجاعا ، وقال إن السيوف التى لا تقطع تكسرت وتحطمت ، وأن الرجال الذين لا يصمدون المقارعة فروا وهربوا .

فللهِ وقتٌ ذوّب الغِشَّ نارُه — فلم يَبْقَ إلا صارمٌ أو ضُبارِمُ (٣)
تَقَطّعَ ما لا يَقْطَعُ الدِّرْعَ وَالقَنَا — وَفرّ من الأبطال من لا يُصَادِمُ

وفى وصف المتنبى للقتال أكّد على حماسة سيف الدولة وشجاعته وعدم خوفه حيث وقف فى أرض المعركة معرضا نفسه للهلاك إذ أن ثقته بالنصر جعلته ينسى الموت كأنه محفوظ فى حضن الردى وكان الردى ذلك الكائن الحى المشخص نائما فغفل عن سيف الدولة ولم يبصره ، ولم يكن الأمير فى هذه

---

(١) الخميس : الجيش العظيم . وسمى بذلك لأن له ميمنة وميسرة ، وقلبا وجناحين . الجوزاء : نجمان معترضان فى جوز السماء أى فى وسطها . الزمازم : الاصوات المتداخلة التى لا تبين .

(٢) لسن : لغة . الحداث : جمع حادث بمعنى متحدث ، التراجم : جمع ترجمان .

(٣) الغش : يريد به الضعفاء من الرجال ، الصارم : السيف القاطع . الضبارم : الشديد الغليظ . والمراد الشجاع الجرىء .

المواقف العصيبة خائفا ، أو مضطربا ، بل كان سعيداً مستبشرا يمر به أبطال الأعداء ، وهم جرحى منهزمون ، وهو مشرق الوجه مبتسم الثغر .

وقال إن ممدوحه قد أظهر الشجاعة والعقل مما جعل الناس يقولون عنه : إنه كوشف على الغيب ، وعرف بظفره فبدا على هذه الصورة التي لا يكترث فيها لما حوله من أهوال ، فلقد شد على أعدائه شدة قوية ، وقبض عليهم قبضة رجل قوى على طائر ضعيف فإذا هو يلصق الجناحين بالقلب ، فاختل جيش العدو واضطربت صفوفه ، ثم ذكر أن الهجوم كان سريعا ، وأن النصر كان خاطفا ، لدرجة أن سيف الدولة بدأ بضرب رءوس الأعداء ، ولم يبلغ فى ضربه النحور حتى تحقق النصر .

وَقَفْتَ وما فى الموتِ شكٌّ لواقفٍ   كأنكَ فى جفنِ الرَّدَى وهو نائمُ
تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً   وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثغرُكَ باسِمُ(١)
تجاوَزت مقدارَ الشجاعةِ والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالِمُ(٢)
ضَمَمْتَ جناحَيْهِمْ على القلبِ ضمةً   تموت الخوافى تحتها وَالقوادِمُ(٣)
بضربٍ أتى الهاماتِ وَالنصرُ غائبٌ   وَصار إلى اللَّبَّاتِ وَالنصر قادِمُ(٤)

وفى حديثه عن السلاح المستخدم فى هذه الموقعة ذكر أن سيف الدولة كان يلتحم بالسيوف مفضلا لها على الرماح ، فالسيف سلاح الشجعان الذين يلتحمون ،

---

(١) كلمى : جريحة والمفرد كليم بمعنى جريح ، هزيمة : منهزمة . وضاح : مشرق
(٢) النهى . جمع نهية وهى العقل والفطانة
(٣) الجناحان : ميمنة الجيش وميسرته تشبيها بجناحى الطائر . والقلب : وسط الجيش ، والقوادم : الريش فى مقدم جناحى الطائر ، والخوافى : ماتحت القوادم ، وهى تختفى إذا ضم الطائر جناحيه .
(٤) الهامات : الرءوس ، اللبات : النحور والمفرد لبة .

ويضربون من قرب ، والرمح سلاح الجبناء الذين يقاتلون من بعد ، ولهذا كان السيف يشتم الرمح ويتعالى عليه ، ولا عجب فى ذلك لأن السيوف الصوارم مفتاح النصر العظيم لكل فتح جليل . وأراد أن يستكمل جو السرور والفرح فى هذا الموقف الصارم بعد أن قال :

ووجهُك وضاحٌ وثغركُ باسمُ

فجعل جثث الأعداء تنتثر فوق جبل الأحيدب كما تنثر الدراهم فوق العروس، وكانت خيول العرب تلاحقهم وهم أحياء فتقتلهم فى وكور النسور ، وتدوس عليهم، وتجعل منهم طعاما للنسور الجائمة ، وقد ظنت فراخ العقبان عند صعود سيف الدولة بخيله الشديدة الصلبة أن هذه الخيول أمهات لها لأنها زودتها بالمطاعم من جثث القتلى . وتحدث عن مهارة الخيل فى صعود الجبال ، فعند ما تزلق أقدامها فى الصخر تزحف على بطونها مثل الحيات . وهذه الحروب ليست بين ملك الروم وملك العرب وإنما هى حرب بين الإسلام والشرك قال :

حَقَرْتَ الرُّدَيْنيَّات حتى طرحتها ... وَحتَّى كأن السيف للرُّمح شاتِمُ (١)
ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البيضُ الخفافُ الصَّوَارمُ (٢)
نثرتَهُمُ فوقَ الاحيدب كُلِّه ... كما نُثِرَتْ فوق العروس الدراهمُ (٣)
تدوسُ بكَ الخيلُ الوُكُورَ على الذرى ... وقد كَثرت حول الوُكُورِ المطاعِمُ (٤)

---

(١) الردينيات : الرماح نسبة إلى امرأة من اليمامة تسمى ردينة كانت هى وزوجها يعملان الرماح .

(٢) البيض : السيوف ، الخفاف : المرهفة ، الصوارم : القواطع .

(٣) نثرتهم : فرقتهم ، الأحيدب : جبل الحدث

(٤) الوكور : جمع وكر وهو عش الطائر ، الذرى : أعالى الجبال والمفرد ذروة بكسر الذال وضمها .

تظن فراخُ الفُتخِ أنك زُرتَها   بأمّاتِها وهى العتاق الصلادم(١)
إذا زَلِقَتْ مَشَّيتها ببطونِها   كما تتمشّى فى الصعيد الأَرَاقِمُ(٢)
ولست مليكا هازماً لنظيره   ولكنك التوحيدُ للشرك هازِمُ

وهذه القصيدة ـ كغيرها من السيفيات الحماسية ـ تفيض بالشجاعة والقوة وتعتمد على الواقع والخيال معا ، وتبرز سيف الدولة بطلا عربيا ومقاتلا حربيا وفارسا إسلاميا . وتصف الخيول وأدوات الحرب ، وتصور انهزام الروم وتفرقهم بين شعاب الجبال تاركين وراءهم قتلاهم وأسراهم وسباياهم ؛ والقصيدة أنشودة من أناشيد الحروب ، وملحمة من ملاحم العرب ، وعروس الشعر فى موقعة الحدث ، ورائعة من روائع المتنبى ، وما أكثر الملاحم والعرائس والروائع فى أيام الاسلام الخالدة .

— ٤ —

نختم هذه القصائد المختارة من حماسيات المتنبى لإبراز شجاعة سيف الدولة فى حروب الروم بالميمية التى يقول فى أولها :

عُقْبَى اليمين على عقبى الوغى نَدَمُ   ماذا يَزيدُك فى إقدامك القَسَمُ(٣)

وهذه القصيدة ـ ومعها أخرى سنشير إليها ـ تصف عدة أعمال حربية وقعت فى أرض الروم ، وكان آخرها ما دار فى الدرب ، وقد انتصر سيف الدولة فى هذه المعارك انتصارا حاسما ، وبعدها أول نجمة ، وغابت كواكبه ، وبعدها

---

(١) الفتخ : جمع فتخاء ، وهى أنثى العقبان ، الأمات ، الأمهات ، العتاق : كرام الخيل الصلادم : جمع صلدم وهى الفرس الشديدة الصلبة .
(٢) الصعيد : وجه الأرض ، الأراقم : الحيات فيها سواد وبياض .
(٣) العقبى : العاقبة ، الوغى : الحرب .

أيضا ترك المتنبي حلب ، وانفصل عن أميرها ـ بعد إنشاد الميمية ـ لأسباب سبق الحديث عنها .

ونبدأ أولى مراحل هذه الحروب عند ما علم سيف الدولة أن الروم قد هموا بالغارة على آمد[1] وهي بلد قديم بالقرب من نهر دجلة ، فنهض إليهم في الرابع عشر من المحرم سنة خمس وأربعين وثلاثمائة من الهجرة ، ومر في طريقه على الرقة[2] وحران وسروج ، ودخل في أرض الروم ، وفتح حصن الران وهو في نواحي أرمينية وفتح سمنين[3] وعبر بحيرتها ، وانتقل إلى الشمال الشرقي من هنزيط[4] ثم أرسل من يتعرف له أخبار الروم عند نهر أرسناس، وكانوا قد عادوا إلى هذا النهر فارين من جيوش العرب فتبعهم سيف الدولة وعبر النهر إلى أن التقى بهم في تل البطريق وهم بقيادة « يوحنا تزيميسيس » وانتصر عليهم انتصارا عظيما ، وأحرق أرباضهم في هذه الثغور ، ودمر حصونهم وقلاعهم ، وعاد فعبر النهر وقد أحسن تأديبهم .

وعلم سيف الدولة أن البطريق شماشيق قد أقسم عند ملك الروم على الانتقام من سيف الدولة في الدرب ، وطلب منه أن ينجده بعدد من قادة الجيش والمسمين بالبطاريق ، وبعدد كبير من المقاتلين ، وبعدد كثيرة من الأسلحة، واستجاب ملك الروم لما طلبه هذا البطريق ، ثم سار إليه سيف الدولة ، والتقى

---

(١) ينسب إليها الحسن بن بشر الآمدي الناقد القديم والمؤلف المبدع ، وصاحب الموازنة بين أبي تمام والبحتري .

(٢) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات وبينها وبين حران ثلاثة أيام وهي معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي معجم البلدان ج ٣ ص ٥٩ .

(٣) سمنين : من ثغور الروم .

(٤) هنزيط : من الثغور الرومية أيضا .

الجيشان عند الدرب في الحادى عشر من صفر من السنة المذكورة ، وكتب النصر فيها للعرب ، وهزم الروم هزيمة كبيرة إذ أسر منهم سبعة آلاف وقتل عدة آلاف أخرى ، وعاد أمير العرب بجيشه إلى « آمد » ظافرا منتصرا ، وأنشده المتنبي القصيدة الأولى عن هذه الحروب وفيها يقول :

الرَّأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجْعَانِ — هو أولٌ وهي المَحَلُّ الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مِرَّةٍ — بلغت من العلياء كل مكانِ[1]
قاد الجياد إلى الطعان ولم يَقُدْ — إلا إلى العادات والأوطان
في جحفلٍ سَتَرَ العيونَ غُبَارُهُ — فكأنما يُبْصِرْنَ بالآذان
يرمي بها البلدَ البعيدَ مُظَفَّرٌ — كلُّ البعيدِ له قريب دانِ
فكأن أرْجُلَها بتُرْبةِ مَنْبِجٍ — يَطْرَحْنَ أيْدِيَها بحصن الرانِ[2]
حتى عَبَرْنَ بأرسناسَ سوابحا — يَنْشُرْنَ فيه عمائم الفرسانِ
فوارسٌ يُحْيِي الحِمَامُ نفوسَها — فكأنها ليست من الحيوان
وَمُهَذَّبٌ أمَرَ المَنَايا فيهمُ — فأطَعْنَهُ في طاعةِ الرَّحمنِ[3]

ولما عاد سيف الدولة إلى حلب ، وأعيد حديث هذه المعارك — وبخاصة ما وقع في الدرب — في مجلسه ، وما كان من قسم البطاريق ، وخيبة ظنه ، وضياع أمله تذكروا كل ذلك في مجلس سيف الدولة ، فأنشد المتنبي القصيدة الثانية له.

---

(١) المرة : بكسر الميم ، القوة والشدة ، والمراد : الإباء وعزة النفس .
(٢) منبج : بلد بالشام ، وحصن الران : من بلاد الروم أى كأن الخيول تبلغ الروم بخطوة واحدة .
(٣) أى أن طاعة المنايا له طاعة لله سبحانه وتعالى ، لأنه جهاد في سبيل الله .

عن هذه المعارك وهي آخر ما أنشده بحلب كما يقول الديوان[1] ، وهي التي سنعرض لها .

ولم يشهد المتنبي بعد أن فارق حلب الانكسار الأكبر لسيف الدولة في معركة (مغارة الكُحْل) : وهي التي سحق فيها نيسيفور فوكاس الجيش الحمداني، وكعب على سيف الدولة القهر الأخير ، وأفول النجم الحمداني من سماء حلب إذ فتحت أمام جيوش الروم أبواب حلب فدخلوها وأحرقوها ، وجن فيها جنونهم في النهب والسلب والقتل والاستعباد[2] .

وفي هذه المعركة أسر أبو المشائر ، وأبو فراس ابنا عم سيف الدولة ، وكان المتنبي بعيدا لعله في العراق أو في الطريق إليها فارا من وجه كافور الأسود في مصر، وعلم الشاعر أن أميره القديم قد أصيب بانتكاسات كثيرة، ومنها وفاة أخته (خَوْلة)وقد خلا شعر المتنبي من الحديث عن هذه المعركة ، وإن كان في شعره ما يؤكد استمرار الاتصال بينهما ، ولنعد إلى الميمية بعد هذا التقديم .

يستعين أبو الطيب بمنطق الحكمة فيسخر من بطويق الروم الذي أقسم على عقبى الحرب، لأن النهاية غير معلومة، وسوف يندم على هذا القسم الذي لا يفيده في التقدم وإحراز النصر ، وما دام هذا البطريق قد حلف على ما وعد به نفسه فهو غير صادق في وعدة ، لأن الصادق لا يحتاج إلى قسم . وقد كان هذا

---

(١) الديوان ج ٤ ص١٢٩ .

(٢) شعر الحرب لزكي المحاسني ص ٢٩٤

الحلف نكبة على ابن شمشيق[1] لحنث في يمينه، ونسى كلامه ووعده، لشدة ضرب سيف الدولة له، فأمير حلب يفعل ما يريده ويشتهيه، ولا يحتاج للحلف مثل بطريق الروم، لثقته بنفسه، وأفعاله حاضرة لا يحتاج للقسم عليها، ويذكر أبو الطيب في مطلع القصيدة أيضا أن كل السيوف تضجر وتكل إذا كثر استخدامها في القتال إلا هذا السيف ويقصد (سيف الدولة) ذلك البطل الذي يسير إلى الأعداء بنفسه وبهمة عالية عندما تعجز الخيول عن حمله قال :

عُقْبَى اليمين على عقبى الوغى نَدَمُ ماذا يَزِيدُكَ في إقدامك القسمُ[2]
وفي اليمين على ما أنتَ وَاعِدُهُ ما دلَّ أنكَ في الميعاد متهمُ
آلى الفتى ابنُ شُمَيْشِيقٍ فأحنثهُ فتًى من الضرب تُنْسَى عنده الكَلِمُ[3]
وفاعلٌ ما اشتهى يغنيه عن حَلِفٍ على الفعالِ حضورُ الفعلِ وَالكرمُ
كلُّ السيوفِ إذا طال الضرابُ بها يَمَسُّهَا غيرَ سيفِ الدولة السَّأمُ[4]
لو كلت الخيل حتى لا تحمّله تحمّلتهُ إلى أعدائه الهِمَمُ

ثم يواصل الشاعر في سخريته من بطاريق الروم الذين حلفوا برأس ملكهم أنهم سوف يظفرون بسيف الدولة، وينتصرون عليه، ولكن سيوفه كذبت قولهم فيما ادعوه من صبر على القتال، وجعل المتنبي بقدرته الشعرية وبخياله الرائع السيوف ألسنة، وجعل رءوس الأعداء أفواها لها، وكانت السيوف تتحرك في رءوسهم تحرك اللسان في الفم :

---

(١) يصغر شمشيق إلى شميشيق، وقد حقق د. زكي المحاسني هذا الاسم الذي جاء في الديوان «شمشقيق» مستعينا بما جاء عن مؤرخي العرب الذين كتبوا عن الحروب العربية البيزنطية والبطريق هو ابن جان تزيميس.

(٢) العقبى : العاقبة، الوغى : الحرب.

(٣) آلى : حلف.

(٤) الضراب : المضاربة، السأم : الملل والضجر.

أين البطاريقُ وَالحلفُ الذى حلفُوا
بمفرقِ الملْكِ وَالزعمُ الذى زعموا[1]
ولى صـــــوارمَه إكذابَ قولهم
فهُنَّ ألســـنة أفوَاهُها القِمَمُ[2]

وبعد أن سخر المتنبى من هذا الحلف الباطل منوها بقدرات سيف الدولة ومؤكدا على حماسته التى لا تحتاج منه إلى قسم انتقل إلى الحديث عن مطاردة الجيش العربى لجيش الروم من بلد إلى بلد حتى تعمق سيف الدولة فى أرضهم من غير أن يعوقه عنهم جبل أو بحر أو نهر ، وأخذت الخيل تسرع فى ركضها حتى وصلت إلى نهر أرسناس .

وقد وصل الجيش إلى سروج مع الصباح الباكر ، وانتشر فى أنحائها فى حركة دائبة أثارت الغبار الذى غطى حران وما حولها من الأرض وحجب ضوء الشمس وجعل الجيش كالسحاب طولا وكثرة ، وما يسقط من هذا السحاب على أرض الروم يكون نقما عليهم .

ويذكر أن الخيول الضوامر قد خرجت فى الجو القائظ وأحمت الشمس اللاجم فتركت آثار كى على أنافها ، وعندما وردت بحيرة سمنين شربت بلجمها ، وكانت أفواهها تنش بالماء من شدة الحر ، ثم أخذت تجول بقرى هنزيط ، والسيوف ترعى فى رؤوس الأعداء ، إلى أن هربوا فى الجحور كالفئران أو طاروا إلى أعالى الجبال كالبازى قال :

فلم تُتِمَّ سَرُوجٌ فتحَ ناظرها إلا وَجيشُكَ فى جفنيه مُزْدَحِمُ[3]

---

(١) البطارق : جمع بطريق وهو كل قائد عظيم من قواد الروم .
(٢) الصوارم : السيوف ، القمم : جمع قمة وهى الرأس .
(٣) سروج : بلد قرب حران .

والنقع يأخذ حرّاناً وبقعتها والشمسُ تَسْفِرُ أحياناً وتلتثم[1]
سُحْبٌ تمرُّ بحصْنِ الران ممسكةً وما بها البُخْلُ لولا أنها نِقَمُ
وَشُزَّبٌ أحمت الشِّعْرَى شكائمها وَوَسّمتها على آنافها الحكمُ
حتى وردن بسِمْنين بحيرتها تَنِشُّ بالماء فى أشداقها اللُّجُمُ[2]
وأصبحت بقرى هِنْزِيطَ جائلةً ترعى الظبى فى خصيب نبتُهُ اللمَمُ[3]
فما تركن بها خُلْداً له بَصَرٌ تحت التراب ولا بازاً له قدَمُ[4]

والجوانب الحماسية الجديدة فى هذه القصيدة تتمثل فى المطاردة التى يتعقب فيهما سيف الدولة الجيش الرومى أينما كان وحيثما حل فى شدة وحركة سريعة ، وامامنا نلاحظ أسماء البلدان والقرى والجبال والأنهار والقلاع والطرق التى ذكرها أبو الطيب مما يؤكد أن المطاردة لم تقتصر على موضع واحد وقد ساعد بحر البسيط بتفاعيله ووحداته الموسيقية فى استكمال وإبراز هذه المشاهد المختلفة .

ونأتى إلى الخيل التى طارد بها سيف الدولة الأعداء ، لم يصده عنهم بحر أو جبل وقد عبر الجيش على الخيول وهى تضرب بصدورها مياه نهر أرسناس ، وفوقها رجال لا يخافون الموت ، والموت يحفل منها وهى لا تحفل منه ، وكان

---

(١) البقعة : بفتح الباء وضمها المكان الواسع من الارض ، تسفر : تكشف عن وجهها .
(٢) النشيش : صوت الماء إذا غلى .
(٣) الظبى : جمع ظبة وهى حد السيف ، اللمم : مفردها اللمة وهى الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن ، والظبى فاعل لترعى .
(٤) الخلد : نوع من الفئران ليست له عيون .

سيف الدولة أول الخائضين فى أرسناس إلى تل البطريق حيث تحوّل الأعداء إلى رمم باليه ، وتحولت مساكنهم وأرباضهم إلى رماد وحمم . وجعل الشاعر السيوف فى أيدى العرب ناراً كأنهم كانوا يعبدونها مثلما كانت النار تعبد فى أهل المجوس ، وصور ما انتهى إليه حال تل البطريق ، فجعل مصير الرجال إلى النار ومصير النساء والأطفال إلى سيف الدولة . لنقرأ ما قاله المتنبى عن هذه المعانى :

وَجاوَزُوا أرْسَنَاسًا مُعْصِمِينَ به ... وكيف يعصِمُهُمْ ما ليس ينعصِم (١)
وما يصُدُّكَ عن بحرٍ لهم سَعَةً ... وما يرُدُّكَ عن طَوْدٍ لهم شَمَمُ (٢)
ضَرَبْتَهُ بصدور الخيلِ حاملةً ... قوماً إذا تلِفُوا قُدْمًا فقد سلِمُوا (٣)
تجفَّلُ الموجُ عن لباتِ خيلهمِ ... كما تجفَّلُ تحت الغارةِ النَّعَمُ (٤)
عبرت تقدمهم فيه ، وفى بلد ... سكانه رِمَمٌ مسكونُها حُمَمُ (٥)
وفى أكفهمِ النارُ التى عُبِدت ... قبل المجوس إلى ذا اليوم تضطرِمُ (٦)
فَأَسْفَتَهَا تلٌّ بطريقٍ فكان لها ... أبطالُها ولك الأطفالُ وَالْحُرَمُ

ماذا جرى للمتحاربين فى درب الروم ؟

عند ما التقى سيف الدولة بالأعداء فى الدرب تمنوا أن يبصروه وينالوا منه ،

---

(١) أرسناس : نهر بالروم ، معصمين : مكتنفين .

(٢) الطود : الجبل .

(٣) قدما : إقداما .

(٤) التجفل : الإسراع فى الذهاب ، اللبات : جمع لبة وهى أعلى الصدر ، الغارة : الخيل المغيرة على العدو ، النعم : المواشى .

(٥) الرمم : العظام البالية ، الحمم : الرماد والفحم .

(٦) وفى أكفهم أى أكف أصحاب سيف الدولة ، والمراد بالنار : السيوف .

ولكنه أنقذهم توازنهم ، وجعلهم كالعميان ، وقد صدمهم بجيشه الذى كان كالفرس وسيف الدولة غرته ، والرماح المرفوعة فى أيدى رجاله كالشَّعْر المتدلى على الوجه ، وبقيت الأجساد وفرت منها أرواحهم فى مدة وجيزة ، وملأت الخيول الطرق وراء الروم ، وكانت السيوف تعلو وجوههم طوال اليوم ، أما الجنود فلا يضربون ضربة إلا قطعوا بها رأسا فلا يخيب لهم ضرب ، ومن هنا كان التوافق بين الضربات يحدث توافقا فى اصطدام الرؤوس التى تطيح بها السيوف . ثم يسخر المتنبى من ابن شمشيق الذى ترك يمينه وانثنى عن الحرب، وهرب منها وطرحها خلفه ، وكانت يمينه تبسم وتسخر منه ، ويجعل من من أنفاسه أشياء محسوسة مجسمة فجعله لا يطمع فى أنفاس بعيدة ، وإنما يكتفى باغتنام أنفاس قريبة مسرقة من أيدى الأجل . ولم يصمد أمام الخطر الداهم ، وغاب واختفى بين الأدغال ، ولو تكشف من تحت الأشجار لاجتمعت عليه الطير ، والتهمت جسمه وأزالته من الأرض وأخفته عن الوجود .

قال :

وقد تمنوا غداة الدَّرْبِ فى لَجَبٍ
أن يُبْصِرُوكَ فلما أبصروكَ عَمُوا[1]
صدمتَهُمْ بخميسٍ أنت غُـــرّتُهُ
وَسَمْهَرِيَّتُهُ فى وجهِـــهِ غَمَمُ[2]
فكان أثبتَ ما فيهم جُسُومُهُمُ
يَسْقُطْنَ حولَكَ وَالأرواحُ تنهزمُ

---

(١) اللجب : الصياح .

(٢) الغرة : البياض فى جبهة الفرس ، السمهرية : الرماح ، الغمم : كثرة الشعر وإسباله على الوجه .

والأعوجيَّةُ مِلْءَ الطُرْقِ خَلْفَهُمُ
وَالمَشْرَفِيَّـةُ مِلْءَ اليوم فوقهم(١)

إذا توافقت الضربات صاعـدةً
توافقت قُلَلٌ في الجو تصطدم(٢)

واسلم بن شميشيق أليّتـــــــهُ
ألاَّ انثنى فهو ينأى وهى تبتسم(٣)

لا يأمُلُ النفسَ الأقصى لمهجته
فيَسْرقُ النفسَ الأدنى ويغتنمُ

فلا سقى الغيثُ ما واراه من شجر
لو زلّ عنه لوارت شخصه الرَّخَم(٤)

وهكذا وسم الشاعر الروم بميسم لا يفنى مع الزمان ، ولا يبلى مع الحدثان ، وسجل فى هذه القصيدة الرائعة عدة أحداث حربية ، وتابع الجيش العربى فى تنقلاته بأرض الروم لمطاردة الأعداء ، ونقل مادار فى معركة الدرب من أحداث . ورسم بهذا الشعر العظيم لوحة ناطقة ومعبرة عن حماسة سيف الدولة الحمدانى .

ولقد وفق أبو الطيب فى اختراع الصور وابتداع الأخيلة وابتكار المعانى عند ما كـان يصف الجيش العربى وهو يقفز بالخيول من بلد إلى آخر ، ثم

---

(١) الأعوجية : الخيول المنسوبة إلى أعوج وهو فرس كريم كان لبنى هلال .
(٢) القلل : الرؤوس .
(٣) أسلم : ترك ، أليته : يمينه ، ينأى : يبعد .
(٤) الرخم : جمع رخمة وهو طائر أبقع يشبه النسر فى الخلقة .

ما هذه القدرة الغريبة فى تجميع الأحداث ونقل جغرافية أرض الروم إلى شعر العرب بهذه الصورة ؟

وإذا كان الشعر ليس مصدرا للتاريخ ولا يصح الاكتفاء به فى نقل الأحداث تحسبا لخيال الشعراء ، ولجنوحهم كثيرا إلى المبالغات التى تلتوى معها الحقائق فإن ما ورد فى حربيات أبى الطيب له قيمة كبيرة فإن لم يكن فى نقل الحقائق وقد كان الشاعر شاهدا عليها ففى استكمالها والإضافة إليها على أقل تقدير ، وبكل هـــذه الاعتبارات وغيرها تأكدت أهمية ما قاله المتنبى فى حروب سيف الدولة مع الروم فى القرن الرابع الهجرى .

ثانيا : معارك سيف الدولة مع القبائل العربية :

يحتوى ديوان المتنبى على خمس قصائد يصف فيها اضطراب البادية على سيف الدولة ، وأولى هذه القصائد قد قالها أبو الطيب فى مدح سيف الدولة لإيقاعه بعمرو بن حابس وبنى ضبة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ولم ينشده إياها ، ومطلعها :

ذِكَرُ الصبا ومراتعُ الآرام جلبت حِمَامى قبل وقت حمامى[1]

وأما القصائد الأربع الأخرى فقد أنشدها أبو الطيب فى مجلس سيف الدولة فى المدة التى قضاها معه بحلب وهى موضع حديثنا ، والقصيدة الأولى منها عن حرب سيف الدولة للقرامطة ، الذين أغاروا على حمص فى بادية السماوة ، وأخذوا عامل سيف الدولة عليها ، فقال المتنبى « اللامية » ومطلعها :

إلامَ طماعيةَ العـاذِل ولا رأى فى الحب للعـاقل[2]

(١) ذكر : جمع ذكرى ، ومراتع : جمع مرتع وهو الموضع الذى ترتع فيه الدواب ويريد ديار الأحبة ، والآرام : الظباء والمراد : النساء .

(٢) إلام : إلى ما ، طماعية : مصدر بمعنى الطمع ، العاذل : اللائم .

ثم قال قصيدتين فى هجوم قبائل قيس على ملك سيف الدولة ورده لها ، وتنكيله بها ، ومطلع الأولى :

تذكرت ما بين العُذَيْب وبارق   مَجرّ عوالينا وَمَجرى السوابق[1]

ومطلع الثانية :

طوالُ قَنًا تطاعنها قِصَارُ   وقطرُك فى نَدًى وَوَغًى بحَارُ[2]

والقصيدة الأخيرة فى ثورة بنى كلاب ببادية السماوة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، وأولها :

بغيرك راعياً عَبِثَ الذئابُ   وغيرَك صارماً ثَلَمَ الضِّرَابُ

وبصرف النظر عن القصيدة التى قالها المتنبى قبل أن يصل إلى حلب ، فإن القصائد الأربع المذكورة تؤكد أن الحياة الداخلية فى مملكة سيف الدولة لم تكن هادئة ، وأن حروبه مع الروم لم تصرف جيرانه العرب عن مناوئته ، وربما كان البعض من أهل البادية والحاضرة على السواء من افتقد مشاعره الإسلامية الخالصة فنسى أو تناسى أن الأمير الحمدانى يقاتل تحت راية الإسلام ، ويدافع عن أرض العرب فى الجزيرة والشام ، يقول الدكتور طه حسين : « فقد كان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين الروم على خصمه سراً أو جهراً برغم أنه كخصمه مسلم ، وأن الروم عدو له ، ولهذا الخصم . وكان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين القرامطة على خصمه سراً أو جهراً برغم

---

(١) العذيب وبارق : موضعان ، والعوالى : الرماح ، والسوابق : الخيل .
(٢) القنا : الرماح ، الندى : الجود ، الوغى : الحرب .

أنه متفق مع خصمه فى بعض النظام القرمطى والفساد القرمطى فى السياسة والدين جميعاً »(١) .

ثورة بنى كلاب :

خرج أبو الطيب إلى بلاد كلاب فى بادية السماوة بالشام ، ولم يكن عمره قد زاد على عشرين سنة ، فأقام بينهم مدة لأنهم كانوا وكراً من أوكار اللغة وحصناً من حصون الضاد ، فتعلم منهم ، واستفاد بمخالطتهم ، وأخذ ينشد الشعر فى باديتهم ، وقد وجد فى رجالهم مثل سعيد بن عبد الله الكلابى ميلا إليه ، وإعجاباً بشعره ، واقتناعاً بفكره ، وكانوا يرجون أن ينصّبوا المتنبى أميراً عليهم بعد أن أشعل نار الثورة فيهم ضد الأعاجم الذين بغوا وظلموا وسلبوا سلطات الحكم من حكام بغداد ، وكأنه كان يستنهض بنى كلاب للقيام بثورة عنيفة تحقيقاً لقوله :

وإنما الناسُ بالملوكِ وما تُفلِحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ
لا أدبٌ عندَهم ولا حسبٌ ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمُ

ووصل خبر المتنبى إلى أبى لؤلؤ والى حمص من قبل الأخشيد فقبض عليه بعد صراع عنيف مع بنى كلاب ، وذلك لأنهم كانوا يريدون أن ينصبوه أميراً عليهم ، ودخل أبو الطيب السجن فى حمص سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ثم أفرج عنه الوالى فى العام التالى ، كما أوضحنا فى حديثنا عن حياة المتنبى . فلم تكن بادية الشام وما يجرى فيها غريباً عليه أو جديداً على فكره الثورى .

ثم تُسْرع الأيام فى خطوها ، ويتصل بسيف الدولة ، وتتوثق الصلة بين

(١) مع المتنبى ص ٢١٦ دار المعارف .

قلبيهما ، إلى أن تتجدد الثورة فى بنى كلاب ضد سيف الدولة ، إذ كانت هذه البادية تحت لوائه ، وَيُحْدِثون حدثاً بناحية (بالس)[1]، فخرج إليهم فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة قبل ذهابه لبناء الحدث ، وقد علموا بسيره إليهم ، فارتحلوا عن أمكنتهم ، فسار خلفهم ، وأدركهم بجيشه بعد ليلة ، وأوقع بهم ، وملك حريمهم ، وأبقى عليهن حتى انتهى من قتالهم وانتصر عليهم فردهم إلى طاعته ، وشملهم جميعاً بعفوه .

وعندما عاد إلى حلب ، وقبل أن يتركها فى هذه الآونة للخروج إلى قلعة الحدث الحمراء أنشده المتنبى بائيته الحماسية فى انتصاره على بنى كلاب وعفوه عنهم ، وأولها :

بغيرِكَ راعياً عبثَ الذئاب وَغيرَكَ صارماً ثَلِمَ الضراب[2]

والمطلع بدوى حماسى ، وفيه سرعة فى الوزن العروضى ، ورشاقة فى الألفاظ من حيث السهولة والجزالة وعمق وبراعة فى المعنى ، وقد جعل المتنبى سيف الدولة راعياً ، وبنى كلاب ذئاباً ، فإذا كان هو الراعى لم تعبث الذئاب به ، وإذا كان هو السيف لم يثلمه الضرب .

ثم يقول :

طلبتهم على الأمواه حتى تخوّف أن تفتشه السحابُ
فبتّ لياليا لا نومَ فيها تَخُبُّ بك المسومةُ العِرَاب[3]

---

(١) بلد بالشام بين حلب والرقة ـ راجع معجم البلدان جـ ١ ص ٣٢٨ .
(٢) صارما : سيفا قاطعا ، الضراب : المضاربة .
(٣) خب الفرس : أسرع .

يَهُزُّ الجيشُ حولَكَ جانبيه ... كما نفضَتْ جناحَيْها العُقابُ[(١)]
وتسألُ عنهم الفلواتِ حتى ... أجابكَ بعضُها وَهُمُ الجوابُ[(٢)]
تكفكفُ عنهمُ صمَّ العوالي ... وقد شَرِقَتْ بظُعْنِهمِ الشِّعابُ[(٣)]
وأُسقِطت الأجنَّةُ في الولايا ... وأُجهِضتِ الحوائلُ والسِّقابُ[(٤)]

ثم يستعطفه قائلا :

ترفَّقْ أيها المولى عليهم ... فإنَّ الرفقَ بالجاني عِتابُ
وأنهم عبيدُكَ حيثُ كانوا ... إذا تدعو لحادثةٍ أجابُوا
وعينُ المخطئين هُمُ وليسوا ... بأولِ معشرٍ خطئوا فتابُوا
وأنتَ حياتُهم غضِبت عليهم ... وهجرُ حياتِهم لهُمُ عقابُ
وما جهِلت أياديكَ البوادي ... ولكن ربما خَفِيَ الصوابُ[(٥)]
وجرمٍ جرّه سفهاءُ قومٍ ... وحلَّ بغيرِ جارِمِه العذابُ[(٦)]

صاغ المتنبي هذه القصيدة من بحر الوافر ، وهو من البحور السهلة السريعة التى تؤذن بالسرعة وتلاؤم العدْو ، ولا تسمح بالتوقف ، فسيف الدولة ينطلق

---

(١) العقاب : طائر من الجوارح ، قوى المخالب .

(٢) الفلوات : الصحارى .

(٣) تكفكف : تكف ، الصم : الصلاب ، العوالى : صدور الرماح ، شرقت : غصت ، الظعن : النساء جمع ظعينة ، الشعاب : جمع شعب وهو الطريق فى الجبل أو بين جبلين .

(٤) الولايا : أغطية فوق ظهور الإبل « البراذع » الحوائل والسقاب : الإناث والذكور من أولاد الإبل .

(٥) أياديك : نعمك .

(٦) الجرم : الذنب .

فى سرعة يتعقب الخارجين عليه، ويفتش عليهم بين الأمواه حتى خاف السحاب أن يصل إليه ، ويفتش عنهم لما فيه من مياه ، وهو يسرع إليهم فى يقظة على الخيول المسرعة ، وفى أثناء تعقبه لهم والجيش من حوله كالعقاب يسأل عنهم الصحارى ، ويفتش عليهم فى الفلوات حتى أدركهم فى إحداها وكان الظفر بهم إجابة له ، وعندما أمسك بهم منع رماحه عنهم ، وقد امتلأت بنسائهم الطرق فى الجبال ، ومن شدة الخوف أسقطت الأمهات أولادها على ظهور الإبل ، كما أسقطت النوق هى الأخرى أولادها من الإناث والذكور أى امتد الخوف والفزع من الإنسان إلى الحيوان .

وفى أبيات الاستعطاف يطلب أبو الطيب من أميره أن يترفق ببنى كلاب فهم جناة والرفق بهم عقاب لهم ، وهم رجاله وقد ينفعونه فى ساعة الشدائد وهم مخطئون حقاً لكنهم ليسوا أول المخطئين الذين ندموا وتابوا ، ويجعل المتنبى سيف الدولة حياة لهم، فإذا هجرهم فكأن الحياة قد هجرتهم ، ويذكر أن كرمه وحلمه يصلان لأهل البوادى والحواضر على السواء ، وله عليهم سابق فضل، ولكن ربما خفى عليهم ذلك فكان منهم ما كان . ثم يحاول أن يلتمس العذر لهم ، ويرفع الإساءة عنهم ، وينسبها لمن سوغها لهم .

وفى تعليق الدكتور طه حسين على هذه القصيدة يقول : « فهو يُرْضِى حاجة كلاب إلى العفو ، كما يرضى حاجتها إلى الكرامة ، وهو يرضى حاجة سيف الدولة إلى الحلم كما يرضى حاجته إلى تصوير بأسه وشدته . . . »(١) . ثم يقول : « وأنت تذكر أنه قد كان المتنبى عهد بالكلابيين فى صباه ، فقد نزل بهم، ومدح سيداً من ساداتهم فى منبج حين أقبل من العراق ، وشهد مجالس لهوهم أيضاً ، وبرهم به فجزى خيراً بخير ، وإحساناً بإحسان »(٢) .

(١) مع المتنبى ص ٢٢٠ .
(٢) المرجع نفسه ص ٢٢١ .

ولا يخفى الفرق الكبير بين أبيات الحماسة فى هذه البائية والقصائد الحماسية التى أنشدها عن حرب سيف الدولة مع الروم .

ولقد بدأ المتنبى هذه البائية بداية حماسية فلم يبدأها بالغناء ولكنه استفتحها بالحماسة التى تكاد تكون مصطنعة ، لأن بنى كلاب على كل حال خصوم لسيف الدولة وليسوا بأعداء له كالروم ، والانتصار عليهم ، وإلحاق الهزيمة بهم ليس انتصاراً للاسلام ولا للمروءة .

والشعر الحماسى فى حرب الروم شعر متوهج ملتهب ، والقصيدة فيه من أولها إلى آخرها في الحرب والطعن والضراب باستثناء بعض القصائد التى بدأت بالغزل التقليدى أو بالحكمة فى بيت أو بيتين ، وربما بدأها بداية حماسية قوية مؤخراً جرعة الحكمة إلى آخر القصيدة ، أما قصائد حروب البادية فهى من النوع التقليدى ، ففيها بعض الملامح من البادية والحضر معا وهى من النوع الحماسى الغنائى من حيث الألفاظ والتراكيب والأوزان .

ذلك أن المتنبى متعصب للعرب كاره للعجم ، فقد قال :

وإنما الناسُ بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

ولهذا جاءت الألفاظ والتراكيب رقيقة ليفة حادثة ناعمة ، وفى الأوزان خفة ورشاقة على عكس ما رأينا فى حروب الروم .

أما المعانى والصور والأخيلة بما فيها من تشبيهات رائعة ، واستعارات جميلة ، ومبالغات وثابة فلا تخرج عن المنهج الفنى الذى اتبعه المتنبى فى كل السيفيات .

الفصل الثالث

خصائص الشعر الحماسي

في سيفيات المتنبي

تتجلى موهبة المتنبي وقدرته في إبراز حماسة سيف الدولة في الشعر الحربي الخالص الذي قاله في وصف المعارك والحروب ، وقد عرضنا لبعض الأمثلة من خلال التعريف به أولا ثم من خلال قصائد المعارك والحروب ثانيا . والمتنبي الكثير من الشعر الحماسي الذي يغرى بالحديث ، إذ أنه كان محبا للفروسية ، ووضع هذا الحب في مواقف عديدة من حياته ، وكان حب الفروسية يسرى في دمه ، ولهذا عاش قلقا خائفا ، وقد وجد في سيف الدولة الكرم والشجاعة والتأييد وحب الشعر ، ولهذا كان اتصال الشاعر بأميره من أهم العوامل التي ساعدت على رقي الفن الشعري عند أبي الطيب وبخاصة شعر الحماسة والحرب ، واكتسب سيف الدولة المجد والتخليد والتأريخ لحروبه التي انتصر فيها ، فشهد العصر العباسي الثاني وفي ظلال الدولة الحمدانية ازدهارا للأدب، ونموا لحركة الشعر ، ووصل فن الحماسة في عصر المتنبي إلى القمة وأخذ الناس يتابعون ماقيل في مجالس سيف الدولة بدارة (الحلبة) لأن هذه الأشعار تشكل أهمية كبيرة من نواح متعددة .

يقول الدكتور زكي المحاسني عن أهمية السيفيات : « وإن هذه القصائد فوق ماحوته من قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق في فن المعاني والأسلوب، وسمو في الصنعة ، فإنها تجمع في أبياتها (قيمة تاريخية) و (جغرافية) غالية القدر ،

وتعد (وثائق) فى غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسى والتحقيق الأدبى فى عصر سيف الدولة »[١].

مطالع القصائد :

تختلف ابتداءات السيفيات تبعا لحالة المتنبى نفسه ، ولطبيعة المناسبة من جهة أخرى ، ومن المطالع الجيدة فى شعر الحماسة قوله :

على قدر أهل العزمِ تأتى العزائمُ
وتأتى على قدر الكرامِ المكارمُ

وقوله :

لكل امرىء من دهره ما تعودا
وعادةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ فى العدا

وقوله :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم
أ كلُّ فصيحٍ قال شِعْراً مُتَيَّمُ

وقوله :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحلُّ الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس مِرَّةٍ بلغت من العلياء كلَّ مكانِ

ومن مطالع السيفيات التى استقبحها الأدباء والنقاد قوله :

وفاء كما كالربع أشجاه طاسِمُهُ بأن تُسْعِدَا والدمع أشْفَاهُ سَاجِمُهُ[٢]

(١) شعر الحرب ص ٢٧٤ .
(٢) سبق ذكره فى التعريف بالمتنبى .

وقد كثر الحديث عن هذا المطلع ، ولم يجد البرقوقى (أحد شراح ديوان المتنبى) وسيلة يتخلص بها من هذا التعقيد والالتواء فعمد إلى كلام السابقين عن تفسير هذا البيت ، ونقله عنهم إلى شرحه بالديوان ليؤكد اختلاف السابقين فى فهم هذا المطلع وتوجيه معناه ، واقرأ ما قاله الدكتور طه حسين عن هذا المطلع : « . . . ولنلاحظ أن المعنى الذى قصد إليه متكلف فى نفسه ، لم يصدر عن نفس سمحة مرسلة مع طبعها وإنما صدر عن شاعر يريد أن يأتى بشىء جديد لم يتعود الناس والمثقفون منهم خاصة أن يسمعوه .

يريد أن يفجأ سامعيه ، ويأتيهم بشىء لا عهد لهم به . فمتى سمع الناس تشبيه وفاء الأصدقاء بربع الأحباء ؟ ، وأى علاقة بين هذين الطرفين من أطراف التشبيه ؟ ، وإذن فهذا المعنى الغريب محتاج إلى تعبير غريب . . . . »[1] .

فالواضح أن المتنبى قد قصد هذا التعقيد عن عمد، وكان بسبيل عرض بضاعته بأنطاكية ، فأراد أن يكلف سامعيه جهدا ومشقة فى فهم هذا المطلع ، حتى يحكموا له ، ويشيدوا ببراعته ! !

فطالع المتنبى ترتبط ارتباطا وثيقا بحالته النفسية ، فإذا كان طبيعيا وغير مهموم جاءت المطالع جيدة، وقد يبدأها بالغزل أو يتحدث عن الحروب فى المطالع أو فى القصيدة نفسها بألفاظ التشبيب والغزل كقوله :

لياليَّ بَعْدَ الظاعنين شكول ... طوال وليلُ العاشقين طويلُ
يبنَّ لى البدر الذى لا أريدُه ... ويخفين بدراً ما إليه سبيلُ

---

(١) مع المتنبى ص ١٩ .

وكان قد قال هذه القصيدة — كما يذكر الديوان — فى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة عن معارك سيف الدولة فى الثغور .

ومن المطالع التى خلط فيها الحب بوصف الحروب والمعامع قوله :

أعلى الممالكِ ما يبنى على الأَسَلِ   والطعنُ عند مُحِبِّيهن كالقُبَلِ (١)

فاستخدم ألفاظ الغزل والنسيب فى أوصاف الحروب والمعارك ، وقد استطاع المتنبى أن يلائم بين جو المعركة وما فيه من دماء وطعن وجو الفرح والبهجة والأنس . وهذا راجع لحبه للحروب، وعشقه لما يدور فيها ، وهيامه بأوصافها.

شجاعة سيف الدولة :

إن معظم ما قاله المتنبى من شعر الحرب فى السيفيات إنما هو لتصوير شجاعة سيف الدولة ، وبسالته . فالحرب عادة من عاداته :

لكل امرىء من دَهْرِهِ ما تعَوَّدَا
وعادةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ فى العِدَا

والجيش يحتمى به على عكس غيره من الأمراء الذين يلجأون إلى الجيوش للاحتماء بها :

بالجيشِ تمتنع الساداتُ كلُّهُمُ
والجيشُ بابن أبى الهيجاء يمتنع

والمنايا تأتمر بأمره لأنه يقاتل تحت راية الدين ، ويجاهد لنصرة الإسلام .

تغدو المنايا فلا تنفك وَاقفةً
حتى يقولَ لها عُودِى فتَنْدَفِعُ

(١) الأسل : الرماح ، وقد أنشدت هذه السيفية سنة ٣٣٧ هـ .

وهو واقف ثابت ، لا يزول ، ولا يتحرك فى وقت النصر أو فى ساعة الهزيمة والإنكسار .

وَقفتَ وما فى الموتِ شكٌّ لواقفٍ
كأنك فى جَفنِ الرّدَى وهو نائمُ
وقد حددتُكَ فى هولٍ ثبتَ لَهُ
حتى بلوتك وَالأبطالُ تمتصع

ولقد افتتن الناس بشجاعته حتى قال بعضهم إنه يعلم مسبقا نتائج حروبه وقتاله مع الأعداء .

تجاوزتَ مقدارَ الشجاعة وَالنُّهَى
إلى قَوْلِ قومٍ أنت بالغيب أعلم

وهو يقاتل باسم الدين ويحارب دعاة الشرك ، وخصوم الإسلام .

ولست مليكا هازماً لنظيره ولكنك التوحيدُ للشركِ هازمُ
ومهذّبٌ أمرَ المنايا فيهمُ فأطَعْنَهُ فى طاعةِ الرحمن

وهو يسير إلى الأعداء مدفوعا بهمة عالية وعزيمة جبارة .

لو كانت الخيلُ حتى لا تحمّلَه تحمّلتهُ إلى أعدائه الهِمَمُ

ومن شجاعته وبسالته تستسلم له دماء الأعداء ، وتقدم له الطاعة والولاء .

ألقت إليك دماء الرُّومِ طاعتَها
فلو دعوتَ بلا ضربٍ أجابَ دَمُ

وهذه أمثلة قليلة من شعر المتنبى فى حماسة سيف الدولة وبطولته .

وصف الجنود وطريقة دخولهم المعركة :

أجاد المتنبي في وصف الجيوش وهي متحركة إلى أرض الأعداء قال :

صدمتهم بخميسٍ أنت غرّتُه ... وسمهريته في وجهه غمم
فكان أثبتَ ما فيهم جسومُهُم ... يسقطن حولك وَالأروَاح تنهزِمُ

فالجيش يتحرك رافعا الرماح ، فإذا ما وصل إلى العدو انخلعت أرواح جنوده ، وبقيت الأجسامُ جثثا بلا حراك ، والصورة رائعة ومبتكرة .

ويخاطب سيف الدولة قائلا له :

يهز الجيشُ حولك جانِبَيْهِ ... كما نَفَضَتْ جناحيها العقاب
وتسأل عنهُم الفلواتِ حتى ... أجابك بعضُهَا وَهُمُ الجوابُ

وعند ما تتحرك جيوشه وتتجه إلى أرض الروم ، ثم يفاجأ قواد الأعاجم بما أقبل عليهم يذمون حواسَّهُمْ ، ويكذبون أعينهم ، إذ لم يكونوا متصورين جيش سيف الدولة بهذه الصورة .

ذم الدُّمُسْتُقُ عينيه ، وقد طلعت ... سودُ الغمامِ فظنوا أنها قَزَعُ
فيها الكماةُ التي مفطومها رجلٌ ... على الجيادِ التي حوليُّها جذعُ

ويذكر أن الجياد تحمل الأبطال إلى الحروب ، وكأنهم مقبلون على أوطانهم فيثيرون بتحركهم الغبار الذي يمنع الرؤية ، ويجعل الخيول ترى بأذنيها ، قال :

قاد الجيادَ إلى الطعانِ ولم يَقد ... إلا إلى العاداتِ والأوطانِ
في جحفلٍ ستر العيونَ غبارهُ ... فكأنما يُبْصِرْنَ بالآذانِ

وجعل الجيش العربي بحرا من حديد عند ما يتحرك إلى أرض المعارك وذلك لكثرة مَنْ لَبِس الحديد فيه ، قال :

رميتهم ببحر من حديدٍ   له فى البر خَلْفَهُم عباب[1]
فَمَسَّاهُم وَبُسْطُهُم حريرٌ   وصبحهم وَبُسْطُهُم تراب

وصف الخيل :

لا تكاد تخلو قصيدة حماسية لأبى الطيب من وصف الخيل ومتابعة تحركها إلى الأعداء ومطاردتها لجيوشهم أو وهى تعبر مياه الأنهار والبحيرات ، حاملة الرجال بأسلحتهم ومعداتهم ، وقد تحدث الشعراء عن الخيول ، وهى تحملهم فى بهيم الليل إلى ديار محبوباتهم أو المنازلة فى أرض القتال ، ولكنهم لم يبلغوا ما بلغه أبو الطيب فى وصف الخيل وصفا عاما أو وصفها وهى تأكل وتشرب وتسرع إلى أرض الأعداء ، قال :

قادَ المقانبَ أقصى شربها نَهَل
على الشكيمِ ، وأدنى سيرها سِرَع

وقال عن سرعتها :

يَذْرِى اللقانُ غباراً فى مناخرها   وفى حناجرها من آلس جُرَع

وقال :

فكأن أرجلها بتربة مَنْبَجٍ   يَطْرَحْنَ أيديها بحصنِ الرانِ
حتّى عبرن بأرسناسَ سوابحاً   ينشرن فيه عمائمَ الفرسانِ
فوارسُ يحيى الحمامُ نفوسها   فكأنها ليست من الحيوانِ

والمتنبى يضفى من رائع بيانه ، وجمال تصويره ما يكسب هذه المعانى بهاء ورونقا .

---

(١) العباب : معظم الماء ، وكثرته .

وفى الميمية التى قالها المتنبى فى موقعه الدرب نراه يتحدث عن الخيل فى أبيات كثيرة متتالية فيصف خروجها وهى مسرعة إلى الأعداء فى الجو القائظ، ثم وهى تعبر بحيرة سُمْنِين، وتمر بقرى هِنْزِيط إلى أن تصل إلى نهر أرسناس فتعبره فى سرعة فائقة إلى الأعداء قال :

وَشُزَّبٌ أحمتِ الشِّعْرَى شكائمَهَا ووسمتها على آنافها الحكم
حتّى وردن بسمنين بحيرتها تنش بالماء فى أشداقها اللُّجَم
فما تركن بها خُلْداً له بَصَرٌ تحتَ الترابِ ولا بازاً له قَدَمُ

ويذكر الخيل وهى تسرع إلى الأعداء فتمطرهم بالحديد وتظلهم بالسيوف قال :

رمى الدربُ بالجردِ الجيادِ إلى العِدَا
وما علموا أن السهام خيولُ[1]
شوائلَ تَشْوَالَ العقارب بالقنا
لها مَرَحٌ من تحته وصهيل[2]
وخيلٍ بَرَاها الركض فى كل بَلْدَةٍ
إذا عرّست فيها فليس تقيلُ[3]
فما شَعرُوا حتّى رأوها مُغِيرَةً
قِبَاحاً ، وأما خلقُها فجميلُ[4]

---

(١) الجرد : الخيل القصيرة الشعر الجلد ، وهو آية كرمها .

(٢) شالت العقرب ذنبها : رفعته وهو يشير إلى سرعة جريانها ، ورفعها لأذنابها كالعقارب فى نشاط ومرح .

(٣) الخيل دائمة السير لا تستريح ولا تقيل

(٤) قباحا بمعنى مستقبحة .

سحائبُ يمطرن الحديد عليهم فكلُّ مكانٍ بالسيوفِ غسيلُ[1]

وهذا قليل من كثير أجاد أبو الطيب فيه وصف الخيل لما لها من أهمية فى إحراز النصر وتحقيق الظفر وسرعة الوصول إلى أرض المعارك أو القفول منها.

وصف أدوات الحرب :

اهتم المتنبى بالأسلحة التى يستخدمها الجيش فى قتاله مع الأعداء فأشاد بكثرتها ، وتحدث عن أنواعها حديث العارف لها البصير بأماكن صداقتها ، قال يصف السيوف وهى أهم الأسلحة التى كان الأقدمون يستخدمونها فى الحروب :

وَالمشرفيَّةُ لا زالت مشرَّفَةً دواءَ كل كريمٍ أوهىَ الوَجَعُ

وقال فى (ميمية الحدث) :

ومن طلب الفتحَ الجليلَ فإنما
مفاتيحُهُ البيضُ الخفافُ الصوارمُ

وقال فى (ميمية الدرب) :

كلُّ السيوفِ إذا طالَ الضرابُ بها
يمسها غيرَ سيف الدولة السأمُ

ولى صوارمُهُ إكذابَ قولهم
فهن ألسنةٌ أفواهُها القِمَمُ

---

(١) غسيل : بمعنى مغسول .

والأسلحة متنوعة فى جيش سيف الدولة ومنها الرماح التى تقرع بعضها فى موقعة الحدث قال :

بناها فأعلى والقنا تقرعُ القنا ومَوجُ المنايا حولَها متلاطم

وليست العبرةُ بالسلاح ، إنما بمن يحمله ويقاتل به .

إن السلاحَ جميعُ الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع

وصف الحروب :

أبدع أبو الطيب فى هذا الفن الشعرى مصورا جيش الأعداء وهو متجه فى كثرة كثيرة إلى أرض القتال قال :

أتوْكَ يجُرُّونَ الحديدَ كأنهم سَرَوْا بجيادٍ مالهن قوائمُ
إذا بَرقوا لم تعرف البيضُ منهمُ ثيابُهُمْ من مثلها والعمائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفه وفى أذنِ الجوزاء منه زمازِمُ
تجمع فيه كل لِسْنٍ وأمةٍ فما تفهم الحداثَ إلا التَّراجُمُ

ويصف الحرب ومايجرى فيها من تلاحم للجنود ، وقتال بالسيوف ، ومبارزة من فوق الخيول ، ويصف مقاومة الأعداء ، ويتحدث عن الهزيمة ، وقد لحقت بهم ، ويصور أرض المعركة ، والمدة التى استغرقتها ويصف وقوع الأعداء فى الأسر ، ويتفنن أبو الطيب فى تصوير رسول الروم وهو قادم لطلب الهدنة ، والمفاداة ، ويمن عليه بتقبيله كم سيف الدولة وهو واقف بين صفين من الكماة قال :

وقبّلَ كمَا قبّلَ التُّرْبَ قبله وكل كمى واقفٌ متضائل

ومما قاله عن التحام الجنود فى أثناء القتال :

ضممت جناحَيْهِمْ على القلب ضمّةً تموتُ الخوافِى والقوادِمُ

بضَرْبٍ أتى الهامات والنصر غائب وصار إلى اللبات والنصر قادمُ
حقرت الردينيات حتى طرحتها وحتى كأن السيف للرمح شاتم
نثرتهم فوق الأحيدب كلّه كما نثرت فوق العروس الدراهم

ولقد بلغ المتنبى حد الروعة فيما قدمه فى سيفياته عن حماسة سيف الدولة، ومن تصوير معاركه، وإبراز شجاعة رجاله، ووصف الخيول المسرعة إلى أرض الأعداء وهى تسبح وتخوض بين البحار والأنهار.

وقد عرض أبو الطيب لهذا الشعر الحماسى من خلال فن المديح الذى طوره وأجاد فيه حتى جعل من بعض قصائده تصويرا كاملا لما يجرى على ساحة القتال.

ففى بعض قصائد المدح يعرض لحماسة أميره، ويتحدث عن بعض خصاله التى لا تتصل بالحرب وما يجرى فيها اتصالا مباشرا، ومن هذه القصائد الدالية المعروفة التى تبدأ بقوله:

لكل امرىء من دهره ما تعوّدا
وعادة سيف الدولة الطعن فى العِدَا

ووصفه بالشدة فى القتال، وسرعة السير إلى الأعداء فى الوقت الذى هرب فيه عدوه (الدمستق) وترك ابنه وجيشه لملاقاة الموت. قال:

سريت إلى جيحانَ، من أرض آمِدٍ
ثلاثا، لقد أدناك ركضٌ وَأبْعَدَا
فولى[1] وأعطاك ابنه وجيوشه
جميعا، ولم يعطِ الجميع ليُحْمَدَا

---

(١) فولى: الضمير للدمستق

ووصفه فى القصيدة نفسها بالذكاء والقوة والرحمة ، قال :

هو البحر غص فيه إذا كان ساكناً
على الدر ، واحذره إذا كان مزبدا

وقال :

ولكن تفوق الناس رأياً وحكمةً
كما فقتهم حالا ونفساً وَمَحْتِدَا

وله قصائد فى مديحه ، ولكنها خالصة تماما للحديث عن حماسته ووصف حروبه ، وقد عرضت لهذا اللون من خلال ميمية الحدث التى تبدأ بقوله :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارمُ

فإذا بحثنا عن الحماسة عند المتنبى وجدناها فى القصائد الحماسية الخالصة لوصف الحرب ، وفى قصائد المدح التى وصف فيها سيف الدولة بالشجاعة والقوة وأبرز جنوده وهم يضربون ويطعنون جيوش الأعداء فى المعامع والوقائع . وبهذا يتضح أن المقصود بشعر الحماسة عند المتنبى هو الشعر الحربى الذى عمد فيه إلى وصف المعارك ، ومتابعة الخيول فى قفزها وجريها ، وعليها الأبطال البواسل ، ومعهم الأمير فى بسالته وشجاعته إلى غير ذلك من المعانى التى سبق الحديث عنها فى القصائد المحللة .ولو أطال أبو الطيب نفسه فى القصائد المذكورة وغيرها وبلغ بكل منها مائة بيت أو أكثر ، وانتزع مفاتيح الغزل وختام الحكمة مما كان يستعين بها فى القاول من سوفيياته الحماسية . . لو اتجه هذه الوجهة لكان شعره الحماسى ملحميا خالصا ، مع أن معظم الخصائص الفنية للشعر الملحمى قد تضافرت فى هذه القصائد إلا أن الشاعر قد اكتفى بتراثه العربى ،

وتأثر بشعر البطولة من نتاج الجاهليين والخوارج ، ونماه ، ووصل به إلى أرقى أطواره، ومع ذلك فللمتنبي في سيفياته تواجد خاص، ومنهج يتفرد به ،وسمات وملامح لا تتوفر لغيره .

وقد ساعد على ذلك أن المتنبي نفسه كان فارسا ، مشاركا في أعمال الحروب ومعاونا للجنود في ساحة القتال ، بل لقد عرف بالفروسية في أحلك ساعات حياته ، فقد تعرض للقتل، وأوشك دمه أن يهدر في أرض حلب على يد غلمان أبي العشائر ، ولكن الرجل نجح في الدفاع عن نفسه ، ثم استقبل الموت في (دير العاقول) عندما هجم عليه اللصوص ، ولم يوفق هذه المرة ، ولم يستسلم، حتى قتل،ولأبي الطيب شعر كثير يشيد فيه بشجاعته وبسالته وحبه للفروسية .

والشعر الحماسي عند المتنبي كثير متنوع ، ولذلك استحوذ على إعجاب الكثيرين، وحرصوا على قراءته ، ودراسته منذ أكثر من ألف عام ، كأنه كان يستطلع الغيب ويقرأ مستقبل الأيام عندما قال :

وما الدهرُ إلا من رواةِ قصائدي
إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنشِدا

وفي السيفيات الحماسية كثير من مميزات الشعر القصصي فهو يصف الوقائع ويسرد الأحداث ، ويصل إلى الالتقاء بالمبارزة ، ويصور تلاحم الخيول حتى تنتهي المعركة فيتحدث عن القتلى والأسرى ، ويتعقب الفارين ، ويشيد بالمنتصرين مع الحرص الشديد على جمال التعبير وروعة الأسلوب ، ومن المعاني الأخاذة قوله لسيف الدولة :

نهبت من الأعمار ما لو حويته   لهنئت الدنيا بأنك خالد

فالمعنى فخم ودقيق وعظيم ومبتكر ؛ وربما وصل المتنبى ببعض المعانى إلى حد الغلو والإسراف فى المبالغة كقوله :

تظل ملوك الأرض خاشعة له　　تفارقه هلكى وتلقاه سجدا

وقد اعتمد على خياله الوثاب، وعاطفته الصادقة العميقة ، وقدرته على التعليل والتأويل فيما جاء به من مبالغات .

وكذلك كان يستعين فى هذا الشعر الحماسى بالحكم والأمثال كقوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته　　وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقوله :

الرأى قبل شجاعة الشجعان　　هو أول ، وهى المحل الثانى

وقوله :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم . . . .

« ومهما يكن من شىء فقد كثرت الحكمة فى شعر المتنبى كثرة لم تمهد لشاعر قبله حتى عدها الصاحب مذهبا لم يسبق إليه ، وكان منها ما هو أثر لثقافته الفلسفية ، ومنها ما كان أثرا لحياته وتجاربه ، ونظراته فى المجتمع ، وما يجرى فيه من أحداث »[1] .

وإذا كان أبو الطيب قد أحسن ، وأجاد فى معانيه فجاءت عميقة ومبتكرة فإنه قد اختار الأسلوب الذى يلائم هذا الشعر الحماسى ، فنى أسلوبه قوة وجزالة لم نعدها لشاعر مثله ، وألفاظه عظيمة الإيقاع شديدة المخارج لتلائم قرع القنا وطعن السيوف وركض الخيل .

---

(١) الشعر فى ظل سيف الدولة لدرويش الجندى ص ٢٩٤ .

فجزالة الأسلوب تبرز عند المتنبي فى هذا الشعر الحماسى الذى نعرض له من غير تكلف ولا تصنع ، ومن غير سيطرة بديعية تفسد المعنى ، إلا ما جاء عفواً طبيعيا منسابا .

فالمعانى رائعة ، والتصوير بارع ، والوصف دقيق ، والشعر قوى ومطبوع والشاعر متعصب لعروبته ، ومحب لأميره ، والألفاظ قوية وغير متكلفة وخالية تماما من كل صنعة ممجوجة والعاطفة صادقة وعميقة والخيال وثاب ، والموسيقى ملائمة ومعبرة .

ونخلص من ذلك أن المتنبي رائد فى فن الحماسة ، وهو أمير لشعراء الحروب فى عصره ، ولا نبالغ إذا قلنا فى كل العصور الأدبية حتى الآن .

ومن هذه المتابعة لأشعاره الحماسية نراه لم يغفل شيئا يتصل بالحرب إلا ذكره حسب أهميته مع روعة التصوير وجودة المعانى وصدق العاطفة .

لقد أحب سيف الدولة ، وغنى له ، وأشاد بانتصاراته فى هذه السيفيات التى كانت ولا زالت غرة ومنارة على جبين الشعر العربى فى عصوره الزاهرة .

الفصل الرابع

الحماسة فى شعر أبى فراس الحمدانى

نبذة عن حياة أبى فراس :

ولد أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان بالموصل سنة عشرين وثلاثمائة من الهجرة ، وبعد ثلاث سنوات من ولادته قتل والده أبو العلاء سعيد بن حمدان على يد غلمان لابن أخيه (ناصر الدولة) للخلاف بينهما حول تولى إمارة الموصل من قبل الخليفة العباسى « الراضى » .

وقد نشأ أبو فراس فى كنف أخيه الحسين بمنبج وهى إحدى مدن الشام ، وكان الحسين حاضرا مقتل أبيه بالموصل ، وحزن عليه حزنا شديدا ، وعاد إلى أمه « سخينة »[1] ليخبرها بما حدث لأبيه عند موته ، وقد اشتد حزنها هى الأخرى لفقد زوجها وترملها ، وعندما أفاقت من أحزانها اهتمت بوليدها أبى فراس ، واعتنت بتربيته ، وتثقيفه ، ووزعت وقته بين تعلم الفروسية ، ودراسة الأدب .

كان سيف الدولة يحب أبا فراس ، ويعطف عليه لشجاعته ، وكرم أخلاقه ، ولما انتقل إلى حلب سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وقد أقبل على مرحلة الشباب عقد له الولاية على منبج وحران ، وكان أبو فراس يشهد الحروب وهو فى هذه السن ، ويسجل أحداثها فى شعره ، وأصبح قائدا من قواد ابن عمه سيف الدولة.

(١) ذكر الأستاذ زكى المحاسنى نقلا عن المؤرخ «شلمبرجة» أن اسمها «صهيجة» وهى فى الأصل أمة من سبايا الروم ، وقد تزوجها ، سعيد بن حمدان وأنجب منها أبا فراس وغيره . راجع شعر الحرب ص ٣٢٦ .

ومع تقدم السن بأبى فراس واشتراكه فى الحروب ، والتحامه بجيوش الأعداء اضطر للوقوع فى الأسر مرتين الأولى . وكانت فى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، عند ما عزم سيف الدولة على ضرب الروم فى بلادهم ، وكان أبوفراس قائدا للقسم الأعظم من الجيش ، فوقع فى الأسر بعد أن نصب له الروم كمينا بمعاونة أحد الخونة فى جيش سيف الدولة ، وحبسوه فى حصن خَرْشَنَة[1] وهرب من الأسر بعد أن طرح نفسه من فوق قلعة خرشنة فى نهر « آلس » وتزوج محبوبته (بجلاء الخالدية)[2] وأنجب ابنته (فوزا) .

أما المرة الثانيـة التى أسر فيهـا فـكانت سنة إحدى وخمسين وثلاثمـائة عندما زحف الروم إلى مملـكة الحمدانيين، واحتلوها عن آخرها، وكان أبوفراس يدافع عن منبج ومعه سبعون فارسا وجرح فى فخذه ، واستسلم للأعداء ، فنقلوه أسيرا إلى خرشنة ، يقال :

إنْ زرت خَرْشَنَةَ أسيراً فلقد حللتُ بهـا أميرا

ثم مضوا به إلى القسطنطينية ، وقضى فيها أربع سنوات ، ونظم فى أسره مجموعة من القصائد والمقطوعات الشعرية امتازت بالرقة والحنين إلى الوطن والفخر بالآباء وعرفت باسم « الروميات » .

وقد اختلف المؤرخون فى سبب إبطاء سيف الدولة ، وتراخيه فى مفاداة أبى فراس ، وإطلاق سراحه . والحقيقة أن خزانة سيف الدولة كانت خاوية ، فقد نهبها البيزنطيون بقيادة قائدهم « نيسيفور فوكاس » ولم يرد سيف الدولة

---

(١) خرشنة : إقليم يقع فى الدرب إلى القسطنطينية .

(٢) أخت أبى عثمان وأبى بكر الخالديين اللذين ألفا معا كتابا فى الحماسة ، وكانا من أدباء البلاط عند سيف الدولة ، ويشرفان على خزائن الـكتب فى قصره .

مفاداته دون الثلاثة آلاف الذين كانوا معه فى الأسر ، ومنهم أبو العشائر الحمدانى الذى أسر فى موقعة (تل البطريق) ومات فى الأسر سجينا وابن أخى سيف الدولة محمد بن ناصر الدولة ، وغيرهم كثير من الأسرة الحمدانية .

وقد فك أسر أبى فراس ومن كانوا معه[1] بما أبهظ ابن عمه سيف الدولة، ولما عاد من الأسر سنة خمس وخمسين وثلاثمائة أقطعه سيف الدولة (حمص) بدلا من منبج أو إضافة إليها ، وفى السنة التالية مات سيف الدولة على فراشه[2] ودفن إلى جوار أمه فى مدينة (ميافارقين) وأمسك ابنه أبو المعالى سعدالدولة بزمام الحكم بعد أبيه وكان صغيرا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، فلم يستطع النهوض بالأعباء التى كانت منوطة بأبيه فاستعان بقرعويه غلام أبيه وقائد جيوشه .

وأراد أبو المعالى أن يبسط نفوذه ، وأن يفرد سيطرته على الشام ، ففكر فى استرداد حمص من خاله (أبى فراس) فأرسل جيشا لمحاربته بقيادة قرعوية ، والتقى الطرفان عند صدر على مقربة من حمص ، وهزم أبو فراس ، وتفرق عنه من كانوا معه ، وسقط من على فرسه ، وفصلت رأسه عن جسده ، وورى فى التراب وهو ابن سبعة وثلاثين عاما « فخسر به الحمدانيون رجلا من ألمع رجالهم فى الفروسية والشعر »[3] .

---

(١) ذكر أن فداءه قد تم على يد زوجته « نجلاء » فى الوقت الذى فك فيه أسر الآخرين .

(٢) وأوصى أن توضع رأسه فى قبره على لبنة كان جمعها من نفض غبار غزواته « عن شعر الحرب ص ٣٠٩ » .

(٣) مقدمة الديوان ص ٦ طبعة دار صادر بيروت .

ذكر ابن خالويه أن آخر شعر لأبى فراس قوله عند موته يرثى نفسه مخاطبا إبنته :

أبنيتى لا تحزنى كل الأنام إلى ذهاب
أبنيتى صبراً جميـ ـلاً للجليل من المصاب
نوحى علىّ بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى إذا ناديتنى وعييت عن ردّ الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب !

ولقد شهد له أبو الطيب المتنبى بالتقدم والتبريز ، وكان يخشاه ويتحاشاه ، كما شهد له الصاحب بن عباد وقال : « بدىء الشعر بملك ، وختم بملك » ويعنى بالأول امرىء القيس ، وبالثانى أبى فراس الحمدانى .

أبو فراس شاعر الحماسة والفخر

أبو فراس الحمدانى شاعر وجدانى ، عاش حياته غريبا ، وتغنى فيها بآلامه ، وبكى على حاضره ؛ وشعره ترجمة لحياته التى لخصها فى بيتين من الشعر ، وهما :

جمعت سيوف الهند من كل بلدة وأعددت للهيجاء كل مجالد
وأكثرت للغارات بينى وبينهم بنات البكيريات حول المزاود[1]

وهو يعرف ما لبنى قومه من حقوق فيفتخر بهم قائلا :

(١) بنات البكيريات: أراد بها الخيول، وأهل هذه الكلمة منسوبة إلى البكيرة، وهى ناحية من نجد والمزاود : جمع مزود بالكسر وهو ما يحمل فيه الزاد ، وأراد العلف .

لئنْ خُلِقَ الأنامُ لحسو كأسٍ وَمِزْمارٍ وَطُنْبُورٍ وَعُود
فلم يُخْلَق بنو حَمْدَان إلا لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجود

وكان يتشيع لآل البيت ، وله فيهم ثلاث قصائد من أروع شعره ، قال في إحداها :

يا للرجال ! أما لله مُنْتَصِفٌ من الطُغَاةِ ؟ أما للدينِ منتقمُ ؟
بنو عليٍّ رعايا في ديارِهِمُ وَالأمرُ تَمْلِكُه النسوان والخدمُ

ويمتاز شعره بصدق الاحساس ، وتصوير الواقع ، ومعظمه في شعر الحرب والحماسة ، والشكوى والتألم ، والحنين .

كان أبو فراس يحب الغناء ويطرب له ، فقد دعا سيف الدولة ليسمع غناء أبي عبد الله المنجم ذات مرة وكان أحضره من أجله وأرسل إليه شعرا يدعوه فيه ، فاعتذر إليه سيف الدولة ، وأجابه بهذه الكلمات : « أنا مشغول بقرع الحوافر عن المزاهر » فرد عليه أبو فراس قائلا :

محلُّكَ الجوزاء ، بل أرفعُ وَصَدْرُكَ الدهناء ، بل أوْسَعُ !
وقلبُكَ الرحبُ الذي لم يزل للجِدِّ والهزل ، به مَوْضِعُ
رَفِّهْ بقرع العودِ سَمْعاً ، غدا قرعُ العوالي جلَّ ما يَسْمَعُ

وقال عندما سمع حمامة وهو في أسره تنوح بقربه على شجرة عالية قال :

أقولُ ، وقد ناحتْ بقربي حمامةٌ :
أيا جارَتَا هلْ تَشْعُرِينَ بحالِي ؟
معاذَ الهوى ! ما ذقتِ طارقةَ النوى
ولا خَطَرَتْ مِنْكِ الهمومُ بِبالِي

أتحمِلُ محزونَ الفؤادِ قوادمٌ
على غُصُنٍ نائى المسافةِ عالى(١)
أيا جارتا ، ما أنصفَ الدّهر بيننا !
تعالَىْ أقاسِمْكِ الهمومَ تعالِى !
تعالَىْ ترَىْ روحا لدى ضعيفةً
تردّدُ فى جسْمٍ يُعذّبُ بالِ !
أيضحكُ مأسورٌ وتبكى طليقةٌ
ويسكتُ محزونٌ ويندُبُ سالِى ؟
لقد كنتُ أولى منكِ بالدمعِ مُقْلةً
ولكن دَمْعِى فى الحوادث غالى !

١ - حماسته فى الحروب :

إن أكثر شعر أبى فراس فى الحروب والحماسة، وقسم كبير من شعره الحماسى يتوجه فيه بالحديث إلى نفسه كقصيدته المشهورة (الرائية) التى قالها فى أسره عندما قال له الروم اعتدادا عليه إنه لم يؤسر أحد فبقى عليه ثيابه وفرسه وسلاحه غيره فقال :

أراكَ عصىّ الدمعِ شيمتُك الصبرُ
أما للهوى نهىٌ عليْكَ ولا أمْرُ

وفى هذه القصيدة ينوه بشجاعته من خلال قتاله فى جيش سيف الدولة ، ويتحدث عن حماسته فيقول :

---

(١) القوادم : عشر ريشات هى كبار الريش فى جناح الطائر ، الواحدة قادمة .

وأنى لنزالٌ بكلِّ مخـــــوفةٍ
كثيرٌ إلى نُزَّالها النظرُ الشَّزْرُ(١)

وإنى لجـــرارٌ لكُلِّ كتيبةٍ
مُعَوَّدَةٍ أن لا يُخِلَّ بها النَّصرُ(٢)

فأصدى إلى أن ترتوى البيضُ وَالقَنَا
وأسغَبُ حتى يشبع الذئب وَالنَّسْرُ(٣)

فهو كثير النزول بأرض يخاف فيها لكثرة الأعداء بها ، وكثرة نظراتهم البغيضة ، وهو القائد الشجاع الذى خاض المعارك ، وقاد الكتائب ، وهو البطل الذى لم يقد جيشا إلا كان له النصر والغلبة ، ويظل صديان حتى ترتوى السيوف والرماح ، ويبقى جوعان حتى تشبع الذئاب والنسور من لحوم الأعداء .

ثم قال .

ولا أصبحُ الحىَّ الخَلُوف بغارةٍ
أو الجيشَ مالم تأتِه قبلِيَ النُّذْرُ(٤)

ويا ربَّ دارٍ لم تَخَفْنِي لمنيعةٍ منيعةٍ
طلعتُ عَلَيْهَا بالردى أنا والفجرُ(٥)

---

(١) المخوفة : أى أرض يخاف فيها . الشزر : نظر فيه إعراض .
(٢) يخل بها : يتركها .
(٣) البيض والقنا : السيوف والرماح ، أسغب : أجوع .
(٤) الحى الخلوف : الغائب رجاله .
(٥) دار منيعة : حصينة ، الردى : الهلاك .

وحيٍّ رددتُ الخيلَ حتى مَلَكْتُهُ
هَزِيماً وَرَدَّتْنِي البراقِـعُ وَالْخُمُرُ(١)

وساحبةِ الأذيالِ نحوى لَقِيتُهَا
فلم يَلقَهَا جافِي اللقاءِ ولا وَعْرُ

وهبتُ لها ما حازه الجيشُ كلَّه
ورحتُ ولم يُكْشَفْ لأبياتها سِتْرُ

ولا راحَ يُطْغِينِي بأثوابهِ الغِنَى
ولا باتَ يَثْنِينِي عن الكرمِ الفقرُ

وما حاجَتِي بالمال أبغي وفورَه
إذا لم أَفِرْ عِرْضِي فلا وَفَرَ الوَفْرُ

ففى هذه الأبيات يذكر أبو فراس أدبه فى الحرب ، وحماسته عند القتال فلا يشن الغارة على الأعداء مالم ينذرهم مسبقا، فلا يكون فيها تبييت وترصد، لكنه يثور ويهيج أمام الديار الحصينة فيباغتها بالهلاك مع الفجر ، ويواصل افتخاره بأدبه فى الحروب فيذكر أنه يستولى على الحى ، ولا يسبى نساءه ، فلا يقبل الضيم ، ولا يرضى أن تستغيث به امرأة دون أن يعفو ويصفح عن قومها ، وإنه ليهب لها كل ما حازه الجيش من غير أن يفضح لأهلها بيتا أو يكشف لها سترا ، وهو لا يطغى بما عنده من مال ، ولا يبخل عندما تقل النقود من يده ، فليس محتاجا إلى المال بقدر حرصه على طهارة عرضه ، ونظافة منبته ، ثم يذكر قصة أسره فيقول :

(١) رددت الخيل : رددت فرسان الخيل ، الخمر : الواحد خمار وهو ما تستر به المرأة رأسها .

أسرتُ وما صحبي بعُزْلٍ لدَى الوَغَى
ولا فرس مُهْــــرٌ ولا رَبُّه غمْرُ[١]
ولـكن إذا حُمَّ القضاء على امرىء
فليسَ له برٌّ يَقيــــــــه ولا بحْرُ
وقال أصَيْحَابى : الفرارُ أو الردى
فقلتُ : هما أمران أحلاهما مُرُّ
ولـكننى أمضِى لما لا يعيبُنى
وحسبُك من أمرين : خيرهما الأسْرُ[٢]
يمنون أن خلّوا ثيـابى ، وإنما
علىَّ ثيابٌ من دمائِهِم حُمْرُ
وقائم سيفٍ فيهمُ اندق نصلُه
وأعقابُ رُمْحٍ فيهِمُ حُطم الصدْرُ[٣]

وقد ذكر قصة أسره مع وفرة السلاح لدى أصحابه ، ولم يكن فرسه صغيراً.
ولم يكن أبو فراس نفسه غافلا عن الحروب ، وألقى بمسئولية الأسر على القدر الذى لا يهرب منه أحد ولقد أشار عليه أصحابه بالفرار ، وإلا هلكوا فقال لهم : إن أحلى الأمرين مر وهو الفرار الذى لا يخاف إلا الذل والعار ، وسوف يمر فى طريقه ، ويكفيه فخرا أنه دخل الحروب ، وفضل القتال الذى أعقبه الأسر على الموت وذكر أن الروم لم يجردوه من ثيابه زاعمين أن ذلك تفضل منهم

---

(١) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح له ، المهر : ولد الفرس ، الغمر : من لم يجرب الامور .

(٢) حسبك : كفاك .

(٣) قائم سيف : مقبضه .

مع أن ثيابه حمراء اتلطخها بدمائهم ولقد اندقت فيهم نصال السيوف، وحطمت صدورهم أعقاب الرماح فسالت دمائهم على ثيابه .

وهذه القصيدة من روائع الشعر الحماسى ، وقد قالها الشاعر فى أسره مشيدا فيها بقوة عزيمته وبأسه فى قتال الروم .

وأبو فراس رجل حرب يصبر على النوائب ، ويتفنى بالآلام ، ولا يستسلم للأعداد أو للواقع الذى يفرض نفسه ، ولا ينهار أمام النوازل التى تحيق به وينفض غبار الإنكسار رافعا هامته إلى السماء .

وفى خرشنة التى تحدثنا عنها مع أبى الطيب المتنبى قال أبو فراس هذه الأبيات لما اقتيد إليها أسيرا جريحا قبل أن يحمل إلى القسطنطينية :

إن زرتُ خرشنةَ أسيراً ... فلكم حللتُ بها مغيرا
ولقد رأيتَ النار تنْـ ... تهب المنازلَ وَالقصورَا
ولقد رأيت السَّبْىَ يجْـ ... لَبُ نحونا حُوًّا وَحُورَا[1]
نختارُ منـــه الغادةَ الْـ ... حسناء ، والظبى الغريرَا[2]
إن طالَ ليلِى فى ذرَا ... كِ ، فقد نَعِمْتُ به قصيرا
ولئنْ لقيتُ الحزن فيـ ... كِ فقد لقيت بك السُّرُورَا
ولئن رميتُ بحادثٍ ... فلأُلفَيَنَّ لهُ صَبُورَا
صبراً لعـــلَّ الله يَفْـ ... تحُ هذه فَتْحًا يسيرا[3]

---

(١) الحو : الواحدة حواء وهى التى فى شفتها سمرة مستحسنة ، الحور : الواحدة حوراء ، وهى التى فى عينيها حور ، وهو شدة بياض بياض العين وشـــدة سواد سوادها .

(٢) الغرير : الحسن .

(٣) الإشارة بقوله : « هذه » إلى خرشنة .

من كان مثلى لم يَبِتْ إلا أسيراً أو أميرا

فقد ذكر أنه انتقل بالأسر إلى خرشنة ؛ والتى دخلها كثيرا مهاجما ومغيرا، وعرفنا منازلها وقصورها وسابيا لنسائها ، والآن لقى الحزن بها ، فقد نعم بالسرور فيها، وسوف يصبر على مانزل به من أحداث وخطوب، ولعل الله يبدل الأحوال فتفتح خرشنة ؛ ومن كان مثله فى العزة والشرف والمكانة لم يبت إلا أميرا فى قصره أو أسيرا فى حربه .

٢ — شكواه من القعود :

ذكرت أن أبا فراس قد انتقل إلى سيف الدولة فى حلب فى أول شبابه ، وكان فارسا شجاعا ، ولم يكن ابن عمه يحب أن يدفع به إلى حروب الروم لطولها وشدة الحرب فيها فضلا عن خطورتها ، وقد قال أبو فراس : إنه اشترك فى حرب للروم وعمره تسع عشرة سنة ، وكان سيف الدوله يوجهه لحروب القبائل العربية كبنى كلاب وبنى كعب وبنى قشير وبنى عقيل ، وقيس عيلان .

ولهذا وجدت بالديوان كثيرا من القصائد والمقطوعات عن حروبه مع بنى كلاب وبنى كعب بخاصة وقد كان يشكى فى أول حياته الحربية من قعوده عن حروب الروم قال فيما يرويه ابن خالويه :

« عزم الأمير سيف الدولة على مغاورة بلد ابن شميشيق ، واستخلافى على الشام ، فغاظ على القعود دفعة بعد دفعة ، وتفرده بالوقائع مع نفر من عساكره ، فكتبت إليه :

أشِدَّةُ ما أراهُ منك ، أم كَرَمُ
تجودُ بالنفس ، وَالأرْوَاحُ تُصْطَلَمُ(١)

---

(١) الاصطلام : الاستئصال .

يا بَاذِلَ النفس والأموالِ مُبْتَسِماً
أما يهولُكَ لا موتٌ ولا عَدَمُ ؟
تَفْدِي بنفسك أقواماً صَنَعْتَهُمُ
وكان حقهمُ أنْ يَفْتَدُوكَ هُمُ
تضنُّ بالحرب عنَّا ضَنَّ ذِي بَخَلٍ
ومنك في كل حالٍ يُعْرَفُ الكَرَمُ(١)
لا تَشْغَلَنِّي بأمر الشام أحرُسُه
إن الشآم على من حَلَّه حَرَمُ
فإنَّ للثغر سوراً مِنْ مَهَابَتِه
صُخُورُه من أعادِي أهله قِمَمُ
لا يَحْرِمَنِّي سيفُ الدينِ صحبَتَهُ
فهي الحياةُ التي تَحْيَا بها النَّسَمُ(٢)
وما اعترضتُ عليه في أَوَامِرِه
لكن سألتُ ، ومن عاداته نَعَمُ !

فالشاعر فارس شجاع لم يرد النعيم في الشام وجيوش ابن عمه تقاتل بالروم ، ويذكر أن سيف الدولة يفدي الناس ، وكان حقهم أن يفتدوه ، وهو يضن بالحروب، ولا يشركه فيها مع أنه كريم لم يعرف بالبخل ، ويذكر أن الشام في أمن بمن نزل به ، فقد بنى حوله سور من مهابة سيف الدولة ، والخوف منه ، وهو سور عال،وصخوره من جسوم الأعادي، ثم يطلب من ابن عمه صحبته إلى الحروب لأنها حياة له ، ويرجوه أن يقول : نعم لتكمل سعادته .

---

(١) البخل والبخل والبخل بضم وسكون ثم فتح وسكون ثم فتحتين .
(٢) النسم : جمع نسمة وهي النفس والإنسان .

وربما كان سيف الدولة ـ لثقته فى أبى فراس ـ يبقيه بالشام ليقوم عنه فى إدارة مملكته ، وتصريف أموره ، عندما يزمع على سفر طويل ، وهذا ما كان يحز فى نفس الفارس أبى فراس ، فيقول مشتكيا أيضا من القعود بالشام عندما استخلفه ابن عمه ، وارتحل لقتال بنى بكر بالعراق :

إنى مُنِعتُ من المسير إليكمُ ولو استطعتُ لكُنتُ أولَ وَارِدِ
أشكو ، وهل أشكو جِنايَةَ مُنْعِمٍ غَيْظُ العدوِّ به وكَبتُ الحاسدِ ؟
قد كُنتَ عُدَّتِى التى أسطُو بها وَيَدِى إذا اشتد الزمانُ وساعِدِى
فرُمِيتُ منك بغير ما أمَّلتُهُ والمرء يَشْرَقُ بالزلال البارد
لكن أتتْ دونَ السرور مَسَاءةٌ وَصَلَتْ لها كفُّ القبُولِ بِساعِدِ
فَصَبَرْتُ كالولد التقى ، لِبِرِّهِ أغْضَى على ألمٍ لضرب الوالدِ (١)

فهو يشكو من القعود ، لأنه يَشْرَقُ بالراحة ، ويعد البقاء بالشام إساءة وضربا من ابن عمه له (وهو كوالده) فصبر على ذلك براً به ، وإغضاء عما أصابه من ألم .

وكان الروم قد قدموا إلى الشام فى جيش بلغ الثمانين ألفـا بأسلحتهم وذخيرتهم ، وجمع سيف الدولة ومعه أبو فراس وبقية القواد جيشا لا يزيد على أربعة آلاف ، وزحف الأعداء إلى حلب وانتشروا فى أرجاء الدولة الحمدانية ، فاشتد الذعر والخوف ، ونهض أبو فراس للدفاع عن منبج ، وجمع حوله عددا قليلا من الفرسان ، وكان يدعو الناس للجهاد ، وهو يصيح بالشعر قائلا :

---

(١) الإغضاء : إدناء الجفون .

كيف أرجو الصلاحَ فى أمر قومٍ ضيعوا الحزم فيه أىَّ ضياعِ ؟
فمُطاعُ المقـال غيرُ سَديدٍ وَسَديدُ المقال غير مُطاعِ

وقـد قال هذين البيتين عندما اختلف التدبير فى أمر عسكره ، ولم يقبل ما أشار به قومه فهزم العسكر[١] وكان هذا القتال فى أرض العرب فى الوقعة التى هزم فيها سيف الدولة ، وفر من حلب إلى بالس[٢] .

كان أبو فراس يفرح للخروج إلى القتال ، ويزداد فرحه للظفر والانتصار ، وقد حقق انتصارات كثيرة على القبائل والجيوش العربية التى وجهه إليها سيف الدولة فقال يذكر ظفره ببنى جعفر بن كلاب وصفحه عنهم :

إباءً إباءَ البَـكْرِ غير مُذَلَّلٍ وَعَزْمٌ كحدِّ السيف ، غيرُ مُفَلَّلٍ[٣]
أأُغْضِى على الأمر الذى لا أريدُه ولما يَقُمْ بالعُذْرِ رُمْحِى وَمُنْصُلِى
أَبَى اللهُ ، وَالْمُهرُ المنيعىّ ، وَالقَنَا وأبيضُ وَقّاعٌ على كلِّ مَفْصِلِ[٤]
وفتيانُ صِدْقٍ من غطاريفِ وائلٍ إذا قيلَ رَكْبُ الموتِ قالوا له انزل
يَسُوسُهُمْ بالخير وَالشرِّ ماجدٌ جرورٌ لأذيالِ الخميس الْمُذَيَّلِ
عزوفٌ أنوفٌ ليس يَقْرَعُ سِنَّهُ جَرىءٌ متى يَعْزِمْ على الأمر يَفْعَلِ
شديدٌ على طىِّ المنازل صَبْرُهُ إذا هم لم يظفرْ بأكرمِ منزلِ[٥]
وعدتُ كريمَ البطشِ والعفو ظافراً أُحَدِّثُ عن يوم أغرَّ مُحَجَّلِ

---

(١) انظر الديون ص ١٨١ طبعة دار صادر ، بيروت .
(٢) بالس : مدينة بين حلب والرقة على ضفة الفرات .
(٣) البكر : الفتى من الإبل .
(٤) المهر المنيعى : أى أنه ذو منعة يمنع غير صاحبه من ركوبه .
(٥) طى المنازل : قطعها .

وفى معظم الحروب العربية التى خاضها أبو فراس أو اشترك فيها وتحدث عنها يعلن نصره على الأعداء ثم يشفعه بالعفو عنهم ، والصفح عن مسيئهم ، وقد اكتسب خبرة كبيرة فى هذه المعارك الكبيرة مع جيش الروم إلى جوار سيف الدولة ابن عمه أخته ورائد نضاله ومعقد آماله .

الروميات

الروميات هى قصائد الشعر ، ومقطوعاته التى قالها أبو فراس فى أسره ، وهو بعيد عن أهله ودياره فى أرض الروم، فى هذا الشعر تغنى بآلامه ، وأحزانه، وذكر ما حدث له فى غربته بالقسطنطينية وفى الأشعار السابقة قطع كثيرة من شعره بالروم لكنى هنا أعرض لشعر الغربة عرضا متكاملا ، وإن كان معظم شعر أبى فراس شعر اغتراب ، قاله بعيدا عن وطنه (الشام) .

وقد تعددت الأغراض فى الرميات ففيها حماسة وفخر ، ورثاء ، وإخوانيات . وفيها حنين ووجدان ، وحزن وبكاء وأسى وحسرات . وكان أبو فراس فى الأسر يتابع أخبار قومه ، فيفتخر بهم، وينبههم إلى ما بيّته الروم لهم، ويرثى من مات لسيف الدولة كأخته وابنه ، ويعتب على ابن عمه عتبا شديدا لرده أمه « سخينة » إلى منبج من غير أن يستجيب لها فى مفاداة ابنها أبى فراس ، ويجادل ملك الروم فى حماسة العرب . فشعر الروميات شعر متنوع فيه صدق ومعاناة، وأنين وزفرات، والكثير منه مقطوعات صغيرة لأنه أشبه (بيوميات) للشاعر أو حديث نفسه إلى نفسه بين جدران السجن .

١ — معاناته فى الأسر :

كان الشاعر قد أصيب فى فخذه ، وهو يدافع عن إمارته منبج ، ولما شفى

من الجرح الذى كان سببا فى أسره ، قال هذه الأبيات معزيا نفسه فى جراحاته :

فلا تَصِفَنَّ الحربَ عندى فإنها   طعَامِى مُذْ بِعْتُ الصِّبَا وشرابى
وقد عَرَفَتْ وَقعَ المسامير مُهْجَتى   وَشُقِّقَ عن زُرْقِ النصول إهَابى[1]
وَلَججْتُ فى حُلْو الزمان ومرِّه   وأنفقتُ من عُمْرى بغير حساب[2]

وقد كثرت جراحاته (الحسية والمعنوية) فلم تلتئم ، فراح ينفس عن معاناته بقول الشعر ، قال :

مُصَابى جليلٌ ، والعزاء جميلُ   وَظَنِّى بأن الله سوف يُديلُ[3]
جِرَاحٌ تحامَاها الأَسَاةُ مَخُوفَةٌ   وَسُقْمَانِ : بادٍ منهما ، ودخيلُ[4]
وَأَسْرٌ أقاسيه ، وليلٌ نجومُهُ   أرَى كلَّ شىء غيرَهُنَّ يزولُ
تطولُ بى الساعاتُ وهى قصيرةٌ   وفى كل دهرٍ لا يسُرُّك طولُ !

وهذه الأبيات من قصيدة بعث بها من الروم إلى أمه بمنبج يصبرها . وقد بعث من الأسر برسائل متعددة إلى والدته يشيد فيها بحماسته ، ويفتخر بأرومته فيقول لها فى القصيدة نفسها :

وإن وراءَ السِّتْرِ أماً بكاؤُها   علىَّ ، وإنْ طالَ الزمانُ طويلُ !
فيا أُمَّتَا ، لا تَعْدَمِى الصبر ، إنّهُ   إلى الخير وَالنُّجْحِ القريبِ رسُول !

---

(١) يشير إلى شق جلده لإخراج نصل السهم منه « الديوان ص ٣٣ » .
(٢) لججت : خضت اللجة ، وهى معظم الماء .
(٣) يديل الحال : يغيرها .
(٤) الأساة : الأطباء ، والمفرد « آس » .

ويا أمتا لا تخطىء الأجرَ ! إنهُ　　على قدر الصبر الجميل جزيلُ[(١)]
أمالكِ في ذاتِ النطاقين أسوةٌ　　بمكةَ ، والحرب العوانُ تجولُ[(٢)]
أراد ابنُها أخذَ الأمان فلم تُجبْ　　وتعلمُ علما أنهُ لقتيلُ
وكوني كما كانت بأُحْدٍ صفيةٌ　　ولم يُشْفَ منها بالبكاء غليلُ
ولو رَدَّ يوْمًا حمزةَ الخير حُزْنُها　　إذا ما علَتْها رنّةٌ وعويلُ
لقيتُ نجومَ الأفق وهي صوارمٌ　　وخضتُ سوادَ الليل وهو خيولُ

فالشاعر يصبر أمه ، ويدعوها للتأسي بأسماء بنت أبي بكر ، فقد دفعت ابنها لحرب الحجاج ، ومنعته من أخذ الأمان لما لها من رأى في تجاوزات الحجاج ، وشهدته مصلوبا أمام الكعبة فقالت لابن يوسف في قوة وحماسة : « أما آن لهذا الفارس أن يترجل » ؟؟ ولم تصب أم أبي فراس عند أسره بما أصيبت به ذات النطاقين ، ثم دعا الشاعر أمه للتأسي أيضا بصفية بنت عبد المطلب ، فقد حزنت على أخيها حمزة ، ولم ترده بالحزن والبكاء .

ولأبي فراس شعر كثير ، قاله في الأسر يحن فيه إلى أمه ، ويبعث به إليها في منبج ، ومن هذا الشعر قصيدة حماسية في خمسة وأربعين بيتا قالها عندما بلغه أن أمه « ذهبت من منبج إلى حلب لتكلم سيف الدولة في المفاداة فردها خائبة »[(٣)] .

يا حسرةً ما أكادُ أحملُها　　آخرُها مُزعِجٌ وأولُها

(١) لا تخطىء الأجر : أي لاتدعيه يفوتك .
(٢) ذات النطاقين : هي أسماء بنت أبي بكر ، زوج الزبير بن العوام ، وأم ابنه عبد الله الذي انتشرت دعوته بالحجاز والعراق في القرن الأول الهجري .
(٣) الديوان ص ٢٤١ .

عليلةً بالشـــآمِ مُفْرَدَةٌ بات بأيدي العِدَى مُعَلَّلُها
تسأل عنّا الرّكبانَ جاهدةً بأدمعٍ ما تكاد تُمْهِلُها(١)
يا مَنْ رأى لى بحِصْنِ خَرْشَنَةٍ أُسْدَ شَرًى فى القُيُودِ أَرْجُلُها
يا مَنْ رأى لى الدروبَ شامخةً دونَ لقاء الحبيب أطوَلُها
يا مَنْ رأى لى القيودَ ، موثقةً على حبيب الفؤاد أثقلُها !

ثم ينتقل أبو فراس من الحديث عن لسان أمه إلى الكلام بلسانه ، فيسأل الراحلَيْنِ إذا كانت لديهما رغبة فى حمل نجواه إليها ، فيقول :

يا أيها الراكبان ، هَلْ لَكُما فى حَمْلِ نَجْوَى يَخِفُّ مَحْمَلُها
قولا لها ، إنْ وَعَتْ مقالَكُما وإن ذكرى لها لَيُذْهِلُها(٢)
يا أُمَّتَا ، هــذه منازِلُنا نتركها تارةً ، وَنَنْزِلُها !

ويقول لسيف الدولة :

جاءتْكَ تمتاحُ رَدَّ وَاحِدِها ينتظرُ الناسُ كيف تُقفِلُها(٣)
إن كنت لم تبذُلِ الفداءَ لها فلم أزلْ ، فى رضاك أبذِلُها
أين المعالى التى عُرِفْتَ بها تقولُها ، دائما ، وَتفعَلُها

وذكر أبو فراس فى قصيدة أخرى أنه لولا أمه ما خاف من الموت ، فكان طلبه للحياة من أجلها وكان يدعوها إلى الثقة بالله ، قال :

لولا العجوزُ بمنبجٍ ماخِفْتُ أسبابَ المنيّهْ

---

(١) جاهدة : ملحة بالسؤال .
(٢) وعت : حفظت ، يذهلها : ينسيها .
(٣) تمتاح : تسأل وتطلب ، تقفلها : ترجعها .

ولكانَ لى عما سألـ ـتُ من الفِدَا نفسُ أبيه
ولكنْ أردتُ مرادها ولو انجذبت إلى الدنيه

ويظهر أنها كانت تطلب من أبى فراس أن يرسل إلى ابن عمه بحلب ليطلب منه الإسراع فى المفاداة ، ثم يقول لها موصيا :

يا أمّتا ! لا تحزنى وثقى بفضل الله فيه !
يا أمتا ! لا تيأسى لله ألطافٌ خفيـه
أوصيكِ بالصبر الجميـ ـلِ ! فإنه خيرُ الوصيه

أليست هذه كلها معاناة فى الأسر ؟ أى ألم أكبر من هذا ؟ . . هذه ثمار أو بعض من ثمار الحروب التى جناها الحارث بن سعيد ، وهو يعانيه ويتصبر ، ويأسو جراحه بنفسه . . .

٢ — رسائله إلى سيف الدولة :

لم تتفجر ينابيع المعاناة فى شعر أبى فراس إلى أمه فحسب بل تفجرت أيضا فى رسائله ، إلى سيف الدولة فيقول له فى بائية بلغت خمسة وأربعين بيتا :

وأبطأ عَنِّى ، والمنايا سريعةٌ والموتِ ظُفْرٌ قد أطلّ ونابُ
فإن لم يكُن وُدٌّ قديم نَعُدُّه ولا نَسَبٌ بين الرجال قُرَابُ(١)
فأحوطُ للإسْلامِ أنْ لا يضيّعنِي ولى عَنْكَ فيه حَوْطَةٌ وَمَنَابُ(٢)
وما زالتُ أرضى بالقليلِ محبةً لَدَيْكَ ، وما دونَ الكثيرِ حِجابُ

(١) قراب : بمعنى قريب .
(٢) أحوط : أشد احتياطا .

وقد كنت أخشى الهجرَ وَالشملُ جامِعٌ
وفى كل يومٍ لَقْيَـةٌ وَخِطَابُ
فكيف ، وفيما بيننا مُلْكُ قَيْصَرٍ
وللبحرِ حـولى زَخْرَةٌ وَعُبَابُ ؟
أَمِنْ بعدِ بَذْلِ النفسِ فيما تُرِيدُه
أُثَابُ بِمُرِّ العَتْبِ حين أُثَابُ ؟
فَلَيْتَكَ تَحْلُو ، والحياةُ مريرَةٌ
وليتـك تَرْضَى والأنامُ غِضَـابُ
وليتَ الذى بينى وبينَكَ عامِرٌ
وبينى وبينَ العالمِينَ خَرَابُ

وشعر أبى فراس فى أسره يسيل عذوبة ورقة ، ويعبر عن وجدانه فى صدق ، فلقد اقتيد إلى الأسر ، وترك الأهل والأحباب ، وتخلى عنه الأصدقاء والخلان ، وتأخر عنه أقرب الأقربين ، فأخذ يشتكى ، ويستعطف ، ويذكر ابن عمه بأواصر القرابة ، وحقوق الاسلام ويعلن رضاه (مؤقتا) بواقعه ، ويكفيه أن يرضى عنه ابن عمه حتى ولو غضب منه كل الخلق .

وفى نهاية هذه الأبيات يبلغ أقصى درجات الاستعطاف بهذا الشعر الذى كانت تردده رابعة العدوية حتى ظن الناس أنه لها .

وقد كثرت أشعاره إلى سيف الدولة وهى فى الاستعطاف والعتاب وطلب المفاداة والنصح الحربى .

وفى قصيدة طويلة كتبها إلى ابن عمه عرفه فيها بخروج الروم إلى الشام ،

وحذره منهم ، ودعاه إلى التصدى لهم ، وهى من القصائد الحماسية المتوهجة ، قال فى بعض أبياتها :

إنى أغارُ على مكانى أنْ أرى ... فيه رجالا لا تَسُدُّ مكانى
أو أن تكون وقيعةٌ ، أو غارَةٌ ... مالى بها أثرٌ مع الفِتْيان
هذى الجيوشُ تجيشُ نحو بلادِكُمْ ... محفُوفَةً بالـكُفْرِ وَالصُّلْبَان
البغىُ أكثرُ ما تُقِلُّ خيولُهُمْ ... والبغىُ شرُّ مُصَاحبِ الإنسانِ
حتَّى كأنَّ الوحىَ فيكُمْ منزلٌ ... ولـكم تُخَصُّ فضائلُ القرآن

وهو يرى أن حروب قومه حروب، ضد الـكفر ، حتى ترتفع راية الإسلام، ولهذا يواصيهم بالاستعداد وأخذ الأهبة ليدفعوا عن بلادهم شر البغى والـكفر والعدوان

ويضنيه الأسر فيبكى ، ويملأ الحب قلبه ، فيشتكى ويتوجع :

أبى غربُ هذا الدمعِ إلا تسَرُّعا
ومكنون هذا الحبِّ إلا تضَوُّعا(١)

وأشعار أبى فراس إلى سيف الدولة كلها إشادة بحماسته ، وانتصاراته على الروم والعرب فى المعارك الـكثيرة التى خاضها ، وانتصر فيها ، أو استعطاف لفدائه من الأسر ، أو فخر بقبيلته بنى حمدان

٣ — شعره عن حماسة قومه

لم تنقطع صلة أبى فراس بقومه أثناء الأسر ، فـكان يتابع أخبارهم ، ويتحدث

(١) غرب الدمع : سيلانه ، تضوعا : تحركا وانتشارا وفوحا .

إليهم بشعره حديثا متصلا ومتنوعا ، فيفتخر بهم ، ويشيد بحماستهم ، وينبههم إلى مكر الأعداء وخبثهم ، ولا أدرى كيف تمكن أبو فراس من متابعة كل ما يجرى فى مملكة بنى حمدان بالشام ، وكيف استطاع معرفة مخططات الأعداء واستعدادهم للهجوم على قومه ، فى وقت لم تكن فيه اتصالات سلكية أو لاسلكية ، اللهم إلا إذا كان لهذا الفارس أحباب كثيرون فى أرض الروم يخبرونه بكل ما يجرى فى الدولة البيزنطية ، ويزودونه أيضا بكل ما يصل إليهم من أخبار العرب .

ولكثرة الحروب بين الأمتين ازداد تداخلهم فى بعض فكان العرب يعرفون ما يدور فى فكر الروم وما يخططون له ، ولقد تزوج سيف الدولة منهم ، وربما يكون غيره قد فعل مثله ، وكثير من أسرى الروم يباعون فى أسواق خاصة ، وينتشرون بعد الشراء كأرقاء فى سائر البلاد الاسلامية ، ومنهم من حقق شهرة كبيرة فى مجال الأدب والتأليف فى العصر العباسى الثانى[١] كما انتقل كثير من المسلمين نتيجة للحروب أو التجارة أو غيرها إلى بلاد الروم ، فعاشوا فيها ، وتنقلوا بين أرجائها وظلوا على إسلامهم ، وخدموا الدين بذلك ، فبنوا بعض المساجد فى أماكن مختلفة من أرض الروم ، وقد وُجدت آثار إسلامية وعربية كثيرة فى هذه المواضع ، مما يؤكد الوجود الفعلى والمؤثر للمسلمين ببلاد الروم حتى ولو كانوا أسرى حرب .

وكان الروم يعاملون أبا فراس معاملة خاصة ، فقد أبقوا عليه بعد أسره سلاحه وملابسه ، وأبقوا على فرسه معه ، فانتقل إليهم فى صورة الأمير لا الأسير ، وكانوا يستدعونه للمحادثة والمناظرة أو للإيقاع بينه وبين سيف الدولة ، فهم

(١) مثل ياقوت الحموى « الرومى » صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان .

يعرفون مكانته فى قومه ، ومنزلته عند ابن عمه ، فضلا عن موهبته الشعرية المؤثرة ، وجرأته التى لا تبارى فى معمعة القتال ، أو أنهم كانوا يعاملونه هذه المعاملة إكراما لأمه التى كانت فى الأصل بيزنطية ، ألم يقل فى شعره :

أقمت بأرض الرُّومِ عامين لا أرَى
من الناس محزُوناً ولا مُتَصنعا
إذا خِفْتَ من أخوالىَ الرُّومِ خُطةً
تخوّفْتُ من أعمامِىَ العُرْبِ أرْبَعَا
وإن أوْجَعَتْنِى من أعادىّ شيمةٌ
لَقِيتُ من الأحبابِ أدْهَى وَأوْجَعَا

وهذا الشعر يعبر فيه أبو فراس عن حالة من اليأس قد ألمت به فى ظل ظروف خاصة لكننا نجده فى كثير من شعره بالروم يشيد بحماسة قومه ، وبسالتهم فى قتال الأعداء ، وتفننهم فى الحروب من خلال مناظرة بينة وبين الدمستق قائد الروم الذى قال له : « إنما أنتم كتاب لا تعرفون الحرب » فرد عليه أبو فراس قائلا : « نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام » ؟[1] فقال :

أتزعُمُ ، يا ضخمَ اللغاديدِ ، أننا
ونحنُ أسود الحرب ، لا نَعرف الحربا ![2]
فويلك مَنْ للحربِ إن لَمْ نكن لها ؟
ومن ذا الذى يُمْسِى وَيُضْحِى لها تِرْبا

---

(١) الديوان ص ٤٢ .

(٢) اللغاديد : المفرد لغدود ، وهو لحم الحلق ، وكان الروم ذا أعناق ضخام .

ومن ذا يلُفُّ الجيشَ من جنباته ؟
ومن ذا يقودُ الشُمَّ أو يَصْدِمُ القَلْبا[1]
وَوَيلكَ من أردى أخاكَ بمَرْعَشٍ ؟
وجلل ضَرْباً وَجْهَ والدِكَ العَضْبا[2]
وويلكَ من خلى ابن أختك موثقاً ؟
وخلاّكَ باللُّقَّان تَبتَدِرُ الشِّعْبا[3]
أتوعِدُنا بالحَرْبِ حتّى كأنَّنا
وإياكَ لم يُعْصَبْ بها قلبُنا عَصْبا
لقد جَمَعَتْنا الحربُ من قبل هذه
فكنا بها أُسْداً وكنت بها كَلْبا

ويتجلى فى هذه الأبيات فخر أبى فراس بقومه ، وإشادته بحماستهم فى القتال مع الروم ، فهم أسود وأهل حروب ، وهم يطوقون الجيوش ، ويأسرون العظام ، ويصدمون قلب الجيش ، وهم الذين ضربوا أخ الدمستق بمرعش ، وغطت سيوفهم وجوه والده ، وقيدوا ابن أخته ، وجعلوا الدمستق نفسه يهرب فى شعاب الجبال ، ثم سخر منه لوعيده لهم بالقتال كأنهم لم يعرفوها مع أنهم تمرسوها ، والتقوا مع الروم قبل الواقعة الأخيرة التى أسر فيها أبو فراس ، وكانوا أسودا شجعانا ، وكان الروم ضعافا جبناء ، ويذكر أبو فراس فى مقدرة عجيبة أسماء الأسرى والأبطال البيزنطيين الذين أذاقهم بنو حمدان مرارة الحرب تنكيلا ، وأسرا ، وقتلا بأسلوب لا يستطيع معه

---

(١) يلف : يطوق ، الشم : أعاظم الرجال ، القلب : المراد قلب الجيش .

(٢) مرعش : اسم موضع بالروم ، العضب : السيف .

(٣) اللقان : جبل بالروم وراء خرشنة .

الدمستق أن يرفع رأسه ، ويدعى معرفتهم بالحرب ، وجهل العرب بها ، وقد سجل أبو فراس حماسة الأبطال فى كثير من رومياته فى مقام الفخر والحماسة والاعتزاز .

الشعر الملحمى

لأبى فراس قصيدة طويلة فيها بعض خصائص الشعر الملحمى شكلا ومضمونا ، فأبياتها مائتان وستة وعشرون ، وموضوعها هو الحماسة والفخر . ولم يذكر راوى الديوان المناسبة أو الزمن الذى قيلت فيه هذه القصيدة ، ويبدو أنها من نتاج الشاعر فى سنواته الأخيرة فلعله يكون قد قالها فى أسره أو بعد عودته إلى موطنه ، لأن الفن الشعرى عند أبى فراس قد بلغ أقصى درجة له فى هذه القصيدة الملحمية ، فقد جمع فيها خلاصة كل ما يريد أن يقوله عن نفسه ، وعن قبيلته (بنى حمدان) .

وقد رأيت أن حياة أبى فراس فى شعره ، وشعره كله فى هذه القصيدة .

ونرجع إلى القصيدة فنجد أن مطلعها غير ملحمى إذ أنه بدأها بالغزل على عادة الشعراء المتقدمين ، فهى تبدأ بقوله :

لعلَّ خيالَ العامرية زائرُ
فَيُسْعَدَ مهجور ، وَيُسْعَدَ هاجرُ !

وقد طالت هذه المقدمة (الغزلية) حتى زادت عن الثلاثين بيتا ، ثم انتقل الشاعر كعادة القدامى أيضا إلى وصف الناقة ، وتخلص إلى الموضوع الرئيسى وافتخر ، بفروسيته وشجاعته فى الحروب ، وافتخر بقومه ، وبسيف الدولة ، وبناصر الدولة فقال :

ففينـا لدين الله عِزٌّ وَمَنْعَةٌ
وفينـا لدين الله سيفٌ وناصِرُ

ويذكر شجاعته مع سيف الدولة فى قتال الروم فيقول :

وَجُبْنَ بلاد الرُّومِ ستين ليلةً
نغاور مُلْكَ الرُّوم ، فيمن نُغاوِرُ
تخِرُّ لهـا تلك المعـاقل سُجَّداً
وَتَرْمِى لنا بالأهل تلك المطامِرُ
وما زال منا جار خرْشنة امرؤ
يراوحُهـا فى غارةٍ وَيُبـاكِر

ويقول عن قتال سيف الدولة للقبائل العربية :

وَأجْـلَى إلى الجولان كلباً وَطَيِّئاً
وَأقْفَـرَ عجبٌ منهُمُ وأشاعِرُ(١)
وآب ورأسُ القرمطى أمامَـهُ
له جسدٌ من أكْعُبِ الرمح ضامِرُ

ويشير إلى انتصارات سيف الدولة فى ارض فارس ، ثم يعاود الافتخار بقومه ، ويذكرهم واحدا واحدا ، مشيرا إلى جهدهم وشجاعتهم فى قتال الأعداء ، ثم ينتهى من ملحمته أو من هـذه الرائية الطويلة التى جمع فيها حماسته وحماسة ابن عمه سيف الدولة ، وحماسة آل حمدان جميعا ثم ينتهى فيها إلى قوله فى آخرها :

---

(١) الجولان وعجب وأشاعر . أمـكنة بالشام .

نطقتُ بفَضْلِي ، وامتدحتُ عشيرتى
وما أنا مَدَّاحٌ ، ولا أنا شاعِرُ
وهلْ تُجْحَدُ الشمسُ المنيرةُ ضوءها
ويُسْتَرُ نُور البَدْرِ ، والبدرُ زاهِرُ ؟

ومن يدرس هذه الرائية الحماسية الطويلة نسوف يجد أبا فراس قد أجمل حروب قبيلته ، وجمعها من غير تفصيل ، وافتخر بقومه ، وأشاد بانتصاراتهم على الروم والعرب جميعا .

إن الحماسة فى شعر أبى فراس قبل أسره تتجه إلى شخصه ، وإلى ابن عمه سيف الدولة ، وإلى أبناء عمومته جميعا فى قتالهم للروم ، وللقبائل العربية ، ثم يتحول المضمون الشعرى بعد وأثناء فترة الأسر (أى فى شعر الروميات) إلى مضامين جديدة ، فيشيد بحماسته ، ويذكر مقاومته للأعداء ، ويصف الأسر وما جرى فيه ، ويكثر من حديثه عنه ، ويدعو الحساد والشامتين إلى التمهل والانتظار والترقب لما ستأتى به الأيام فحماسته قبل الأسر تتحول إلى وصف للأسر ذاته فى الروميات والحديث عن حروب قومه يتحول كذلك إلى فخر بهم وإشادة بحماستهم ، أما حديثه عن حماسة ابن عمه سيف الدولة فقد تحول إلى استعطاف له ، واعتذار عما يكون قد بدا منه حتى ينهى له مسألة الافتداء لأن الأسر مر المذاق كطعم العلقم خاصة إذا كان لفارس بطل تعود أن يخوض المعارك ويحقق الانتصارات ، ويعدو فى ساحة القتال ويرجع بالأسرى ويعفو عن النساء ويرضى لشفاعتهم ، ويسجل لقومه الانتصارات ، ولدينه المجد والازدهار .

وكم عز على شاعر بنى حمدان أن يبكى ، وكان من حقه أن يزأر ، وقد عاد

من أسره مهموماً ، ثم استقبل بالحزن واللوعة بعد الفرح والسرور لأن ابن عمه وسبب مجده وزوج أخته كان مريضاً ، ثم وجد بنى حمدان قد انقسموا شيعاً وأحزاباً ، وما لبث أن مات سيف الدولة ، واختفى أكبر ضوء فيهم ، وانفرط عقد دولتهم ، وأخذوا يتقاتلون فيما بينهم لتحقيق أطماع رخيصة فضعفت قوتهم ، وزالت مع الأيام دولتهم وأسدل الستار فى حلب على أعظم شعاع كان ينبعث منه الأدب والمجد فى القرن الرابع الهجرى .

الفصل الخامس

شعر الحماسة بين المتنبي وأبي فراس

كان أبو الطيب وأبو فراس يلتقيان في مجالس سيف الدولة بحلب ، ويلتقيان أيضاً في ساحة القتال مع الروم أو مع العرب ، ولم يكن الشاعران على وفاق تام في المدة التي التقيا فيها عند أمير بني حمدان ، وكان أبو الطيب متعالياً على من معه من الشعراء ، وقد كان يرى أنهم دونه بكثير ، ثم أطلق عليهم ألقاباً تدل على تحقيره لهم ، وإهانته لعطائهم الفني ، وكان أبو فراس كما يحدثنا التاريخ من جملة الحساد الذين نقموا على أبي الطيب لما وصل إليه من شرف ومجد عند سيف الدولة ، بل كان ينتقد ابن عمه على شدة إعجابه وكثرة ترحابه بالمتنبي .

وقد اشترك كلا الشاعرين في معارك الروم والعرب ؛ وذاقا بهما من حلاوة ومرارة ، وكلاهما قد وصف هذه الحروب ، وأشاد بحماسة سيف الدولة ، وتغنى بانتصار العرب في شعر قوى مطبوع غير متكلف مما جعلهما يسدلان ستاراً من النسيان على من عاصرهما من الشعراء ، وكان غيرهما من شعراء سيف الدولة يقول الشعر له تكسباً وارتزاقاً ، فكأن الحماسة عند هؤلاء الشعراء لم تكن طبيعية أصيلة بل كانت متكلفة ومصطنعة ، ولهذا استحوذ أبو الطيب وأبو فراس على إعجاب متذوقي الأدب في عصرهما وما تلاه من عصور على تفاوت بين الرجلين في القدرة والموهبة والتعبير والعطاء وفي أمور كثيرة سوف نعرض لها .

على أن شعرهما يعد مصدراً مهماً في التاريخ السياسي والعسكري ، وإن كنا

فتحفظ كثيرا فى هذه الناحية ، ولا نريد أن نفرط فى الثقة بالشعر من ناحية دوره فى هذا الجانب لاعتماده على الخيال والعاطفة ، وقد سبقت الإشارة إلى هذه المسألة،وأردنا معاودة التنبيه إليها حتى تتأكد هذه الحقيقة لكل قارىء .

وقد فرضت بطولة سيف الدولة على هذين الشاعرين وغيرهما أن يتغنيا بهذه البطولة، ويشيدا بها من خلال القصائد الطويلة ، والمقطوعات القصيرة ، بالألفاظ البدوية الجزلة أو بالألفاظ الرقيقة المنسابة كل ذلك من خلال الشعر الحماسى الذى اتخذ طابعا مميزا عند المتنبى وأبى فراس (الحارث بن سعيد) . ومن خلال الفنون الأخرى التى امتزجت بالفن الحماسى كالمدح والفخر وغيرها .

ولا سبيل إلى الموازنة بين هذين الشاعرين فإن المتنبى شاعر عظيم ، يتفوق على أبى فراس تفوقا كبيرا من حيث المعانى والأسلوب، وديباجة اللغة، ولا يقاس أبو فراس بالمتنبى من حيث الشعر الحماسى الذى يعد فيه أبو الطيب رائدا وأميرا، وقد ذكرت ذلك حتى لا تفهم الموازنة على أنها تؤدى معنى التقارب بينهما من حيث الشعر بالذات ، فإذا كان أبو فراس فارسا حربيا ومقاتلا بارزا ، وشجاعا متفوقا على أبى الطيب فى هذه الناحية ، فإن المتنبى يتفوق كثيرا جدا على أبى فراس فى الشعر الحماسى فضلا عن الموهبة الشعرية ، وكان هو الآخر مقاتلا على قدر كبير من الذكاء الحربى ، مع أن فارس بنى حمدان كان شاعرا متقدما على الكثيرين من الدولة ، وكان ينقد شعره ، ويبين وجوه الضعف فيه ، ويكشف سرقاته وإغاراته على شعر السابقين ، وكان المتنبى أثناء وجوده فى حلب شاعر سيف الدولة وكان أبو فراس مكملا ومتمما لدور المتنبى ، والموازنة هنا بين الرجلين فى شعر الحماسة شكلا ومضمونا ، وليست الموازنة بينهما من حيث المنزلة والمكانة والمستوى الفنى فقد كان أبو الطيب بارزا ومتفوقا فى كل ذلك .

والشعر الحماسى عند المتنبى يتجه فى موضوعه (غالبا) إلى شخص واحد ،

وهو سيف الدولة الحمدانى ، ولا يكاد يتعداه إلا قليلا ، فهو يمدحه ، ويشيد بحماسته ، ويصف حروبه ، ويتغنى بانتصاراته قال له :

ألقت إليك دماء الرُّوم طاعتها   فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

وقال :

بالجيش تمتنع السادات كلهم   والجيش بابن أبى الهيجاء يمتنع

وقد تحدث فى ميمية له عن موقعة الحدث الحمراء ، وهى مثال للشعر الحربى الخالص الذى لا يختلط بغيره ، وله أشعار حماسية كثيرة عن سيف الدولة .

أما شعر الحماسة عند أبى فراس فموزع على أطواف متعددة كأبى فراس نفسه ، وسيف الدولة ، وقبيلة بنى حمدان بكل أبطالها وشجعانها المغاوير ، وتعد الرائية الطويلة التى تبدأ بقوله :

لعلَّ خيال العامرية زائر   فَيُسْعَدَ مهجور ، وَيُسْعد هاجرُ !

ممثلة لمذهب أبى فراس فى شعره الحماسى ذى الصبغة الملحمية .

ولكنه أجمل الحديث فيها لأنها ترجمة لحياته القبلية والحربية بينما تسطه فى الرومية التى ناظر فيها الدمستق .

يعالج شعر المتنبى حروب سيف الدولة موقعة بعد أخرى ، وقد يذكر فى الموقعة الواحدة أكثر من قصيدة ، وقد يتحدث فى القصيدة الواحدة عن عدة حروب ومعارك متوالية ، أما أبو فراس فنراه يتحدث عن شجاعته ، ويفتخر بقبيلته ، ويشيد بحماسة سيف الدولة فخرا وإشادة من غير تفصيل لمعاركه مع الأعداء والخصوم على نحو ما رأينا فى شعره عن معارك خرشنة والحدث ومرعش وغيرها . ومن قوله عن سيف الدولة :

قد ضج جيشُك من طول القتال به
وقد شكتك إلينا الخيل والإبل
وقد درى الرُّوم مذ جاورت أرضهمُ
أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل
فى كل يوم تزور الثغر ، لا ضجرٌ
يثنيك عنه ، ولا شُغلٌ ولا مَلَلُ
توهمتك كلابٌ غير قاصدها
وقد تكنفك الأعداء والشُّغُلُ
حتى رأوك ، أمام الجيش ، تقدمه
وقد طلعت عليهم دون ما أملوا

ومعظم الشعر الحماسى عند المتنبى ينصرف إلى حروب سيف الدولة مع الروم مع أن له عددا من القصائد فى حروب القبائل العربية إلا أن الرجل كان كارها وباغضا للعجم مشفقا على العرب ، وكان حديثه عن قتال سيف الدولة لهم فيه مودة ولين وترفق قال لأميره عن بنى كلاب :

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجانى عتاب

بينما نجد معظم الشعر الحماسى عند أبى فراس يتناول حروب سيف الدولة مع القبائل العربية المجاورة ، والقليل من شعره الحماسى عن حروب الروم هذا غير الروميات فإن لها طابعا خاصا ، وكان الكثير منها عبارة عن شكوى وأنين وعتاب وحنين إلى قومه ، والباقى موزع بين جدال مع الروم ، وأمنيات بالنصر عليهم حتى وهو فى أرضهم ، ويبدو أن الملكه الشعرية لم تكن قد استوت ونضجت عنده فى الزمن الذى كان فيه سيف الدولة يحقق الانتصارات العظيمة على الروم ، أو أن معظم الحروب التى اشترك فيها مع ابن عمه ، أو التى انفرد

فيها بالقتال كانت مع العرب ، ولم يكن يقدر على إشادة بانتصارات لم يشهدها ، أو وصف معارك لم يشارك فيها وقد تتبعت شعره فى الديوان قصيدة قصيدة ومقطوعة مقطوعة ، ووجدته يتحدث عن قتال بنى حمدان للقبائل العربية المتمردة كقيس ، وبنى كعب ، وبنى كلاب ، وقيس عيلان ، ربيعة ، وبنى نمير وله فى هذه القبائل عشرات القصائد والمقطوعات .

ومن ذلك قوله :

ولما أن طغت سفهاء كعب   فتحنا بيننا للحرب بابا
منحناها الحرائب غير أنا   إذا جارت منحناها الحرابا[1]
ولما ثار سيف الدولة ثرنا   كما هيجت آسادا غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا   صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات   فكنا عند دعوته الجوابا

فقد افتخر بقومه ، وذكر إيقاف سيف الدولة بنى كلاب فى قصيدة حماسية رائعة .

يأتى الشعر الحماسى عند المتنبى فنا مستقلا قائما بذاته ، فيذكر القصيدة من أولها إلى آخرها عند الحرب أو عن موقعة معينة ، أو يأتى هذا الشعر من خلال المدح الذى أكثر فيه ، وأخلص له ، وقد أجاد فى مدح سيف الدولة بالحماسة والشجاعة والبطولة ، وربما جاء الشعر الحماسى عنده ممزوجا بالفخر قليلا ، وبخاصة عندما يريد الفخر بشجاعته وبطولته فيقتطع من القصيدة أبيات قليلة يختص بها نفسه .

---

(١) الحرائب : الواحدة حريبة ، وهى مايعتاش به من المال ، الحراب : النصال الواحدة حربة .

وإذا كان أبو الطيب قد بز أبا فراس ، وتفوق عليه فى الشعر بوجه عام فإنه قد تفوق عليه أيضا فى القصائد الحماسية بصفة خاصة ، ولا حرج إذا قلنا إن المتنبى قد فاق شعراء العربية أجمعين فى هذا الفن لاعتبارات كثيرة .

فهو أمير لشعراء المديح الحربى والحماسة والخيل وغيرها، وقد اعترف بقدرته الشعرية المتقدمون والمتأخرون على السواء ، وتمكن بهذه القدرات ، وبهذا الشعر المتوهج من توجيه الأنظار والأسماع إلى بيئة حلب ، وإلى مجالس سيف الدولة ، وإلى تسطير هذه الحروب فى كتب الأدب والتاريخ والحضارة ، غير أن هذا التفوق ، وهذه الميزات لا يمكن أن تكون سببا فى حجب أبى فراس ، ودفنه فى وادى النسيان ، فقد اهتم هو الآخر بالشعر الحربى ، وجاء الفن الحماسى عنده قائما ومستقلا كأحد الفنون الشعرية ، كما جاء من خلال فنون أخرى كالفخر والإخوانيات أى القصائد التى بعث بها إلى إخوته ، وأبناء عمومته عندما كان أسيرا فى أرض الروم أو عندما كان حرا طليقا فى مملكة الحمدانيين .

والإخوانيات فى شعر أبى فراس كثيرة نتيجة لابتعاده عن أهله ، وبقائه فى الأسر مدة طويلة ، ولهذا برز فى رسائل الشعر الإخوانية التى كان يتحدث فيها عن نفسه ، فيقول مخاطبا ابن عمه :

يا ضارب الجيش بى فى وسط مفرقه
لقد ضربت بعين الصارم العَضْبِ[1]
حتّى تقول لك الأعداء راغمةً
أضحى ابن عمك فارس العرب

---

(١) العضب : السيف القاطع .

ولقد كثر الشعر الحماسي عنده ، وانتشر معظمه بين الفنون المتعددة ، ولهذا يصعب على القارىء أن يجمع شعره الحماسي عنده ، ويجعله مستقلا قائما بذاته في ديوان خاص به بينما يمكن جمع الشعر الحماسي عند أبي الطيب ، وجعله في ديوان خاص به .

فالمتنبي شاعر حرب ومعارك وحماسة ، وبسالة ، ومن يقرأ أشعاره في ذلك يراه شاعرا فريدا مطبوعا في قول الشعر كأنه (محترف) أو ولد شاعرا .

وأبو فراس شاعر وجداني يغني للحرب، ويطرب لقرع القنا للقنا ، ويغوص في عمق الإحساسات الوجدانية ، وعندما ينتصر يعفو ولا يشمت، ويحب فلا يحقد ويعبر عن مجده ، ومجد قبيلته . فهو ينشد أشعاره الحماسية كأنه (هاو) وعاشق وليس متشفيا أو مفتقيا .

عاش المتنبي رافعا رأسه ، متعاليا ، متعاظما ، شجاعا غير هياب ، يبحث عن المجد ، ويعاند الشعراء ، ويصاحب الملوك ، ويقود الثورات ، ويخرج من معركة ليدخل في أخرى ، ومعاركه متنوعة ، وتنقلاته بحثا عن الثروة والمجد والجاه كثيرة جدا ، وقد تغرب ، وأمعن في الاغتراب بعيدا عن وطنه ومحل مولده (السكوفة) ورأى أن الساحة العربية هي وطنه الأكبر .

أما أبو فراس فقد تربى يتيما ، وشارك في أعباء قبيلته صغيرا ، وعاش حزينا ، وقضى أقوى سنوات حياته في الأسر يبكي الغربة ، ويشتاق لأهله ، ويحزن لهزيمتهم ، فكان أبو الطيب كلاسيكيا جبارا ، وكان أبو فراس رومانسيا ملتاعا . وعاش حياته ضعيفا أمام المرأة ، فقد أحبها ، وأعلن انهزامه أمامها فعندما ينتصر في موقعة من المواقع الكثيرة التي تفوق فيها ، ويجمع الأسلاب والغنائم ويوشك على الرحيل فتتقدم منه امرأة أي امرأة طالبة الشفاعة لقومها فيتنازل بهذه الشفاعة عن كل ما جمعه الجيش حتى لو غضب جنوده بهذا التصرف

ولقد وجدته يذكر ذلك فى أكثر القصائد الحماسية التى ذكر فيها قتاله لخصومه من العرب، وربما يكون ضعفه أمام المرأة لحبه لها، ولتعلقه بها إذ أنه أحب أمه وأسرف فى تعلقه بها ، فقد نشأ فى أحضانها بعد مقتل والده ، ولهذا كانت حبه الأوحد، ثم أحب زوجته وابنته ؛ وتوهج حبهن جميعا فى وجدانه وقلبه عندما كان أسيرا فى الروم ، وله أشعار كثيرة يناجى فيها أمه مناجاة خاصة من أرض الأعداء ، فهو يصبرها بعد أسره ويقول لها :

مصابى جليل ، والعزاء جميل وظنى بأن الله سوف يديل(١)
وأسر أقاسيه ، وليل نجومه أرى كل شىء غيرهن يزول
تطول بى الساعات وهى قصيرة وفى كل دهر لا يسرك طول !

ثم تملكه الحزن، وفاضت شجونه ، وسالت دموعه عندما بلغه نبأ وفاتها وهو فى الأسر فرثاها رثاء حارا ممضا باكيا ، فقال :

أيا أم الأسير ، سقاك غيث بكره منك ما لقى الأسير
إذا ابنك سار فى بر وبحر فمن يدعو له ، أو يستجير ؟
وقد ذقت الرزايا والمنايا ولا ولد لديك ولا عشير
وغاب حبيب قلبك عن مكان ملائكة السماء به حضور
أيا أماه ، كم سر مصون بقلبك ، مات ليس له ظهور
إلى من أشتكى ؟ ولمن أناجى إذا ضاقت بما فيها الصدور

أما أبو الطيب فلم يذكر بيتا واحدا فى شعره عن أمه ، ربما لأنها ماتت، وهو صغير، وربما لأشياء أخرى نجهلها ، وإن كان له قصيدة فى رثاء جدته

---

(١) يديل هذه الحال : يغيرها .

عندما ماتت وهو شاب كبير ، وكان يدعوها بأمه فقال يرثيها :

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذما
فما بطشها جهلا ، ولا كفها حلما
أتاها كتابى من بعد يأس وترحة
فماتت سروراً بى فت بها غما[1]

ثم ينتقل وهو يرثيها إلى الفخر الحماسى فيقول :

فأصبحت استسقى الغمام لقبرها
وقد كنت استسقى الوغى والقنا الصُّمَّا[2]

ويقول :

وإنى لمن قوم كأن نفوسنا
بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما[3]

وهكذا نرى كيف انحرف الرجل عن رثاء جدته إلى الحماسة والفخر .

فأبو فراس بإحساسه ووجدانه ، وطبيعة تكوينه وظروف حياته أقدر على تصوير الحزن ، ورثاء الأم ، ومناجاة الإخوان ، وشكوى الغربة

وكان مؤمنا تقيا يميل بقلبه ووجدانه إلى الشيعة ، ويرجع السبب فى انتصاراته وانكساراته إلى قضاء الله وقدره ، وليس هذا فى موقعة واحدة فقط أو فى قصيدة أو مقطوعة واحدة فحسب بل فى القصائد ذوات العدد لكن المتنبى كان مشغولا بنفسه منصرفا إلى أمله وطموحاته على حساب أشياء أخرى ، ومنها

---

(١) ترحة : حزن

(٢) القنا : الرماح ، الصم : الصلاب .

(٣) أى من طبيعتهم الحرب دائما ليموتوا فيها

بالطبع الفكر والعقيدة ، مع أننا قرأنا له شعرا يمتدح فيه سيف الدولة ويجعله يقاتل باسم الاسلام دعاة الشرك ، ويحارب ضد الروم من أجل التوحيد ورفع راية الإسلام .

وقد تفوق أبو الطيب ـ كما ذكرت وأكدت ـ فى الشعر بوجه عام وفى المديح وشعر الحرب ووصف الخيل بوجه خاص ، وجاءت الألفاظ فى شعر الحماسة خاصة قوية جزلة ، وضخمة وذات جرس ، وقد أجاد فى صناعته اللفظية ، وقوة سبكه للعبارات ، وخلق الصور المعنوية باقتدار وابتداع ، وعاطفته صادقة وعميقة وخياله رائع ، وصوره جميلة ، والمعانى عنده بعيدة الغور ، بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن معانيه فريدة ، ولا يقدر شاعر على مجاراته فى الأساليب والتعابير البارعة ، والأخيلة الجذابة الوثابة ، والمعانى الرائعة ، والسبك القوى فكان بحق فى سيمفونياته الحماسية شاعرا عظيم الشعر .

وفى هذا اللون الشعرى نجد الحكمة والفلسفة ، والأمثال الرائعة التى كانت نتيجة لما حصله أبو الطيب من علوم مترجمة عن الأمم الأخرى ، فقد كثرت الحكمة عنده ـ ومزج معانيه بروح فلسفية ، واستعان بعقله وتفكيره المنطقى فى توليد المعانى الخاصة بالحرب ووصف الخيل ، ومدح سيف الدولة .

وقد امتاز بالمبالغة فى المعانى إلى درجة قد تصل إلى الغلو المسرف أحيانا فقد قال لسيف الدولة :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب أعلم

وقال عنه :

تعدو المنايا فلا تنفك واقفة   حتى يقول لها عودى فتندفع

وقال :

نظل ملوك الأرض خاشعة له تفارقه هلكى وتلقاه سجدا

وقال :

وصُول إلى المستصعبات بخيله فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

فمن يقرأ هذا الشعر فلا يشك لحظة واحدة فى أنه المتنبى أمير الشعر فى عصره، ورائد الحماسة فى كل العصور (وحتى الآن) من غير إسراف أو مبالغة .

والألفاظ عند أبى فراس رقيقة لينة منسابة ، كأنه يغنى ويعزف على أوتار حزينة والمعانى متنوعة ، وفى بعضها سطحية وسذاجة ، وهو شاعر وجدانى يستعين فى فخره وحماسته بالعاطفة الصادقة العميقة ، لم يكن مرتزقا أو متكسبا بقول الشعر بل كان أميرا محاربا ، وشاعرا فنانا ، وفارسا عظيم القتال مخلصا فى رومياته لسيف الدولة ولقومه جميعا ، وفى بعض أشعاره تفكك يكشف عن ضيقه ، وألمه ، ومعاناته فى الغربة ، وحزنه على أمه وأسرته .

وربما كان ما فى شعره من دقة الإحساس ورقة الشعور ، وصدق العاطفة ملائما لتلك الحياة المنيفة التى كان يحياها الحمدانيون فى ساحات القتال ، وملائما أيضا لمجالس اللهو والترف فى قصور بنى حمدان فى حلب ومنبج وغيرها .

وكان أبو فراس مقاتلا بارزا ومتفوقا على أبى الطيب فى الشجاعة والمحاولة لأنه حمدانى قبل أن يكون شاعرا أو واحدا من شعراء سيف الدولة .

ومن مميزاته أنه كان يصبر على الخطوب ، ويؤمن إيمانا قويا بالله ويرضى بقضائه ويلتزم بأدب النفس وآداب الحروب .

والكثير من شعر الحماسة عند أبى الطيب المتنبى جاء فى صورة قصائد متنوعة

بين الطول والقصر ما بين العشرين والثلاثين والخمسين ، وله قصائد أطول من ذلك ، وله أيضا بعض المقطوعات ، ولكنها قليلة بالنسبه لقصائده الحماسية .

والكثير من الشعر الحماسي عند أبي فراس جاء في صورة مقطوعات صغيرة ما بين ثلاثة أبيات إلى خمسة ، وفي شعره قصائد كثيرة تزيد على الثلاثين ، وقد تصل إلى المائة بيت ، وفيه قصيدة واحدة ذات شكل ملحمي ، تزيد عن المائتين ، فجاء شعره مقنوعا ، والكثير منه كما ذكرت مقطوعات تلائم حياة الأسر وشرود الذهن ، وحديث النفس إلى النفس ، ولأن الشعر الحماسي عنده موزع منتشر في معظم أشعاره على عكس المتنبي الذي يمكن حصر الشعر الحماسي عنده في عدد محدد من القصائد والمقطوعات .

ولقد كانت شهرة أبي الطيب ، ومقدرته الشعرية سببا في حجب الأضواء عن أبي فراس ، كما كانت موهبة الشاعرين وعطاؤهما لفن الحماسة ولغيره من الفنون ، ومكانتهما في مجالس الأمير ، واشتراكهما في المعارك ودقة وصفهما للوقائع سببا رئيسا ووجيها في علو صوتهما ، وحظوة شعرهما مما أضر بعدد كبير من الشعراء في بيئة حلب ، وأسدل عليهم ستارا من النسيان مع أن لبعضهم قدرة وموهبة في قول الشعر (كالسري الرفاء) الذي شاء له حظه أن يكون حيث يوجد أبو الطيب المتنبي في الصف الأول ، ومن خلفه أبو فراس الحمداني .

البَابُ الثانى

شعر الحماسة فى عصر الحروب الصليبية

الفصل الأول

الحروب الصليبية وأشهر حملاتها

على الشرق الإسلامى

تمثل الحملات الصليبية وما جرى فيها من حروب دموية مرحلة من مراحل الصراع الدائم والخلاف المستمر بين الشرق والغرب . وقد ذُكرت أسباب عديدة لهذه الحروب التى دارت رحاها فى الشرق الإسلامى ، والتى استمرت لمدة قرنين من الزمان . وأشهر هذه الأسباب على الإطلاق هو السبب الدينى الذى أشيع بعد هجمات السلاجقة (الأتراك) على أملاك الروم فى آسيا الصغرى، ثم أذاعت الكنيسة البابوية بروما فى سائر أوربة أن المسلمين فى بيت المقدس قد أهانوا قبر المسيح ، واعتدوا على زائريه . وعلت الأصوات الأوربية مطالبة بحماية هذه الأماكن المقدسة ، ودعا البابا (أربانوس الثانى) فى كليرمونت جنوبى فرنسا بدء هذه الحملات فى نوفمبر سنة ١٠٩٥ م (٤٨٨ هـ) . ودعا الأوربيين إلى وقف حروبهم الداخلية ، والاتجاه إلى محاربة المسلمين . واستجابت لهذه الدعوة الجموع الغفيرة التى عاشت حياتها حرباً وقتالا كى تهرب مما أصاب أوربة فى هذا الوقت من جفاف وقحط ، وحتى تحقق رغبات الكبار من ملوك الدول وزعماء الجيوش فى تأسيس الممالك والإمارات فى بلاد الشرق .

وقد تحمس الصليبيون لحملاتهم بسبب التفكك بين بلدان المسلمين ، فقد أضحت مصر والشام والعراق وإيران وغيرها متصارعة تقتتل فيما بينها أحر

قتال ، ولا تلتقى على قتال عدوها ، فضلا عن ضعف المسلمين وتقهقرهم بالأندلس فى عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى .

فالسبب الدينى لهذه الحملات لم يكن إلا ستاراً اختفت تحته أطماع الأوربيين فى السيطرة على الشرق واستغلال خيراته .

وبعد الشحن المعنوى ، والتجهيز النفسى ، والاستعداد القتالى لهذه الحروب تجمعت الجيوش من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها ، والتقت فى القسطنطينية ، ثم عبرت مضيق البوسفور ، ووصلت إلى آسيا الصغرى ، وتوغلت فى بلاد المسلمين فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) ويعد هذا التاريخ البداية الحقيقية والفعلية للحروب الصليبية ، قال ابن الأثير : « فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام »[١] .

وسميت حملاتهم بالصليبية إشارة إلى الصليب الذى حملوه على صدورهم ، واستجابة لدعوة البابا حامل الصليب الأكبر .

وقد استمر تدفق الفرنجة على الشرق منذ بداية الحروب وحتى نهايتها بفتح عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) فى بداية حكم المماليك بمصر ، وبعد انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة .

واشتهر من هذا التدفق سبع حملات لما فى قيادتها من زعامة ، ولما فى أعدادها من ضخامة ، ولأنها وفدت فى ظل ظروف سياسية وحربية خاصة . وقد استمر جهاد المسلمين فى مقاومة هذه الجيوش طوال مدة تواجدها فى أرض المسلمين .

---

(١) الكامل ج ١٠ ص ٢٧٢ أحداث سنة ٤٩١ هـ طبعة دار صادر ، بيروت .

الحملة الأولى :

نزلت هذه الحملة فى آسيا الصغرى ، وحققت عدة انتصارات على سلاجقة الروم المسلمين فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) فى البلاد التى كانت خاضعة لنفوذهم . وكانت الحملة مكونة من ثلاثة فيالق ، وتضم مائة وخمسين ألفاً . وقد استولوا على الرها وأنطاكية فى شمالى سورية ، وكونوا بهما إمارتين صليبيتين فى سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) . ثم استولوا فى السنة التالية على بيت المقدس وجعلوا منه أكبر مملكة صليبية فى الشرق ، وكان تحت نفوذ الفاطميين ، ثم دعموا انتصارهم فى بيت المقدس بعدة انتصارات أخرى على الجيش المصرى فى فلسطين (سورية الجنوبية) فأحكموا قبضتهم على الرملة وعكا وحيفا ويافا وغيرها . وعجز الأسطول المصرى عن حماية المدن الساحلية ، وزادت شهية الفرنجة للانتصار ففرضوا حصاراً حول طرابلس لمدة ثمانية أعوام حتى سقطت فى أيديهم سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) . وجعلوا منها إمارة رابعة ، وأحكموا سيطرتهم على صيدا وعسقلان .

وفى الوقت الذى كانت فيه البلدان الإسلامية تقع فى أيدى الفرنجة واحدة تلو الأخرى كان السلاجقة فى صراع دائم حول السلطة ، ولهذا تركوا البلاد لأهلها يدافعون عنها ، كما كان الفاطميون فى مصر يرون أنه ليس من واجبهم أن يدافعوا عن بلاد من واجب غيرهم أن يدافعوا عنها ، وهذه أنانية حمقاء ، ونظرة ضيقة ، وخور لا يليق ، فلم يلبث الصليبيون أن استولوا على الممتلكات الفاطمية فى فلسطين بل هددوا مصر ، ودخلوها أكثر من مرة .

كان العرب فى الشام يدافعون عن بلادهم بكل قوتهم ، ولم يكونوا لقمة سائغة — على ضعف إمكاناتهم — للغازين ، فلم تستسلم أنطاكية إلا بعد حصار دام تسعة أشهر ، وعند الاستيلاء على بيت المقدس قتل الفرنجة من أهلها أكثر

من سبعين ألفاً من الأطفال والشيوخ والنساء . وقد قاومت طرابلس طوال مدة الحصار وهي ثماني سنوات مما يؤكد شدة المقاومة وعدم الاستسلام بسهولة .

وقد حققت الحملة أهدافها ، وسيطرت على مملكة بيت المقدس ، وفرضت نفوذها على سواحل الشام ، وذلك « لافتقت وحدة المسلمين ، واختلاف مذاهبهم الدينية التي فرقت بين قلوبهم »[1] .

كيف استقبل المسلمون هذا الغزو ؟

كان الخليفة العباسي لا يستطيع حماية نفسه ، فقد فرضت عليه رقابة شديدة من عناصر تركية ليس لها ولاء للعروبة ، وربما كان ولاؤها للاسلام ولاء ظاهريا .

والسلاجقة هم « مجموعة من القبائل التركية التي دفعتها الظروف الاقتصادية والسياسية إلى كثرة التنقل انتجاعاً لمواطن الكلأ ، وبحثاً عن أسباب العيش الرغيد »[2] ، وقد امتد نفوذهم من فارس إلى العراق في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ثم اتسع ليشمل شمالي الشام وآسيا الصغرى ، وكانوا قد استولوا (قبل الصليبيين بالطبع) على دمشق وحلب والرها والموصل .

واستطاعوا أن ينتزعوا فلسطين من يد الفاطميين ، ولكن الغزو الصليبي دهمهم عندما كانوا « منقسمين على أنفسهم يتقاتلون فيما بينهم للظفر بعرش

---

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي ص ١٦ الطبعة الثانية دار نهضة مصر سنة ١٩٧٩ م .

(٢) دولة السلاجقة للدكتور عبد النعيم حسنين ص ٣ .

السلطنة فشغلتهم أهواؤهم الشخصية عن التنبيه إلى الخطر الخارجي مما يسر للصليبيين النصر في حروبهم الأولى »[١] .

وقد استغاث أهل طرابلس أثنـاء حصار الفرنجة لهم بالخليفة العباسي ، فأحالهم إلى السلطان السلجوقي ، فأرسـل قوة صغيرة لم تثبت أمام جيش الصليبيين .

وهكذا تلفّت الشام إلى العراق فلم يسعفه ، فولى وجهه شطر مصر حيث الدولة الفاطمية التي كانت في نزاع دائم مع السلاجقة حول نفوذ كل منهما في أرض الشام .

وينتسب الفـاطميون إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد بدأت الدولة الفاطمية في تونس بالمغرب العربي في شمالي أفريقية ، ثم امتد نفوذها إلى مصر في شعبان ٣٥٨ هـ (يوليو ٩٦٩ م) ، ونقلوا إليها مقر خلافتهم ، وبسطوا سلطانهم على أجزاء عديدة من الشام .

وتتابع الخلفاء الفاطميون في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وأخذ سلطانهم يتقلص شيئاً فشيئاً مع بداية حكم المستنصر بالله (٤٣٢ هـ) حيث بدأ عصر نفوذ الوزراء ، وظهر منهم « بدر الجمالي » ، وتعرضت الدولة الفاطمية في الشام لهجمات القرامطة ، وتوسع السلاجقة . وبدأ الزحف الصليبي في عهد الخليفة المستعلي ، ثم زاد خطره ، وعم ضرره في عهد الخليفة الآمر ووزيره أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي .

« وكان السلاجقة على مذهب أهل السنة بينما كان الفاطميون على مذهب الشيعة ، فسعى كل من الطرفين إلى الإيقاع بالطرف الآخر ، فلم يقف الطرفان

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧ .

معا صفا واحداً لصد الخطر الصليبي الداهم الذى أخذ يهدد نفوذ كل منهم فى بلاد الشام تهديداً مباشراً حينذاك »(١)

وهكذا كان الشام أثناء الغزو الصليبي منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة، فالجزء الشمالى منـه تحت سيطرة السلاجقة ، والجنوبى تحت سيطرة الفاطميين ، والأجزاء الداخليـة مجزأة إلى إمارات متعددة عليهـا زعماء من العرب ، وقد دخل الصليبيون أثناء هذا التفـكك ، وسحبوا الأرض من تحت أقدام السلاجقة والفاطميين والأمراء العرب .

مقاومة الصليبيين

لقد شعر المسلمون بالحسرة لما أصابهم وحلّ بأوطانهم ، وعندما تنبهوا لصدمتهم ، واستيقظوا من غفوتهم هبوا لنصرة دينهم ، وللدفاع عن مقدساتهم، ولم يدعوا الفرنجة يتمتعون بالأمن زمناً طويلا ، وممن شارك فى هذه الصحوة عماد الدين زنـكى زعيم الدولة الأتابكية بالموصل ، وقد عاونه فى مقاومة الصليبيين نجم الدين أيوب الذى كان حاكماً لتـكريت وأقصى عنها هو وأخوه أسد الدين شيركوه ، وقد أحسن عماد الدين استقبالهما فى الموصل ، وأفاء عليهما من سابغ كرمه مما جعلهما يخلصان له ، ويتفانيان فى خدمته ، وساعداه حتى حارب الصليبيين ، وانتصر عليهم فى مواقع كثيرة ، وتوج مقاومته لهم باسترجاع إمارة الرُّها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) . وتوالت الانتصارات فى عهده حتى قتل ، فاستقل ابنه نور الدين محمود بالجزء الشمالى الغربى من الشام ، وجعل (حلب) مركزاً لنشاطه ، ومقراً لحـكمه ، بينما استقل أخوه (سيف الدين غازى) بالموصل ومناطق أخرى فى العراق .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٠ .

وقد قام نور الدين بدور أبيه فى مقاومة الصليبيين فخاض ضدهم عدة معارك ناجحة واستخلص منهم أجزاء كثيرة من الشام ، وبسط نفوذه عليها .

الحملة الثانية — ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) :

كانت هذه الحملة موجهة أساساً إلى نور الدين محمود لتأديبه والقضاء عليه حتى يتحول الصليبيون إلى المد بعد الجزر الذى عانوا منه ، ولم تحقق هذه الحملة أهدافها ، فقضى المسلمون على معظمها فى آسيا الصغرى ، وانضم ما بقى منها إلى قوات الصليبيين بالشام ، وتجمع منهم عدد كبير حاصر دمشق ، وعبث بأرض الشام ، وتصدى لهم نور الدين ، وحاصرهم من الشمال والشرق واستولى على دمشق ، وعلى عدة مدن من إمارة أنطاكية ، وقبض على أميرها ، وأمير طرابلس ، وأطلق سراحهما بفدية كبيرة ، ثم تحولت الأنظار عن الشام إلى مصر .

سقوط الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية :

كان نور الدين قد قرّب إليه رجال أبيه نجم الدين ، وأسد الدين ، وصلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب فى الوقت الذى كان فيه العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فى ذعر شديد من عبث الوزيرين شاور السعدى وضرغام بن عامر ، وكان من أصل مغربى ، فقد عاثا فى أرض مصر فساداً ، وكانا يمثلان آخر الحلقات فى فوضى الوزارة الفاطمية .

واستغاث شاور بنور الدين ، واستنجد ضرغام بالصليبيين ، وبهذا أصبحت مصر هدفاً للغزو الخارجى ، واستجاب نور الدين لاستغاثة شاور لغرض أساسى وهو حماية مصر من الصليبيين ، وحتى لا يتسع نفوذهم ، وبسبب

استئصالهم ، فأرسل إلى مصر ثلاث حملات مواكبة لحملات مماثلة من الصليبيين . فقد كانت جيوش نور الدين وجيوش الصليبيين تأتى من الشام لتتقاتل فى مصر .

وفى الحملة الثالثة ، وكانت فى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) تمكن أسد الدين وابن أخيه من حماية مصر من الغزو الصليبى .

وتولى أسد الدين الوزارة لمدة شهرين ثم توفى ، وتولاها من بعده صلاح الدين الذى استمر فى الحكم وتسيير الأمور إلى أن مرض الخليفة الفاطمى العاضد ، وأشرف على الموت فعزله ، وأسقط اسمه من خطبة الجمعة فى سنة ٥٦٧ هـ .

وقد أحل صلاح الدين المذهب السنى محل المذهب الشيعى ، وأخذ يحكم باسم نور الدين ، فكان يدعو له وللخليفة العباسى إلى أن توفى نور الدين زنكى سنة ٥٦٩ هـ ، فاستقل صلاح الدين عن آل زنكى ، واكتمل قيام الدولة الأيوبية ، ثم بدأ فى توسيع نفوذه لتطويق الصليبيين فى إماراتهم بالشام ، واستولى على النوبة والسودان واليمن ، وبلاد الحجاز والشمال الأفريقى وعلى أجزاء كثيرة من الشام .

وبعد أن اتسعت مملكة الأيوبيين أخذ الناصر يجهز نفسه للحرب الحقيقية ضد الصليبيين فى إماراتهم على السواحل العربية بالشام ، وقد صبر على عدوانهم ، ولم يواجههم إلا بعد أن جمع حوله معظم القوى العربية والإسلامية لتعاضده وتنطلق معه إلى محاربة عدوهم جميعاً الذى هلك الحرث والنسل ، وعبث بالمقدسات ، وطغى على الحرمات ، واحتل الأرض ، وأهدر القيم .

وقد تحقق للناصر معظم ما أراد فانتصر عليهم فى مواقع كثيرة منها موقعة

حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ثم فتح بيت المقدس ، واسترجع عكا وماحولها ، وتقلص وجود الفرنج على سواحل الشام .

الحملة الثالثة سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) :

تولى قيادة هذه الحملة « ملوك أوربا الكبار مثل فردريك بربار وسا أمبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا »(١). وقد جاءت هذه الحملة إلى الشام بعد استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس ، واستيلائه على عكا ، وبعد الدوى الهائل الذى هز الشرق والغرب لانتصار العظيم فى حطين ، وقد تجمع من وصل منهم إلى من كان قد بقى فى صور ، تجمعوا فى حصار عكا حتى استسلمت لهم ، وسقطت فى أيديهم سنة ٥٨٧ هـ ، ولم يتمكنوا من استرجاع بيت المقدس ، فقد استبسل المسلمون فى الدفاع عنه ، ولهذا أخفقت الحملة فى أجل مهمة نيطت بها . وجرت عدة معارك بين صلاح الدين وملك الانجليز (قلب الأسد) وكانت الحرب سجالا بينهم حتى وقع الطرفان صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) ، ثم مرض صلاح الدين مرضاً قصيراً حتى توفى سنة ٥٨٩ هـ بعد حياة حافلة بالكفاح والنجاح دامت سبعة وخمسين عاما .

وقد تعرضت دولة الأيوبيين بعد رحيل مؤسسها لهزة عنيفة ، لكن خلفاءه من بعده استطاعوا أن يتخطوا تلك العقبة ، ويواصلوا المسيرة على الطريق الذى اختطه لهم فاستمرت دولتهم أكثر من ثمانين عاما حتى حل محلها المماليك بعد أحداث موقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) .

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٥ ص ٦٢٠ .

الحملات الصليبية الأخيرة :

وأصل الصليبيون تدفقهم فى حملات متعددة إبان القرن السادس الهجرى ، فكانت الحملة الرابعة موجهة إلى القسطنطينية لإسقاط كنيستها والسيطرة عليها. ثم كانت الحملة الخامسة فى عهد الملك العادل ، وهى التى تقدمت إلى دمياط ، واستولت عليها سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وقد حاصرهم الملك الكامل محمد بعد وفاة أبيه ، وأجلاهم عنها .

وكانت الحملة السادسة بقيادة فردريك الثانى مكملة ومعاونة لسابقتها ، وأخيراً جاء لويس التاسع ملك فرنسا على رأس الحملة السابعة والأخيرة ، وكان هدفه بيت المقدس ، ونزل مصر عن طريق دمياط سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، وقد تطورت الأحداث ، ووصل الصليبيون إلى مقر الجيش المصرى بالمنصورة ، وهزم الفرنجة شر هزيمة ، وأسر لويس التاسع ، وحبس فى دار ابن لقمان[١] ، وضاعت الأحلام بين القتل والأسر والتشريد .

جهود المماليك فى مقاومة الصليبيين والتتار :

باشر المماليك حكم مصر بعد مقتل توران شاه وهم « أشتات من شبه جزيرة القرم ، وبلاد القوقاز والقفجاق ، وآسيا الصغرى ، وفارس وتركستان ، وبلاد ما وراء النهر ففيهم عنصر الأتراك ، وفيهم الشراكسة ، والروم ، والأكراد ، وبعضهم من البلاد الأوربية أيضاً »[٢] .

---

(١) دار بالمنصورة كان ينزل بها فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء فى هذا الوقت .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٥ ص ١٩٧ .

وبينما كان المماليك يوطدون دعائم ملكهم في مصر ، أقبل التتار على البلاد العربية ، فأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وواصلوا زحفهم إلى الشام ، واستسلمت لهم البلاد واحدة بعد الأخرى ، وأرسل هولاكو حفيد (جنكيز خان) إلى سلطان مصر (قطز) عندما اقتربوا من الحدود المصرية رسالة تهديد ووعيد ، واتفق المماليك والقادة على قتل سفراء التتار ليكون ذلك إيذاناً ببدء الحرب . وكانت معركة عين جالوت في ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، فانتصر المصريون انتصاراً حاسما ، وردوا عن البلاد هذا الخطر الداهم ، والشر الوبيل . ثم استولى المماليك — بعد هذا الانتصار — على أجزاء كثيرة من الشام ، ونقلوا الخلافة العباسية إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ ، واستمرت قائمة بها (بالاسم فقط) حتى بداية الحكم العثماني .

وكان النصر في عين جالوت فاتحة لانتصارات أخرى للمماليك على التتر الذين تكررت محاولتهم الإستيلاء على مصر ، ثم تجمعت مصر والشام لإعادة الحصار حول ما تبقى للصليبيين على سواحل الشام ، وواصل المماليك إحكام سيطرتهم في فرض الحصار حتى أزاحوهم عن إمارتي أنطاكية وطرابلس ، والجزء الذي كان باقياً من بيت المقدس ، وأكملوا ما كان صلاح الدين قد بدأه .

وفي عهد الحاكم المملوكي (الأشرف خليل) « سقطت عكا ، ودمرت آخر الحصون الصليبية ، واستسلمت كل البلاد التي كانت باقية لهم ، وانتهى عهد الصليبيين في الشرق »[1] ، وذلك في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) بعد أن استمر احتلالهم لأجزاء عزيزة من فلسطين ما يقرب من مائتي سنة ، وأسدل الستار على فصول هذا الصراع الطويل .

---

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٢٢ .

وهكذا فشلت الحملات الصليبية على مصر والشام لحماسة المسلمين فى الدفاع عن أوطانهم ومقدساتهم ، ولوجود رجال أبطال ، وقواد أفذاذ وهبوا أنفسهم للجهاد العظيم ، ولتعاون سكان البلاد معهم ، فالأرض تنطق بلسان أصحابها ، ولعلك — عزيزى القارىء — لاحظت انتشار الفرنجة عند انقسام العرب وتفككهم ، ولما اتحدت كلمتهم وتجمعت قوتهم ألحقوا الهزائم بالصليبيين سواء فى عهد صلاح الدين أم فى عهد المماليك .

ومن أسباب الفشل فى هذه الحملات أيضا أن القواد الذين وفدوا من الغرب لم يكونوا يعملون من أجل أهداف مشتركة ، بل من أجل أغراضهم وأهدافهم الخاصة .

وقد توقفت الحملات الصليبية فى الوقت الذى كان التتار يقومون فيه بمهاجمة الشرق الإسلامى ، فقد نهضوا بما كان منوطا بالصليبيين ، فانصرف المماليك إلى مواجهة التتار حتى انتصروا عليه ، ولهذا ربما كان انصراف أوربه عن الشرق ، وعدم تغذيته بحملات جديدة سببًا من أسباب فشلهم فى البقاء بفلسطين .

وقد تشجع المماليك — بعد انتصارهم على التتار — على مقاومة الصليبيين ، وتطهير الشام منهم بعد قرنين من الاحتلال البغيض . وفى النهاية لم تسفر هذه الحملات وما جرى فيها من حروب إلا عن مزيد من العداء والكراهية بين الشرق والغرب .

الفصل الثانى

الشعر الحماسى فى ألوانه المتعددة

تابع الشعراء فى عصر الحروب الصليبية أسلافهم القدامى فى الحث على الجهاد والتحريض على القتال ، والدعوة إلى المقاومة والكفاح ، واقتدوا بهم فى وصف المعارك ، والإشادة بالإنتصارات ، وتمجيد البطولة ، ورثاء الأبطال الذين يستشهدون فى الحروب ، أو يموتون خارجها وهم يستعدون لها ، إذ أن العرب فى جاهليتهم وإسلامهم كانوا يتقاتلون ويتحاربون مع بعضهم ، أو مع جيرانهم ، وقد حفلت دواوين شعرائهم بالعديد من القصائد والمقطوعات الحماسية ، ولما اشتعلت الحرب الصليبية ، وعلا لهيبها انشغل الشعراء بها ، واستجابوا لأحداثها ، فالشعراء مرآة لعصورهم ومجتمعاتهم ، ولهذا انصرف الكثير منهم عن فنون الشعر المختلفة ، وتفرغوا لهذه الحروب يحرضون الناس عليها ، ويحثون الأبطال على مقاتلة الفرنج المحتلين ، ويوقدون الحماسة فى صدور المقاتلين ، ويسجلون ما دار فى الرّها ، وأنطاكية ، وحلب ، وعكا ، وبيت المقدس ، ودمياط وغيرها ، ويشيدون بالقادة المسلمين ، ويأسفون ويتحسرون لكل تقدم يحرزه حملة الصليب ، ويفرحون لكل نصر يحققه المسلمون . واستمر الشعراء عبر أجيالهم المتعاقبة لمدة قرنين من الزمان يتابعون المعارك ، ويتصلون بالزعماء ، ويعايشون الأحداث ، ويفخرون بالأبطال ، وقد كانوا يتناولون هذه الحروب من زاوية الدين فجاء شعرهم نابضاً بالروح الدينية ، متدفقاً بالحماسة فى كل أرجائه ، غزيراً متنوعًا ، مواكباً لاتجاهات العصر .

وكان شعراء الشام أول من تجاوب مع هذه الحروب ، فأشادوا بجهاد

المسلمين ، وعبروا عن حماستهم فى عهد الزعيم العظيم عماد الدين ، وفى عهد ابنه نور الدين ، ومنهم من مصر عدد من الشعراء ، على رأسهم وفى مقدمتهم الوزير المصرى طلائع بن رُزِّيك « الذى لو طال به العمر ، وواتته الظروف السياسية فى مصر لأظهر من الهمة فى محاربة الصليبيين ما كان خليقاً أن يسطر له فى كتاب الحروب الصليبية أروع الصفحات »[١] .

وفى عهد صلاح الدين اشتركت مصر مع الشام بقدر متساو فى الشعر الحماسى إلى أن انتهت هذه الحروب . أما شعراء العراق فكانوا منصرفين إلى الخلفاء العباسيين ، وإلى حيواتهم الخاصة باستثناء عدد منهم لم يذهل عن هذه الحروب ، ولعل منهم ابن التعاويذى .

ولقد طالت الحروب الصليبية ، وكثر شعراؤها ، فهم يعدون بالمئات وليس بالعشرات ، وكثر الشعر فى هذه الفترة كثرة كبيرة ، ومعظمه يمكن أن يكون شعراً حماسيا نابضا متوهجا ، لكننا سنقصر حديثنا عما كان حماسيا صرفا خالصا . وسوف نعرض فيما يأتى من صفحات لأهم الألوان الحماسية فى شعر الحروب الصليبية .

أولا — التحريض على القتال والدعوة إلى الجهاد والمقاومة

لقد استقر الفرنجة فى أرض المسلمين ، وأقاموا إماراتهم بالشام وأطراف العراق ، وواصلوا هجومهم على مصر ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فحاولوا

---

(١) أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ١٤٠ ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ م . دار الفكر العربى .

الاعتداء على المقدسات الإسلامية فى الحجاز ، وعندما استيقظ المسلمون من غفوتهم ، وأفاقوا من رقدتهم ، وتنبهوا للخطر الذى أحدق بهم أشعلوا نار المقاومة ، وهبوا للدفاع عن دينهم وأرضهم ، واستجاب الشعراء لنداء دينهم ووحى ضمائرهم ، بل كان الأمر يبلغ بهم أحياناً « مبلغ البكاء والنحيب عندما يرون عسف الصليبيين ، وتخريب البلاد ، وقتل أهلها ، وتشريدهم ... والبكاء ليس من قبيل السلبية أو اليأس فى المقاومة كما يتبادر إلى بعض الأذهان ، وإنما هو على عكس ذلك مثير للحمية ، فهو يقترن عادة بعرض الفاجعة ووصف النكبة وتصوير المحنة ، فيؤثر فى النفوس ويثير العزائم ، وقد يكون فى تأثيره أشد وأبلغ مما يتجه إلى التفاؤل الصريح »[1].

وقد حاول الشعراء أن يدفعوا الناس إلى القتال ، ويبعثوا الهمم فى النفوس فاتجهوا بشعرهم الحماسى إلى الملوك والأمراء ليحرضوهم على قتل الأعداء ، وممن استجاب لهذه اليقظة ، وشارك فى هذا التحريض من الشعراء ابن الخياط الدمشقى[2] الذى خاطب واحداً من أمراء الشام المغمورين فقال له :

وإنى لمهدٍ إليكَ القريـ ... ـضَ يُطوى على النصح والنصحُ يُهدَى
إلى كم ، وقد زخرَ المشركون ... بسيلٍ يُهال له السيلُ مَدّا
بقَوا الشركِ لا يُنكرُون الفسادَ ... ولا يعرفُونَ مع الجورِ قصْدَا
ولا يردعون عن القتل نفسًا ... ولا يتركون من الفتكِ جهدا
فكمْ من فتاة بهم أصبحتْ ... تدُقُّ من الخوفِ نحراً وخدّا
فحاموا عن دينكمُ والحريمِ ... محاماةَ من لا يَرَى الموت فقدَا

---

(١) أدب المقاومة لعباس خضر ص ١٥ دار الكاتب العربى

(٢) توفى سنة ٥١٧ هـ ، وهو أبو عبد الله ، أحمد بن محمد التغلبى ، المعروف بابن الخياط .

وسُدُّوا الثغورَ بطعنِ النحورِ فمِنْ حقِّ ثغر بكم أن يُسَدّا
فقد أينعتْ أرؤُسُ المشركينَ فلا تغفِلُوها قطافًا وَحَصْدًا
فلا بد من حدهم أن يُفَلّ ، ولا بُدّ من ركنِهِمْ أنْ يُهَدّا

فالشاعر في هذه الأبيات يحرض أميراً صغيراً على قتال الأعداء ، وقد ذكر بعض جرائمهم مما يستوجب محاربتهم ، وكان ابن الخياط واقعياً صادقاً في حثه وتحريضه ، ويكفيه فخراً أنه كان من أوائل الداعين إلى مقاومة الصليبيين .

وكان البطل عماد الدين زنكى من أوائل الأبطال الأعاظم الذين قادوا المقاومة ، وتحركوا بقوة للدفاع عن بلاد الإسلام ، والتف الشعراء حوله ، وأخذوا يستنجدون به وبأمراء العرب ، ويهيبون بهم أن يتحركوا لزحزحة الأعداء « وإن من يتتبع دواوين شعراء هذا العصر يجدها زاخرة بالتحريض على القتال ، والتهنئة بالنصر ، والحمد على حسن البلاء ، فترى الشعر في هذه الدواوين وقد لبس ثوب الحقيقة واتصل بالواقع أتم اتصال فصارت له روعة ودبت فيه حياة »[1] .

وكان الوزير المصرى الفاطمى الملك الصالح (طلائع بن رُزِّيك) من أوائل شعراء مصر الداعين لحرب الصليبيين ، ويرى أن ذلك لن يتحقق إلا بتعاون مصر والشام .

وعندما تولى الوزارة فى مصر فى أعقاب قتل الخليفة (الظافر) سنة تسع وأربعين وخمسمائة عمل على إعادة الأمن ، وتوطيد النظام ليتيسر له التحالف والتعاون مع نور الدين محمود فى محاربة الصليبيين والقضاء عليهم . ولم يوفق

---

(١) الأدب العربى فى مصر لمحمود مصطفى ص ٢٧٧ دار الكاتب العربى ١٩٦٧ م.

ابن رزيك فى آماله الدينية والسياسية ، ولم يتفق مع نور الدين على الهدف المشترك وهو مقاومة الفرنج المغيرين لأن نور الدين (حاكم الشام) كان حذراً من خلفاء مصر ، ولم يثق فيهم الثقة التى تدعوه وتشجعه على التعاون معهم ، أما ابن رزيك فلم ييأس ، واستمر فى إرسال الأشعار والهدايا إلى حاكم دمشق لتحقيق هذا التحالف ، « ولو أن مصر كانت قوية فى ذلك الحين ، أو كانت عقائدها كعقائد دمشق ، لكان إتحاد مصر والشام جديراً بأن يقذف الصليبيين إلى البحر »(١) .

ومن شدة لهفة ابن رزيك على التعاون مع نور الدين أنه كان حريصاً على الصلح بينه وبين قلج أرسلان بن مسعود صاحب الروم ، فكتب إلى هذا الأخير ينهاه عن ذلك ويحثهما معا على التعاون والتآلف فى قتال الفرنج ، وهم العدو المشترك لهما ولغيرهما من المسلمين قال :

نقولُ ، ولكن أين من يَتَفَهَّمُ
ويعلمُ وَجهَ الرأى ، والرأىُ مُبْهَمُ
وما كلُّ من قاسَ الأمورَ وَسَاسَها
يوفقُ للأمر الذى هو أحْزَمُ
وما أحدٌ فى الملكِ يَبْقى مخلّداً
وما أحدٌ مما قَضَى اللهُ يَسْلَمُ
أمِنْ بعدِ ما ذاقَ العِدَا طعمَ حربكم
بفيهِمْ ، وكانتْ وهى صابٌ وعلقَمُ

(١) مقدمة ديوان ابن رزيك ص ٧ طبعة دار نهضة مصر تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوى .

رَجَعْتُمْ إلى حكم التنافسِ بينكمُ
وَفيكمُ من الشحْناءِ نارٌ تضرَّمُ

ما عِندَكم مَنْ يَتَّقِي اللهَ وَحْدَهُ
أما في رعاياكُمْ مِنَ الناسِ مُسْلِمُ

تعالَوْا ، لعلَّ اللهَ ينصُرُ دينَه
إذا ما نَصَرْنا الدين نحنُ وَأنتمُ

وننهضُ نحوَ الكافرينَ بعَزمَةٍ
بأمثالها تحوَى البلادُ وَتُقسَمُ

وهذه الأبيات وهي من أفضل ما قاله طلائع تكشف عن جوهره ، وحقيقة مشاعره ، فهو يدعو الأميرين إلى تجاهل المناصب وتناسى الخلافات ، وبعد أن قال لهما : « تعالوا » جاء في البيت الأخير ، وقال : « وننهض » تأكيداً على صدق نواياه في التعاون لمحاربة الصليبيين .

وكان طلائع يرسل بأشعاره من مصر إلى صديقه الأمير الشاعر أسامة بن منقذ بالشام يرجوه فيها أن يحث نور الدين على جهاد الفرنج المحتلين . ويستنهض ابن رزيك الأميرين إلى التعاون وتوحيد الجهود في هذا السبيل ، قال في قصيدة طويلة :

بأبى شَخصُكَ الذى لا يَغيبُ
عن عِيَانى ، وهو البعيدُ القريبُ

وبعد المقدمة ، وما فيها من عتاب لصديقه أسامة ، قال :

كره الشامُ أهلَهُ فهو يحقو ق بألا يُقيم فيه لبيب

إنْ تجلتْ عنه الحروبُ قليلا   خلّفتْها زلازلٌ وخُطُوبُ(1)

لوْ رآهُ المسيحُ لم يَرْضَ نقلا   زعمُوا أنّهُ لهُ منسوبُ

وجهادُ العدوِّ بالفعل والقَوْ   لِ عَلَى كلِّ مسلمٍ مَكْتُوبُ

فانهضِ الآنَ مُسْرِعاً فبأمثا   لك ما زالَ يُدْرَكُ المطلوبُ

وَألْقِ عنّا رسالةً عند نور الدِّ   ين ما في إلقائها ما يَرِيبُ

قُلْ له دامَ مُلْكُهُ وَعَلَيْهِ   مِنْ لباسِ الإقبال بُرْدٌ قشيبُ

أيُّها العادِلُ الذى هو للدّ   ين شَبَابٌ، وللحرُوبِ شَبِيبُ(2)

قد كتبنا إليكَ، فاوْضِحْ لنا الآ   نَ بماذا عن الكتاب تُجِيبُ

قصدُنا أن يكون منا ومنكم   أجلٌ في مسيرنا مضْرُوبُ

فلَدَيْنَا من العساكر ما ضا   قَ بأدناهُمُ الفضاء الرّحيبُ

وعلينا أن يستهلّ على الشا   م، مكانَ الغُيُوثِ، مالٌ صَبِيبُ(3)

أوْ تَرَاها مثلَ العرُوس: تَرَاهَا   كُلّه من دم العِدَا مخضُوبُ

وبحول الإلهِ ذاكَ وَمَنْ غا   لبَ رَبِّي فإنّهُ مغلوبُ

فالشاعر الفاطمي يود أن يتفق معه نور الدين على قتال الإفرنج مع الاستعداد لهم بالجيش الضخم، والمال الكثير، لمحاصرتهم من الشمال

---

(1) كانت الزلازل قد ألمت بالشام وعلى أرض (شيزر) التي يقيم فيها أسامة بن منقذ مع أهله، و (شيزر) قلعة حصينة بالقرب من حماة.

(2) ذكر محقق ديوان طلائع أن المقصود بشبيب هو شبيب بن يزيد الشيباني أحد كبار الثائرين على بني أمية، وكان بطلا في الحروب وتوفي سنة ٧٧ هـ، وقد أشاد الجاحظ به، وامتدح حماسته.

(3) استهل المطر: اشتد انصبابه.

والجنوب حتى تسقى أرض الشام بدمائهم ما داموا قد استحلوا حرماتها، واعتدوا على مقدساتها .

وقد أثمرت همة طلائع وحماسته فى انتصار المسلمين على الفرنج فى عسقلان فى الوقت الذى ضعفت فيه عزيمة نور الدين لمرضه إلى أن انتقلت راية الجهاد والمقاومة إلى الناصر صلاح الدين .

وفى عهد الناصر « كان بيت المقدس المحور الذى يدور حوله التحريض ، فإذا اقترب الخطر منه اشتد التحريض على جهاد الصليبيين ، وكثر الإلحاح فى حماية الأماكن المقدسة من اعتداء الإفرنج ، وإذا بعد الخطر خفت وطأة التحريض إلى حد ما »[1] .

وللعماد الأصبهانى[2] قصائد كثيرة يهيب فيها بصلاح الدين أن يستكمل تحرير أرض المسلمين بالشام ، ويحثه على تحرير القدس ، منها قوله :

ويوسف مصر بغير التقى وبذل الصنائع لم يوصف
فسر ، وافتح القدس ، واسفك به دماء متى تجرها ينظف
وخلص من الكفر تلك البلا د يخلصك الله فى الموقف

وأحاط الشعراء بصلاح الدين ، وأخذوا يحرضونه على القتال ، حتى بعد أن انتصر فى حطين وفتح بيت المقدس ، ولكنه قنع بما حققه ، وتوفى ،

---

(١) الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ، محمد سيد كيلانى ص ٢٣٥ ، دار الكتاب العربى .

(٢) تراجع ترجمته فى المطبوع من الوافى بالوفيات للصفدى ، وفى معجم الأدباء لياقوت الحموى ج ١٩ ص ١١ وفى غيرها ، وتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

ولا زال الفرنجة رابضين فى سواحل الشـام ، وقد خاض خلفاؤه من بعده معارك كثيرة ، ولم يستسلموا بل كانوا يدافعون بكل قواهم عن أرض المسلمين فى مصر والشام .

وفى « عهد الملك الأشرف استرد الإفرنج بعض المعاقل والحصون ، فعلا صوت الشعراء بالحض على القتال والنزال ، والحث على الذود عن الحرمات والديار ، ومثال ذلك قول ابن النبيه يخاطب الأشرف »[1] :

يا حارسَ الدين لما نامَ حارسُه
وناظما شملَهُ من بعد تبديدِ
جهزْ جيوشَكَ إنَّ الثغرَ قد عبثتْ
بهِ الفرنجُ فأضحى غير مسدودِ
أيُدْرِكون بهِ أوتارَ قُدسِهم
منكمْ ، وذلكَ مِلْكٌ غير مردودِ
يا للرجال أناديكُمْ لِنازلةٍ
تستنزلُ الماءَ من صُمِّ الجلاميدِ
أينَ الحميةُ هبُّوا مِنْ منامِكُم
إمّا لعاجلِ دُنْيا أو لمعبودِ

وابن النبيه شاعر مصرى مشهور ، وله ديوان مطبوع .

وهكذا توالت صيحات الشعراء لحث الناس على الجهاد ، وتحريض المؤمنين على القتال ، وتحميس الأبطال لتحرير البلاد ، ولهذا لم ينس الناس ما اغتصبه

(١) الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى ص ٢٣٦ .

العدو منهم ، وقد أثر هذا الشعر فى الناس تأثيراً كبيراً ، وعاشوا يترقبون الوقت الذى تتحرر فيه بلادهم من حملة الصليب المغيرين .

ثانيا — وصف المعارك وتسجيل أحداثها

كان الشعر فى زمن الحروب الصليبية متجاوباً مع الأحداث ، معبراً عن النبض الدينى والقومى لدى جموع المسلمين . وقد كثرت الأشعار الحماسية فى عهود عماد الدين ونورالدين وصلاح الدين لكثرة الانتصارات فى عصورهم بمصر والشام ، بينما كان الشعر الحماسى قليلا جداً فى المراحل الأولى من هذه الحروب ، والتى اهتز فيها الوجدان الدينى وتزعزعت الثقة بين رجالات المسلمين ، وخفتت أصوات الشعراء فليس أمامهم مايدعوهم إلى الحماسة والفخر، ومع هذا لم تنعدم تلك الأصوات تماماً ، فكان منها ما يدعو إلى الجهاد ، ويحث على القتال إلا أن الكثيرين من الملوك والسلاطين فى هذه المراحل المتقدمة كانوا منصرفين إلى أنفسهم ، منشغلين بهمومهم ، ومعاركهم حول كراسى السلطنة تاركين الفرنجة ينتقلون من بلد إلى آخر ، ويكونون الممالك والإمارات ، وجارى كثير من الشعراء ملوكهم وأمراءهم ، فانصرفوا عن الأحداث ، وانعزلوا إلى ركن بعيد ، وتغنوا بالطبيعة ، وتغزلوا بجمال النساء .

وقد استيقظ الشعراء مع الصحوة الإسلامية التى قادها أتابكة الموصل ، ومضى الشعر يسجل المعارك الحربية، وينقل ما دار فيها، ويصف إلتحام الجيوش، ويتابع أخبار قادتها وأبطالها ، ويصور الانتصارات وما فيها من السبايا والغنائم ، و لم يقف الأدب عند حد تسجيل المعارك الكبرى . . . بل رأيناه

يرصد أحداثها إلى درجة أنه أصبح سجلا ، يرصد خطوات هذه الحروب ، وصار من المستطاع اتخاذه مفسراً لأحداث التاريخ ، فقد اتخذ حقائقه ميداناً جال فيه فسجلها ، وسجل شعور الناس بها »[1] .

ثم خفت صوت الحماسة مرة ثانيـة فى أعقاب معارك دمياط والمنصورة سنة (٦٤٨ هـ) لما أصاب الأمة من تفتت لقواها ، وانهيار لمالكها فى نواح عديدة ، فقد هبّ التتار من المشرق ، وأتوا على الأخضر واليابس ، واقتلعوا جذور الخلافة الإسلامية فى بغداد ، وقضوا على ما كان قد تبقى للعباسيين من تراث حضارى .

وأحدق الخطر بالأمة الإسلامية من كل جانب ، وضعف الصوت الحماسى الذى طالما أشاد وتغنى ، إلى أن تحول الحكم فى مصر إلى المماليك ، وبدأوا يراجعون أنفسهم ، ويفكرون فيما يفعلون . وتحقق النصر للاسلام على أيديهم وفى عهدهم ، فأزاحوا من بلاده تتر الشرق ، وصليبى الغرب ، وفعلوا ما عجز صلاح الدين نفسه عن إتمامه ، فاستيقظ الشعر الحماسى ، وأعلن البشرى بنهاية عهد الاحتلال فى معركة عكا (الأخيرة) ، وما أن انتهت الحروب التترية والصليبيه حتى فترت الأشعار الحماسية لعدة قرون إبان حكم المماليك والأتراك العثمانيين .

وبعد ذلك نؤكد أن الأشعار الحماسية لم تختف أبداً فى عهد الحروب الصليبية ، ولكنى قصدت إلى بيان مراحل الضعف والازدهار قبل الحديث عن تلك المعارك التى سجلتها الأشعار الحماسية فى العصر الصليبى .

---

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٧٤ .

١ ــ معركة الرُّها[١]

كانت الرُّهَا إحدى الإمارات التى استولى عليها الصليبيون فى حملتهم الأولى ، واستمروا فيها مايقرب من خمسين عامًا ، كان المسلمون فيها ـ بالطبع ـ توَّاقين لاسترجاعها ، ولكنهم لم يصلوا إليها ، أو يتحاربوا فيها لقلة إمكاناتهم ، وعجزهم ، وتواضع أمانيهم ، ولأن الإمارة وما حولها من البلاد التى تتبعها قد تقوَّت وتحصنت بالجيوش والمعدات ، ولهذا لم يعد الاقتراب منها اقتحامها واسترجاعها مجرد أمل ، حتى نهض لها عماد الدين زنكى (أتابك الموصل) ، وأغار عليها ، وأسقط الإمارة كلها فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، بعد قتال دام ثمانية وعشرين يوما ، لتكون بذلك أول ما سقط فى أيدى المسلمين من الإمارات الصليبية .

وقد أحيا هذا النصر آمالا رحبة فى نفوس المسلمين حول استرجاع ما اغتصبه الفرنج ، وكان مقدمة لانتصارات أخرى عظيمة ، وأحدث هزة عنيفة فى دوحة الشعر ، وعلت الأصوات الحماسية مشيدة بهذا الفتح ، مسجلة كفاح المسلمين وعلى رأسهم عماد الدين ذلك الرجل الذى شرَّف آل زنكى ، وأسعد العرب فى هذا العصر الجريح . لنقرأ بعض ما قاله ابن القيسرانى[٢] .

مدينةُ إفكٍ منذُ خمسينَ حجَّةً
يَفُلُّ حديدَ الهندِ عنها حِدَادُهُ[٣]

(١) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام (معجم البلدان جـ ٣ ص ١٠٦) .

(٢) هو محمد بن نصر القيسرانى ، الذى توفى سنة ٥٤٨ هـ ، وكان واحدا من شعراء الحماسة فى العصر العباسى الثانى .

(٣) يفل : يكسر ، وسيوف حداد : حادة .

وجامحـةٍ عـزَّ الملوكَ قيـادُهَا
إلى أنْ ثنَاها من يَعِزُّ قِيادُهُ
فأضرَمَها نارين : حَرْباً وَخُدْعَةً
فما راعَ إلا سُورُها وانهدادُهُ(١)
فيا ظَفَراً عمَّ البـلادَ صلاحُهُ
بمَنْ كان قد عمَّ البلادَ فسَادُهُ
فلا مُطْلَقٌ إلاّ وَشُدَّ وَثَاقُهُ
ولا مُوثَقٌ إلاّ وَحُلَّ صِفَادُهُ(٢)
ولا مِنْـبَرٌ إلا تَرَنّحَ عودُهُ
ولا مُصْحَفٌ إلا أنارَ مدادُهُ

فقد وصف مدينة الرها وذكر أنها بقيت خمسين سنة مرتعا للمعصية ، ومدينة للإفك ، واستعصت على الملوك السابقين حتى حررها عماد الدين ، وأوقعها بين نارين الحرب والخدعة ، واستولى عليها ، ونشر فيها الصلاح بدل الفساد ، وقيّد جيوش الأعداء ، وفك أسرى المسلمين ، وأقام فيها الفرائض والعبادات .

وقد اكتست الحماسة فى الأبيات ثوبا دينيا ، وسوف يبدو هذا واضحا جليا فى معظم ما نستعين به من أمثلة ونماذج .

وفى حديث الدكتور أحمد بدوى عن هذه الأبيات فى كتابه « الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية » ، قال : « والشعر يسجل أن زنكى

---

(١) راعه الشيء : أعجبه .
(٢) الصفاد : ما يوثق به الأسير .

استعمل مع الحرب الحيلة والخداع ، وإنما لم يحدثنا التاريخ عن ألوان هذا الخداع . . . »[١] .

ومع احترامي الشديد للأستاذ الدكتور أحمد بدوى ، ولكتاباته الأدبية والنقدية إلا أننى أرى – مع تواضع جهدى – أنه قد ظلم التاريخ ، وقسا عليه ، واتهمه بالصمت عما ذكره ابن القيسرانى فى حق عماد الدين مما يسهم فى إضرام نار العداوة بين الشعر والتاريخ ، وإسهامًا فى تجلية الحقيقة . وإنصافًا لها نذكر أن التاريخ قد تحدث عن هذا الخداع ، وفى أكثر من موضع مما يجعل كلام الدكتور أحمد بدوى عاريًا تمامًا من الحقيقة ، وإليك ما جاء فى بعض كتب التاريخ المشهود لها ، والمعترف بها .

قال ابن الأثير فى كتابه (الكامل) : « وكان أتابك[٢] يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها ، فيتعذر عليه ملكها لما هى عليه من الحصانة ، فاشتغل بديار بكر[٣] ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد بلادهم ، فلما رأوا أنه غير قادر على ترك الملوك الأرتقية[٤] وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث أنه محارب لهم ، اطمأنوا » وفارق جوسلين[٥] الرها ، وعبر الفرات إلى بلاد الغربية ، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبرته ، فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه »[٦] .

---

(١) الحياة الأدبية ص ٤٥٥ .

(٢) أتابك : هو عماد الدين زنكى .

(٣) فى الجزيرة بشمالى العراق ، وكان قد ملكها .

(٤) نسبة إلى والد عماد الدين وهو « آق سنقر » أصل البيت الأتابكى .

(٥) هو جوسلين الثانى (joscelin II) أمير الرها الصليبى .

(٦) الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ٩٨ .

وقال الدكتور عماد الدين خليل فى كتابه (عماد الدين زنكى) : « وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من أقصر طريق . . »[١]، ثم ذكر ما قاله ابن الأثير .

وذكر التاريخ أيضاً أن عماد الدين زنكى قد استخدم الحيلة مع الملوك والأمراء الذين كانوا يجاورنه من كل الاتجاهات ، ولما أحاط بالرها استخدم الخدعة أيضاً فى الدخول إليها ، وفتحها ، فقد نقب رجاله من أهل خراسان وحلب نقبا فى بطن الأرض من تحت سور المدينة ، ولما فرغوا منه استأذنوا عماد الدين فى إطلاق النار عليها[٢] .

وقد سجل شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى المعروف «بأبى شامة» فى كتابه (الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية) كثيراً من المعارك الصليبية مع تدبيجها بالشعر الحماسى الذى يتلألأ ضياء بجهود عماد الدين وخلفائه الأبطال .

ومن شعراء بالشام الذين سجلوا أحداث الرها الشاعر أبو الحسن أحمد المعروف بابن منير الطرابلسى الذى قال :

صفاتُ مجدِك لفظٌ جلَّ معناه
فلا استردّ الذى أعطاكه الله
أضبحتَ دون ملوكِ الأرض منفرداً
بلا شبيه ، إذ الأملاك أشباه

---

(١) عماد الدين زنكى ص ١٥١ طبعة مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨٢ م ، الطبعة الثانية .

(٢) راجع كتاب « ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى » ص ٢٧١ و ٢٨٠ .

ملاكٌ تنامُ عن الفحشاءِ همّتُه
تقىً ، وتسهرُ للمعروفِ عيناه
فتحٌ أعادَ على الإسلامِ بهجتَه
فافترّ مبسمُه ، واهتزّ عطفاه
إن الرُّها غير عمورية ، وكذا
مَنْ رامها ، ليسَ مغزاه ، كمغزاه
حتى دلفتَ لها بالعز يشحذُه
رأى ببيتُ فويقَ النجم مسراه

والواقع أن ابن منير لم يمن فى هذه الأبيات (وغيرها كثير) بتسجيل أحداث الرُّها قدر عنايته بالإشادة بعماد الدين ، وتسجيل فتحه لهذه المدينة التى أعاد على المسلمين البهجة والسرور .

وإذا كان فى الأبيات بعض التكلف فى الصناعة اللفظية مما يبعدها كثيراً عما استشهدنا به من ضروب الحماسة فى العصور السابقة فإن فيها مضموناً حيًا ، وعاطفة صادقة ، وحرارة نابضة ، إلى جانب الروح الدينية المتوهجة ، ولهذا جاءت المعانى متسقة مقبولة .

٢ — معركة حطين(١) وفتح بيت المقدس

تعد معركة حطين أعظم المعارك التى وقعت بين المسلمين والصليبيين فى ذلك العصر ، وكان انتصار المسلمين فى هذه المعركة السبب الأول لقدوم حملات صليبية جديدة بقيادة رؤساء دول ألمانيا وفرنسا وانجلترا .

---

(١) حطين سهل جبلى بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس (موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٥ ص ٦١١) .

وقد قام الصليبيون فى الشام ببعض الأعمال المتهورة ، إذ نقض (أرناط) أمير الكَرَك والشَّوْبَك المعاهدة التى كانت بينه وبين صلاح الدين ، و « جرد أسطولا يعبث بشواطىء الحجاز ، ويهاجم المسلمين ، كما دأب على مهاجمة القوافل ، وسلب متاعها وأسر أفرادها ، وحدث فى إحدى الغارات أن أسر هذا الأمير أخت صلاح الدين ، وكانت مسافرة فى إحدى القوافل ، وكان ذلك بمثابة الشرارة التى أضرمت النار ، وأدت إلى موقعة حطين الشهيرة »(١)

واستنفر صلاح الدين الناس للجهاد ، وحاصر عكا ، وأغار عليها وعلى الكرك ، ثم تجمعت جيوشه للمعركة الفاصلة فى حطين ، واستعدت لملاقاة الأعداء الذين كانوا فى عدد ضخم قدر بثلاث وستين ألفاً(٢) بينما كان جيش المسلمين يبلغ اثنى عشر ألف مقاتل ، واحتدم القتال فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً ، ولم ينج من الفرنجة إلا عدد قليل قدر بألف ، وانهزم الباقون بين الأسر والقتل ، وممن وقع فى قبضة المسلمين ملك بيت المقدس ، وأمير الكرك ، وأرسل الناصر الأسرى إلى دمشق ، وشمل الكثيرين منهم بعفوه ، وفى مقدمتهم ملك بيت المقدس ، ولم يكن صارماً إلا مع أرناط (أمير الكرك) الذى كان متهوراً طائشاً عندما سخر من الإسلام ، وأساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، واعتدى على الحجاج ، وفعل ما استوجب قتله بيد صلاح الدين براً بقسمه ، وتحقيقاً لنذره .

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٥ ص ٦١٠ .
(٢) فى أحد الأقوال .

ولم ينتظر الناصر حتى يفيق الصليبيون من هذه الهزيمة البشعة ، فواصل سيره حتى استسلم له حصن طبرية ، واحتل عكا ، والناصرية وقيسارية ، وحيفا وصيدا ، وبيروت .

ثم اتجه إلى بيت المقدس ، وحاول أن يدخلها صلحا لمكانتها فى نفوس المسلمين ، غير أن الأعداء تحصنوا بها ، وتجهزوا للقتال ، واشتبكوا مع جيش صلاح الدين ، ولما يئس الفرنجة من النصر مالوا إلى الصلح ، واتفق الطرفان عليه ، وخرج الصليبيون من هذه المدينة المقدسة فى شهر رجب من السنة المذكورة .

وقد مجّد الشعر الحماسى معركة حطين ، ونقل أحداثها ، وسجل ما وقع فيها ، وصور انهزام الأعداء وتقهقرهم أمام جيش المسلمين .

ومن الشعراء الذين لازموا صلاح الدين ، ومدحوه ، وأشادوا به ، وسجلوا انتصاراته العماد الأصبهانى[1] الذى قال بعد انتصار حطين العظيم :

حططْتَ على حطينَ قَدْرَ ملوكهم
ولم تُبْقِ منْ أجناسِ كفرهِم جِنْسَا
غداةَ أسودُ الحربِ معتقلو القنَا
أساودُ تبغى من نحور العدَا نَهْسَا[2]

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أبى الفرج محمد بن حامد المعروف بالعماد الأصبهانى وهو كاتب وشاعر ، وقد توفى بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ، وترك مؤلفات كثيرة ، منها « خريدة القصر وجريدة العصر » ، راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ١١ .

(٢) نهسا : مصدر نهس أى تبغى أن تنهشه بمقدم أسنانها .

أتَوْا شُكُسَ الأخلاقِ خُشْناً فَلَيَّنَتْ
حدودُ الرقاقِ الخُشْنِ أخلاقَها الشُّكْساَ

فكيفَ مكَسْتَ المشركينَ رءوسَهُمْ
ورأيُكَ في الإحسانِ أن تطلقَ المَكْساَ[١]

كسَرْتَهُمْ إذْ صَحَّ عزمُكَ فيهمُ
وَنكَّسْتَهُمْ من بعدِ أعلامِهِمْ نَكْساَ

بواقعةٍ رُجَّتْ بها أرضُ جيشِهِمْ
ومارتْ كما بُسَّتْ جبالُهُمْ بَسَّا

بطونُ ذئابِ البَرِّ صارتْ قبورَهُمْ
ولم تَرْضَ أرضٌ أن تكونَ لهم رَمْساَ[٢]

وحامَتْ على نارِ المواضِي فَرَاشُهُمْ
لِتُطْفَا فزادتْ من خُمُودِهِمْ قَبْساَ[٣]

وقد خاطب العماد في هذه الأبيات — وهي من قصيدة طويلة — صلاح الدين، وأشاد بانتصاره على ملوك الصليبيين في حطين حيث قضى عليهم، وأباد أجناسهم الكافرة بجنوده البواسل الذين التهموا الأعداء، ونهشوا لحومهم .

وذكر العماد أن جنود الناصر صلاح الدين يوسف قد حاربوا قومًا خُشْنًا أخلاقهم، وانتصروا عليهم، وتمكنوا من تليينهم والفوز عليهم بحدود سيوفهم الخشنة، وفازوا برءوس الأعداء التي أطاحوا بها، كما تنكست أعلامهم

---

(١) المكس : ما يأخذه أعوان السلطان .

(٢) رمسا : قبرا .

(٣) نار المواضي : لمعان السيوف ، الفراش : طائر يحوم حول النار .

فى أرض حطين التى ذابت من تحت أرجلهم ، فتحولوا إلى طعام للذئاب ، وكأن بطون الأرض قد أبت أن تكون قبوراً لهم خشية أن يدنسوها بجسومهم .

وذكر الشاعر أنهم فى أثناء المعركة كانوا يتطايرون لخفة حلومهم — كالفراش — على نار سيوف المسلمين فيقعون فيها ، وتزداد اشتمالا بهم ، ثم قال :

وقد خَشَعَتْ أصواتُ أبطالها فما
يَعِى السمع إلا منْ صليل الظُّبَى هَمْسا[1]

تُقَادُ بدأماءِ الدِّماءِ ملوكُهُمْ
أسارى كَسُفْنِ اليمِّ نيطتْ بها القَلْسا[2]

سَبَاياً ، بلادُ اللهِ مملوءةٌ بها
وقد عُرِضت بَخْسًا ، وقد شُرِيت بَخْسا

يُطافُ بها الأسواقُ لا راغبٌ لها
لكثرتها ، كمْ كثرةٍ تُوجب الوَكْسا[3]

شكا يَبَسًا رأسُ البُرُنسِ الذى به
فَنَدَّى حسامٌ حاسِمٌ ذلك اليُبْسا

حَسَا دَمَهُ ماضِى الغِرَار لغدرهِ
وما كان لولا غدرُهُ دمُهُ يُحْسَى[4]

---

(١) الظبى : السيوف .

(٢) الدأماء : البحر ، القلس — بفتح القاف : الحبل الضخم من حبال السفن .

(٣) الوكس : النقص والبخس فى الثمن .

(٤) حسا : شرب ، الغرار : حد السيف .

أبرز العماد فى هذه الأبيات كسابقتها بعض ما دار على حطين ، حيث علا صليل السيوف على أصوات الرجال ، وما أن انتهى القتال حتى اقتيد الملوك فى بحر من الدماء كأنهم سفن نيطت بها الأحبال الغليظة ، وأخذوا أسرى . ولكثرتهم ضاقت بهم الأرض ، ونودى عليهم للبيع فى الأسواق ، ورغب الناس عنهم ، فانخفضت أسعارهم حتى قيل إن الواحد منهم كان يباع بثلاثة دنانير ، وقيل : إن من شاهد الأسرى كان يظن أن الصليبيين جميعا قد أسروا ، ومن شاهد القتلى كان يظن أن الصليبيين جميعا قد قتلوا ، وذكر أن السيف الصارم قد حسم أمر قائد الصليبيين ، فأسال الدم حتى ارتوى به جزاء لغدره وخيانته .

ولعلك لاحظت معى كلف الشاعر بالبديع ، وحرصه على توشية أسلوبه بالمحسنات المختلفة ، وقد كان العماد كاتباً متأثراً فى أسلوبه النثرى بالقاضى الفاضل[1]، فسرى هذا التأثر إلى الشعر على نحو ما رأيت .

وعندما خرج الصليبيون ليلة الإسراء والمعراج فى سنة ٥٨٣ هـ من بيت المقدس وعادت المدينة إلى حوزة المسلمين ، وتحققت آمالهم التى طال الشوق إليها ، وأصبحت أحلامهم حقيقة واقعة ، عند ذلك استجاب الشعراء لهذا الحدث العظيم ، وسرت البهجة فى كل أوصالهم حتى غمرتهم النشوة ، وارتفعت ألسنتهم بالمديح والثناء ، وجلجلت أصواتهم الحماسية ، وأخذوا يسجلون فى قريضهم انتصارات صلاح الدين المتعاقبة .

قال أبو الحسن بن على الجوينى من قصيدة حماسية طويلة :

جندُ السماءِ لهذا المَلْكِ أعوانُ
مَنْ شكَّ فيهم فهذا الفتحُ بُرْهانُ

(١) هو عبد الرحيم البيسانى ، الكاتب المشهور فى عهد صلاح الدين .

هذى الفتوحُ فتوحُ الأنبياءِ وما
لها سِوَى الشكر بالأفعال أثمانُ
أضحتْ ملوكُ الفرنج الصيدُ فى يدهِ
صَيْداً ، وما ضَعُفُوا يوماً وما هانُوا
تسعون عاما بلادُ اللهِ تصرُخُ والإسْـ
لامُ أنصارُهُ صُــــمٌّ وَعُمْيَانُ
فالآن لبّى صلاحُ الدين دعوتَهُمْ
بأمر مَنْ هو للمعْوَانِ مِعْوَانُ
إذا طوى اللهُ ديوانَ العبادِ فما
يُطوى لأجْر صلاحِ الدين دِيوانُ

وتبدو فى الأبيات عاطفة الجوينى ، الملتهبة بانتصارات صلاح الدين التى تشبه فتوح الأنبياء فى تحرير العقائد ، وبسط الإيمان .

ويذكر الشاعر كيف كانت بلاد الإسلام تصرخ وتصرخ حتى أستجاب لها صلاح الدين ولبّى دعوتهـا بأمر الله ، الذى سوف يجزيه بعظيم الأجر والثواب .

ولقد كثر الشعر الذى قيل عن فتح بيت المقدس ، وعرف باسم « القدسيات » نتيجة لتوافد الشعراء على السلطان من كل مكان ، ومن لم يقدر منهم على السير إليه ، أرسل شعره حيث يوجد فى مصر أو فى العراق أو فى غيرهما .

فقال الجوانى[1] ، وهو نقيب الأشراف فى مصر :

---

(١) هو محمد بن أسعد بن على بن معمر الحانى .

أترى مناماً ما بعيني أبصرُ   القدسُ يُفتح والفرنجة تُكسَرُ
ومليكهُمْ في القيدِ مصفودٌ ، ولمْ   يُرَ قبلَ ذاك لهم مليكٌ يُؤسَرُ

وقال ابن الساعاتي[1] :

فليتَ فتى الخطابِ شاهدَ فتحَها
فيشهدُ أنَّ السَّهمَ مِنْ يوسُفَ أحمَى

وانتهز ابن جبير[2] فرصة انتصار صلاح الدين على الصليبيين فوجه إليه هذه القصيدة التي أعرض لك جزءاً منها حيث سجل فيه بعض ما دار في حطين وبيت المقدس قال :

أطلّتْ على أفقكَ الزّاهرْ   سعودٌ من الفَلَكِ الدائرْ
فأبشرْ فإنَّ رقابَ العدا   تُمَدّ إلى سيفِكَ الباتِرْ
كسرْتَ صليبَهُمْ عنوةً   فللهِ دَرُّكَ من كاسِرْ
وغيّرْتَ آثارَهُمْ كلّها   فليسَ لها الدَّهرُ من جابرْ
وقمتَ بنصرِ إلهِ الوَرَى   فسمّاكَ بالملكِ الناصرْ
وتسهرُ ليلَكَ في حقِّ من   سيُرضيكَ في جفنِك السّاهرْ
وجئتَ إلى قُدسِهِ المُرتضَى   فخلّصْتَهُ من يدِ الكافرْ
وأعليْتَ فيه منارَ الهُدَى   وأحييْتَ من رسمِهِ الدائرْ[3]

ولعل أهم ما يميز هذا الشعر ما فيه من عاطفة دينية ، وابتهاج قوي بهذه

---

(١) خراساني الأصل ، عاش حياته بين مصر والشام ، وتوفي سنة ٦٠٤ هـ .
(٢) هو الرحالة المعروف بابن جبير الأندلسي الذي كان من أشد المعجبين بصلاح الدين .
(٣) راجع هذا الشعر وغيره في كتاب الروضتين لأبي شامة .

الانتصارات . « وقد كان انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين على الصليبيين فى وقعة حطين ، ثم دخولهم القدس من الحوادث التى أنطقت البكم والخرس . واهتز لها المسلمون فى طول البلاد وعرضها طرباً ، وسكروا بخمرة الفرح والسرور ، وظهر ذلك بين الشعراء ، فطفقوا ينظمون القصائد الطوال فى التغنى بهذا النصر العظيم »(١) .

وأرى أن الشعر الذى تابع هذه المعارك ، واهتم بها ، وسجل أحداثها قد اتسم بالحماسة القوية . والعاطفة الدينية ، لكنه مع ذلك لم يرتفع بالأداء الفنى إلى مستوى هذه الانتصارات ، فأين هذا الشعر – على كثرته – من روائع أبى الطيب فى حروب سيف الدولة مع الروم ، وروائع أبى فراس فى حروب سيف الدولة مع العرب .

٣ – معركة دمياط سنة ٦١٨ هـ

اتخذ الصليبيون من دمياط معبراً لدخول مصر ، وقد هوجمت فى عهد صلاح الدين ، وباء هجومهم بالفشل ، ثم أتوا إليها فى شهر صفر سنة ٦١٥ هـ من فلسطين عن طريق البحر ، وحاصروها قرابة عام ونصف . وفى أثناء الحصار مات سلطان مصر الملك العادل أخو صلاح الدين ، فتفرقت الكلمة ، وتركت جيوش الأيوبيين مواقعها فى مواجهة الفرنجة عند دمياط ، فتيسر للأعداء العبور إليها فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ، وبقى الناس يدافعون عن بلدهم حتى عجزوا عن الحركة ، واستسلموا فى شعبان سنة ٦١٦ هـ بعد مقتل الكثير منهم .

---

(١) الحروب الصليبية لمحمد سيد كيلانى ص ٢١٢ .

قال ابن الأثير[١] : « ولما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها ، وبثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون ، فجلا أهلها عنها ، وشرعوا في عمارتها وتحصينها ، وبالغوا في ذلك حتى إنها بقيت لا ترام »[٢] .

وقد حزن المسلمون لسقوط دمياط ، وأعلن الملك الكامل محمد بن الملك العادل الجهاد العام في مصر ، وأرسل إلى أقاربه في سائر الدولة الأيوبية ، وجاء إليه وتعاون معه أخواه المعظم عيسى صاحب دمشق ، والأشرف موسى صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرها ، واتحدت الأسرة الأيوبية كاتحادها في عهد صلاح الدين ، وكان الكامل قد عسكر بجيشه في موضع[٣] بالقرب من المنصورة[٤] ، وعرض على الصليبيين أن يرد لهم بيت المقدس وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ، فلم يرضوا بذلك ، ولم يجد المسلمون بدا من القتال ، فانتقلت فرقهم خلف الأعداء الذين كانوا قد تركوا دمياط ، واتجهوا صوب المنصورة ، وقد دارت معركة شديدة تمكن المصريون فيها من تحقيق النصر بعد أن قطعوا سد النيل فغمرت مياهه عساكر الصليبيين الذين لم يبق لهم إلا طريق واحد ضيق إلى دمياط استطاع المصريون أن يمتلكوه ، ففشل الأعداء في العودة إلى دمياط . « هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم

---

(١) هو العلامة عز الدين علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير صاحب كتاب « الكامل في التاريخ » وغيره من أمهات الكتب .

(٢) الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٣٢٦ .

(٣) كان يقال له « أشموم طناح » واسمه الآن « أشمون الرمان » .

(٤) أنشأها الملك الكامل محمد سنة ٦١٦ هـ بعد سقوط دمياط في أيدي الفرنجة ، وقد أقامها مدينة لجنوده وسماها بالمنصورة تفاؤلا لها بالنصر والدوام . راجع كتاب « مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي » للدكتور عبد العال الشامي ص ١٩ الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ .

بالنشاب ، ويحملون على أطرافهم ، فلما اشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم ، وأرادوا الزحف إلى المسلمين ، ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط . فرأوا ما أملوه بعيداً ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم ، والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون »[١] .

وعندما تأكدوا من فشلهم ، وأحسوا أن المنايا قد كشرت عن أنيابها ، أرسلوا إلى الملك الكامل يسألونه الأمان لأنفسهم على أن يسلموا دمياط بغير عوض ، وتموا الصلح فى شهر رجب سنة ٦١٨ هـ (أغسطس ١٢٢١ م) .

وعادت دمياط إلى مصر بعد كفاح مرير مع الصليبيين فعمت البهجة قلوب المسلمين ، وأشاد الشعراء بهذا الفوز ، وسجلوا جهاد الأيوبيين لاسترجاع هذا الثغر بعد حروب دامت أكثر من ثلاث سنوات .

وللبهاء زهير[٢] قصيدة فى خمسين بيتاً سجل فيها انتصار المسلمين على الفرنجة فى هذه الموقعة التى يقول فيها موجها حديثه إلى سلطان مصر الكامل محمد[٣] :

بكَ اهتزَّ عِطْفُ الدين فى حُلَلِ النَّصْرِ
وَرُدَّتْ على أعقابها ملَّةُ الكُفْرِ
وما فَرِحت مِصْرٌ بذا الفَتْحِ وَحْدَها
لقد فرحت بغدادُ أكثرَ مِنْ مِصْرِ

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٦٠٦ .

(٢) ولد بمكة ، وعاش بمصر ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

(٣) راجع القصيدة فى الديوان ص ٩٩ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٢ .

فمن مبلغٌ هـذا الهنـاءَ لمـكةٍ
وبثربَ تنهيه إلى صاحبِ القبرِ
فقل لرسُـــول اللهِ إن سَمِيَّهُ
حمَى بيضةَ الإسلام من نُوَبِ الدهرِ
به ارتُجِعَتْ دمياط قهراً من العدَا
وطهَّرَها بالسَّيفِ والملةِ الطُّهْرِ

والأبيات السابقة تؤكد لك ما لم يؤكده غيرها من حيث التعبير عن الوحدة العربية والتأكيد على توافق المشاعر الوجدانية عندما عمَّ الفرح قلوب المسلمين أينما وجدوا فى مدن العراق والشام ، أو فى الحجاز حيث توجد مكة والمدينة التى بها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تؤكد الأبيات أن الظفر كان للاسلام على الكفر ، وأصبح ذلك منهجا لسائر شعراء الحماسة فى هذا العصر ، ولعل فيما يأتى من أبيات ما يجلو تلك الحقيقة ويزيدها تأكيداً، ثم يصف المعركة فيقول :

وليلةُ ثغرٍ للعـــــدو كأنها
بكَثْرَةِ مَنْ أَرْدَيْتَهُ ليلةُ النَّحْرِ
ويا ليلةً قد شَرَّفَ اللهُ قَدْرَها
ولا غَرْوَ إن سَمَّيْتَها ليلةَ القَدْرَ
سَدَدْتَ سَبِيلَ البَرِّ وَالبَحْرِ عنهمُ
بسابحةٍ دُهْمٍ ، وسَابحـةٍ غُرٍّ(١)

---

(١) الجياد السابحة : السريعة العدو .

أساطيلُ لَيْسَتْ فى أساطِير مَنْ مَضَى
بكل غُرابٍ راحَ أفتكَ من صَقْرِ(١)

وجيشٌ كمثل الليل هَوْلاً وَهيبةً
وإن زانه ما فيكَ من انجُم زُهْرِ

وباتَتْ جنود الله فَوْقَ ضوامِرِ
بأوضاحها تغنى السُّرَاةَ عَن الفَجْرِ(٢)

فرَوَّيت منهم ظَامِئَ البيضِ وَالقَنا
وأشْبَعْتَ منهم طاوِىَ الذئبِ والنَّسْرِ(٣)

وقد جعل البهاء ليلة المعركة كليلة النحر لكثرة القتلى من الأعداء ، وإن كان قد شبهها بليلة القدر لجلال ما جرى فيها من نصر المسلمين . وتحدث عن جيوش السلطان فى البر والبحر ، فأشاد بقوتها وفتكها ، وقد باتت يقظة فوق الخيول الضامرة التى أضاءت بحليها طرق السير فى الليل البهيم . ولم تنته المعركة إلا بارتواء سيوف الكامل ورماحه ، وإشباع الوحوش الطاوية من لحوم الفرنجة الغزاة .

والأبيات تبرز ما كان المسلمون يشعرون به من خوف على الإسلام ، وتكشف عن شخصية البهاء ، ومع أنه من شعراء الطبقة الثانية فى هذا العصر إلا أن شعره من أفضل ما قيل فى هذه المناسبة .

---

(١) الغراب : نوع من السفن فى ذلك الوقت .

(٢) الضوامر : الجياد ، الأوضاح : الحلى التى تتزين بها الخيول ، السراة : السائرون ليلا .

(٣) الطاوى : الجائع

وممن سجلوا الانتصار فى هذه الوقائع الشاعر المشهور ابن عُنَيْن(١) الذى قال :

سَلُوا صهوات الخيل يومَ الوغى عنَّا
إذا جُهِلَتْ آياتنا — والقنا اللُّدْنا(٢)

غداةَ لقينا دون دِمْيَاطَ جَحْفَلاً
من الرُّومِ لا يُحْصَى يقيناً ولا ظنّاً

قد اتفقوا رَأْياً وَعَزْماً وَهِمَّةً
وَدِيناً ، وإن كانوا قد اختلَفُوا لُسْنَا(٣)

عليهم من الماذِىِّ كلُّ مُفَاضَةٍ
دِلاَصٍ كَقَرْنِ الشمس قد أُحْكِمَتْ وَضْنَا(٤)

وأطمعهم فينا غرورٌ فأرْقَلُوا
إلينا سِرَاعاً بالجياد ، وأرْقَلْنَا(٥)

وصف الشاعر فى هذه الأبيات جيش الأعداء — كما كان يفعل المتنبى — فكانوا كثرة لا تحصى ، وقد اختلفت لغاتهم لكنهم اتفقوا فى الرأى

---

(١) هو محمد بن نصر الله بن الحسين ، أصله من الكوفة ، وولد بدمشق ، وطاف بالبلاد الإسلامية حتى استقر فى دمشق وتوفى بها سنة ٦٣٣ هـ

(٢) اللدن : اللينة المرنة

(٣) لسن : جمع لسان وهو اللغة

(٤) الماذى : السلاح الحديدى ، المفاضة : الدروع الواسعة ، دلاص : لينة براقة ، وضنا : سجنا .

(٥) أرقلوا : أسرعوا

والهزيمة . وحمل جيشهم الأسلحة الحديدية والدروع السابغة التى أحكم نسجها ، وأسرع كل فريق من المتحاربين إلى اللقاء الذى يصفه ، فيقول :

فما بَرِحَتْ سُمْرُ الرماح تنوشُهُمْ
بأطرافها حتّى استجارُوا بنا مِنّا(١)
لقد صَبَرُوا صَبْراً جميلا ، ودافعُوا
طويلا فما أجْدَى دفاعٌ ولا أغْنَى
لقَوْا الموتَ من زُرْقِ الأسِنَّةِ أحْمَرًا
فألقَوْا بأيديهم إليفـا فأحْسَنَّا(٢)
وما بَرِحَ الإحسانُ منا سجيةً
تَوَارثُها عن صِيدِ آبائنا الابْنَا(٣)
منحنا بقـايَاهُمْ حياةً جديدةً
فعاشُوا بأعنـاقٍ مقلدةٍ مَنّا(٤)
ولو مَلَكُوا لم يأتَلُوا فى دمائنا
وُلُوغًا ، ولكنا مَلَكْنَا فأسْجَحْنَا(٥)
فكم من مليكٍ قد شَدَدْنا إسَارَه
وكم من أسيرٍ من شَفَا الأسْرِ أطْلَقْنَا(٦)

---

(١) تنوشهم : تقتلهم .
(٢) الموت الأحمر : القتل لكثرة مايصاحبه من الدم
(٣) الصيد : جمع أصيد وهو السيد .
(٤) المن : النعمة التى يمن بها صاحبها على من أحسن بها إليه .
(٥) لم يأتلوا : لم يقصروا ، أسجح : صفح .
(٦) إسار : قيد ، شفا : جانب .

أُسُودُ وَغًى لولا قِراعُ سُيوفِنا
لما ركبوا قَيْداً ، ولا سكنوا سِجْناَ

وقد أخذ المسلمون يقتلون الأعداء بالرماح حتى استسلموا بعد أن استبسلوا فى دفاعهم ، ولما واجهوا الموت ، ويئسوا من النصر ألقوا أسلحتهم عن يد وهم صاغرون . وكان أن عفا المسلمون عنهم ، وأحسنوا إليهم ، ولم يقابلوا إساءتهم إلا بالصفح الجميل ، ولم يقتلوهم مثلما كان الصليبيون يفعلون من قتل وإبادة المسلمين عند دخول بلادهم ، أو عند الانتصار عليهم ، ولهذا أشاد الفرنجة عندما رجعوا إلى بلادهم بتسامح المسلمين ، وصفحهم عن الأسرى بعد كل انتصار ، وقد امتلأ الأعداء كراهية وبغضاً ، ولو كانوا هم المنتصرين لأهدروا دماء المسلمين ، ومثّلوا بالقتلى منهم . وذكر الشاعر أن المصريين قد عفوا عن ملوك الفرنجة وأبطالهم الذين وقعوا فى الأسر . ولعل ابن عنين قد شاهد بعضا من جرائم الصليبيين فى الشام ، فمن عليهم بهذا الصفح والعفو والغفران من جانب المسلمين .

وهكذا عبر الشعراء عما يجيش فى وجدان الأمة ، وتابعوا جرائم المعتدين الغزاة ، وسجلوا انتصارات الإسلام فى معاركه الخالدة .

٤ ــ معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ[١]

نزل الصليبيون على الجانب الغربى من النيل عند دمياط فى شهر صفر

(١) فى معركة دمياط سنة ٦١٨ هـ . لم يكن للمنصورة تاريخ جغرافى أو وضع إقليمى ، ولهذا نسب ماجرى حولها من معارك فى تلك السنة إلى دمياط . أ[ما] معارك سنة ٦٤٨ هـ فقد تغير وضع مدينة الكامل محمد ، وأصبحت بالشهرة لل[…] للمؤرخين أن يتحدثوا عنها ، وينسبوا اليها ماجرى فيها وحولها من المعارك .

سنة ٦٤٧ هـ (يونيو سنة ١٢٤٩ م) وتقهقر الجيش المصرى وترك لهم هذه المدينة التى عانت كثيراً من الغزو الصليبى ، وانسحب تجاه المنصورة ، واستقر فى جديلة[1] ، واستطاع الأعداء أن يقتربوا من الجيش المصرى ، ولم يفصل بين الجيشين إلا البحر الصغير ، ثم عبر الصليبيون إلى جديلة ، وانسحب المصريون إلى المنصورة ، وأبلوا فيها بلاء حسناً فى الدفاع عنها من جيوش الصليبيين الذين دخلوا المنصورة نفسها ، ووصلوا إلى باب السلطان ، وأسرفوا فى غرورهم وتحديهم حتى قاد بيبرس المقاومة فبدأت الانتصارات على يديه ، وحل التقهقر بالأعداء ، ووضعوا تحت الحصار ومنعت عنهم الميرة والأطعمة ، وغنم المسلمون من أموالهم مالا يحصى ، ولحقت بهم الهزيمة ، وقتل عدد كثير منهم فى فارسكور وغيرها ، ووقع قائدهم لويس التاسع فى الأسر فى محرم ٦٤٨ هـ (أبريل ١٢٥٠ م) .

وقد مات فى أثناء الحرب سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأخفت زوجته (شجرة الدر) نبأ وفاته حتى لا يتأثر الجيش بالخبر ، وأدارت المعركة بمعونة مماليك زوجها حتى تحقق النصر الذى فرح به المسلمون فى كل مكان .

والشعر الذى قيل فى هذه الموقعة قليل جداً إذا قيس بما قيل فى الانتصار السابق على الفرنجة فى الموضع نفسه فى عهد الملك الكامل محمد والد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وربما انصرف الناس ومعهم الشعراء إلى الاضطرابات التى حدثت فى هذه المعركة ، وامتدت إلى ما بعد الانتهاء منها كمقتل توران شاه ابن الملك الصالح ، وجلوس شجرة الدر على العرش ، واستنكار الناس لهذا

---

(١) بلد فى ضواحى المنصورة .

التصريف الذى لم يتعودوا عليه . لقد انشغل الشعراء بهذه الأحداث على حساب الانتصار العظيم فى المنصورة ، ولم نقرأ لهم — مما وصل إلينا — إلا أشعاراً قليلة كان منها ما قاله ابن مطروح[1] فى هذه المناسبة :

قُلْ للفرنسيسَ إذا جئتَهُ
مقالَ صدقٍ من قئولٍ نَصِيحْ[2]
آجَرَكَ اللهُ على ما جرى
من قتل عُبَّادِ يسوعَ المسيحْ
أتيت مصرَ تبتغى ملكها
تحسبُ أن الزمرَ يا طبلُ ريحْ
فَسَاقَكَ الحَيْنُ إلى أدْهَمٍ
ضاقَ به عن ناظريك الفسيحْ[3]
وكلُّ أصحابك أودعتَهُمْ
بحسنِ تدبيرك بطنَ الضريحْ
خمسون ألفاً لا يُرَى منهمُ
إلا قتيلٌ أو أسيرٌ أو جريحْ
وفقك اللهُ لأمثالها
لعلَّ عيسى منكمُ يستريحْ

(١) هو الشاعر المصرى جمال الدين يحيى بن مطروح ، الذى ولد بمدينة أسيوط سنة ٥٩٢ هـ وأتم علومه بالأزهر ، ومدح الصالح أيوب ، وتوفى سنة ٦٤٩هـ أو ٦٥٠هـ على بعض الأقوال .

(٢) الفرنسيس : هو لويس التاسع .

(٣) الحين : الأجل ، الأدهم : الأسود ، والمراد القيد الحديدى .

إن كان باباكم بذا راضياً
فربّ غشٍ قدْ أتى من نصيحْ
وقلْ لهم إن أضمَرُوا عودةً
لأخذ ثأرٍ أو لعقدٍ صَحِيحْ
دارُ ابن لقمان على حالها
والقيدُ باقٍ وَالطّواشى صبيحْ(١)

وقد ذكّر ابن مطروح لويس التاسع بما جرى له فى مياط والمنصورة عندما افتدته زوجته بخمسين ألف دينار ، ورجع إلى بلاده ، وأعلن استعداده للعودة إلى حرب مصر . وهنا أرسل الشاعر هذه الأبيات التى كانت بمثابة نذير يسمعه لويس وغيره من الفرنجة ممن كانت تسوّل لهم أنفسهم غزو مصر .

وفى الأبيات خفة فى الصياغة تواكب الروح المصرية ، فضلا عما بها من تهكم وسخرية ومبالغة مقبولة وحرص على البديع .

أرأيت كيف حرص الشعراء مع اختلاف أوطانهم على تسجيل ما دار فى معارك الصليبيين ، وكيف ابتهروا بانتصارات المسلمين ، فأخذوا يشيدون بكل انتصار ، ويسجلون كل فوز ، ويعبرون عن وجدان الأمة ، ويستجيبون لوحى الضمائر وصوت التحريض .

إن هذا الشعر الحماسى — مع ما يوجه إليه من نقد — لذو قيمة عالية القدر فى هذا العصر الدامى ، فلنرجع — مثلا — إلى ما قاله ابن مطروح حتى نرى

---

(١) الطواشى صبيح : هو الحارس على لويس فى دار ابن لقمان بالمنصورة .

. موق القيمة الأدبية — كم من الحقائق التاريخية سجلها الشاعر فى أبياته كعدد القتلى والأسرى والجرحى ، ودار ابن لقمان ، وحارس لويس .

وكما سجل الشعر مادار فى كل انتصار سجل أيضا ماجرى فى المعارك من هزائم وانكسارات غير أن هذا اللون لايدخل فى دائرة الشعر الحماسى مع ما فيه من حسرة ولوعة ، ولهذا اتجه بعض الشعراء — مع أول عصر المماليك إلى المدائح النبوية كالبوصيرى وغيره .

وإذا كنت قدمت إليك بعضا من حديث الشعراء عن أهم المعارك التى انتصر المسلمون فيها فإن هناك معارك أخرى كثيرة تحدث عنها القريض وأشاد بها الأدب ، ويضيق المقام عن استيعابها والإفاضة فيها ، وإن كنا سوف نشير إلى بعضها فى صفحات تالية .

ثالثا — الإشادة بالأبطال والتهنئة بانتصاراتهم

لقد أشاد الشعراء بالبطولة والأبطال ، وتغنوا بالإنتصارات التى تحققت للعرب على الفرنج فى المواقع المتعددة بأرض الشام ومصر ، ومضى الشعر يسجل ماقام به الأبطال فى هذه الحروب من تضحية وفداء، تخليدا لأعمالهم، وإبرازا لبطولتهم .

١ — عماد الدين زنكى (١) .

هو واحد من الأبطال الذين سجل الشعر سيرتهم ، وخلد بطولتهم ، وقد نشأ فى حلب ، واهتم به السلاجقة ، ولذلك عندما كبر أظهر تفوقا واضحا فى

---

(١) كان والده أبو سعيد آق سنقر الملقب بقسيم الدولة ، والمعروف بالحاجب مملوكا للسلطان السلجوقى (ملكشاه بن ألب أرسلان) ومن المقربين لديه ، وهو ينتمى إلى قبائل (تركمانية) وقتل سنة ٤٨٧ هـ ، ولم يترك ولدا غير عماد الدين .

معاونيهم ، وإذ كان موظفا فى دواتهم تتولى واسطا والبصرة ، ولمقدرته الحربية رشح لتولى الموصل حتى يقف بحزم فى مواجهة الصليبيين ، وتسلم مهام منصبه فى رمضان سنة ٥٢١ هـ ، ثم استولى على حلب ، وعلى حصون كثيرة فى جزيرة الفرات و « لم يشأ زنكى الإشتباك مع الصليبيين منذ البداية ، ورأى أن يسعى أولا إلى تثبيت إمارته الجديدة ، وتعزيز إمكانياتها الإقتصادية والعسكرية ، وتوحيد ما يمكن توحيده من الإمارات الصغيرة المتناثرة التى تحيط به من كل مكان[١] » ثم حارب الصليبيين ، وانتصر عليهم فى مواقع متعددة ، وتحقق على يديه فتح الرها سنة ٥٣٩ هـ ، فمهد له الطريق للاستيلاء على الحصون المجاورة ، واسترجع سائر الأماكن التى كانت بأيديهم شرق الفرات[٢] ، وكان كثير الزواج لتحقيق بعض أهـــدافه السياسية والعسكرية[٣] ، وعرف بلقب (الأتابك[٤]) « وقـد بدأت تسمية زنكى بهذا اللقب فى شعبان عام ٥٢١ هـ عندما ولاه السلطان محمود الموصل ، وسلمه ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه (المعروف بالخفاجى) وجعله أتابكا لهما »[٥] .

وعندما كان نائما فى حراسة غلمانه أثناء حصاره لقلعة جعبر المطلة على الفرات قتله واحد منهم أو أكثر ، فى ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ فخسر المسلمون به بطلا كبيراً ، ومجاهدا عظيما ، أبلى بلاء حسنا فى مقاومة الصليبيين والدفاع عن الإسلام ، وحماية التراب العربى .

---

(١) عماد الدين زنـكى للدكتور عماد الدين خليل ص ١٣٨ .

(٢) ماعدا البيرة .

(٣) راجع كتاب عماد الدين زنـكى ص ١٧٢ .

(٤) تتـكون الكلمة من لفظين تركيين هما (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير أى (الأمير الوالد) .

(٥) عماد الدين زنـكى ص ٢٢٦ .

وممن أشاد به من الشعراء ابن القيسرانى الذى امتدح بطولته فقال :

هو السيفُ لا يُغنيك إلا جلادُه
وهلْ طوّق الأملاكَ إلا نجادُهُ
وعن ثغرِ هذا النصر فلتأخذ الظبى
سناها ، وإن فات العيونَ اتقادُهُ
سَمَتْ قبلةُ الإسلام فخراً بطولِه
ولم يك يسمو الدينَ لولا عمادُهُ
ليَهْنِ بنى الإسلام أمنٌ ترفّعتْ
رواسيه عزًّا ، واطمأنّ مهادُهُ
وفتحٌ حديثٌ فى السماء حديثُه
شهى إلى يوم المعـادِ معادُهُ

والأبيات واضحة الدلالة فى حماستها ، وقد نوّه الشاعر فيهـا بانتصار عماد الدين فى الرّها ، وأهاب بالسيوف أن تأخذ ضياءها وبريقها من ثغره ، ودعا العيون لتشبع النظر منه وإن تعذر عليها ذلك لاتقاده وتوهج ضيائه . وقد علت الـكعبة المشرفة بهذا الظفر ، وسمت بما حققه عماد الدين من استرجاع الأرض ، وتثبيت الأمن حتى وصلت أنباء هذا الفتح إلى عنان السماء .

وأنشده ابن القيسرانى أيضا :

حذارِ منّا ، وأنى ينفعُ الحذرُ
وهى الصّوارمُ لا تُبْقِى ولا تذَرُ
وأينَ ينجُو ملوكُ الشركِ من ملِكٍ
من خيْلِهِ النصرُ لا بل جندُهُ القدَرُ

سَلّوا سُيوفاً كأغمادِ السيوفِ ، بها
صالوا ، فما أغمدوا نصلاً ولا شهروا
حتى إذا ما عمادُ الدينِ أرهقهمْ
فى مأزقٍ ، من سناه يبرق البصرُ
وَلّوا تضيقُ بهمْ ذرعًا مسالكُهمْ
والموتُ لا ملجأ منه ولا وزرُ

وقال ابن منير الطرابلسى :

فدتكَ الملوكُ وأيامُها ودامَ لنقضكَ إبرامُها
وزلّتْ لعيشكَ أقدامُها وزالَ لبطشكَ إقدامُها
ولو لم تُسلِمْ إليكَ القلوبُ هُداها ، لما صحّ إسلامُها

وقال أيضا :

ملكٌ أسهرَ عيناً لم تزلْ
همُّها تشريد هم الراقدين
لا خلتْ من كحل النصر فقدْ
فقأتَ غيظًا عيون الحاسدين
لو جرَى الإنصافَ فى أوصافه
كان أولاها أميرَ المؤمنين

وهكذا وجد عماد الدين أكثر من شاعر يشيد به ، ويسجل انتصارته ، ويجعلها أعياداً ، حتى رآه ابن منير جديراً بلقب أمير المؤمنين .

وقد بدت الأبيات الأولى لابن القيسرانى حماسية قوية أكثر من غيرها ، ويخيل إلىّ أن ذلك راجع لاتصالها بموقعة الرُّها ، فضلا عما بها من توهج لعاطفة الشاعر .

٢ — نور الدين محمود

ولد نور الدين محمود سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ونشأ فى رعاية والده عماد الدين زنكى، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم الفروسية والرمى، واتخذ من حلب — بعد وفاة أبيه — عاصمة لملكه، وخاض ضد الصليبيين عدة معارك ناجحة، وأخضع لنفوذه عدة مدن من إمارة أنطاكيه بعد أن قتل أميرها، وتمكن من ضم باقى مدن الرها، فأكمل بذلك جهاد أبيه فى هذه البلاد، ثم أسر بعد ذلك أميرى أنطاكيه وطرابلس، ولم يطلق سراحهما إلا بفدية كبيرة، وتملك دمشق، وقهر أميرها[1] وأحاط بالصليبيين من الشمال والشرق، وسير إلى مصر ثلاث حملات فضمها إليه، وعقد العزم على القضاء عليهم، ولكن القدر لم يمهله فأصيب بأزمة قلبية، وتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) بعد أن قام بجهد كبير فى خدمة الإسلام.

ولقد ظفر نور الدين بنصيب كبير من قريض الشعراء حيث سجلوا انتصاراته، وعددوا مآثره وأشادوا ببطولاته فى قتال الأعداء، وافتخروا عن لسانه فى شعر حماسى متقد.

وهذه أبيات من قصيدة طويلة للعماد الأصبهانى توضح شجاعة نور الدين، وتبرز جانبا من تلك الصورة الكبيرة التى رسمها العماد بصدق الفن وإلهام الشعر لهذا البطل العظيم قال:

أدركْتَ من أمْر الزمان الْمُشْتَهَى ... وبلغْتَ من نيلِ الأمانى المنتهى

وبقيت فى كنفِ السلامة آمنًا ... متكرِّمًا بالطبع لا متكرها

---

(١) معين الدين أنر، الذى تحالف مع الصليبيين لمواجهة نور الدين.

يا من أطاعَ اللهَ فى خلواتِه ... متأوبا من خوفه متأوها
ما صين عنك الصين لو حاولتها ... والمشرقان فكيف مفبج والرها
ما للملوكِ لدى ظهورك رَونقٌ ... وإذا بَدَتْ شمسُ الضحا خفِى السُّها(١)
ما نمتَ عن خيرٍ ، ولم يكُ نائما ... من لا يزال على الجميل منبها
ورأيتَ إرعاءَ الرعايا واجبًا ... تُغنِى فقيراً ، أو تجيرُ مُدَلَّها(٢)
وبما به أمرَ الإلهُ أمَرْتَهُمْ ... من طاعةٍ ، ونهيتَهُمْ عمَّا نَهَى
ففقت الملوكَ سماحةً وحماسةً ... حتَّى عدِمْنا لك مُشْبِها
ولك الفخار على الجميع فدونَهُمْ ... أصْبَحْتَ من كل العيوبِ منزَّها

قال العماد هذه الأبيات فى تهنئة نور الدين بفتح قلعة نجم ، وقد أشاد به ، وامتدح صفاته المتعددة كالحماسة والنجدة والشجاعة والتقوى، والمصارحة وصواب الرأى ، وهذه صفات لازمة للقائد الذى يتعب لراحة أمته ، فإذا ما أحسن معاملتها ، وقضى لها حوائجها ، أحسنت هى الأخرى إليه بالمحبة والمودة، وإسداء النصح ، وبالمعونة الصادقة فى مقاومة الأعداء حتى يتحقق النصر فى ميدان القتال

وبهذه الصفات التى كانت واقعا ملموسا فى شخصية نور الدين استطاع أن يحقق انتصارات كثيرة على الصليبيين ، كما أرغمهم بقتاله لهم فى الشام على ترك مصر ، والإنسحاب منها لأكثر من مرة .

وتكشف الأبيات عن تهالك العماد على البديع ، وبخاصة الجناس الذى فتن به وأكثر فيه كقوله (ماصين عنك الصين) وقوله (سماحة وحماسة) إلى غير ذلك مما فى الأبيات المذكورة ، أوبما فى غيرها من أبيات القصيدة .

---

(١) السها : كويكب صغير خفى الضوء .
(٢) الدلة : بتشديد الدال وسكون اللام أو فتحها : ذهاب الفؤاد من هم أو نحوه .

وفى انتصار نور الدين على الفرنجة فى موقعة يقال لها « أنب » قال ابن القيسرانى قصيدة يهنئه فيها بهذا الفتح ، ويشيد ببطوليه ، ومنها .

هذى العزائمُ لا ما تدَّعِى القُضُبُ
وذى المكارمُ لا ما قالَتْ الكُتُبُ(١)
وهذى الهِمَمُ التى متَى خَطبَتْ
تعثَّرتْ خلفَها الأشعارُ والخُطَبُ
أغْرتْ سُيوفك بالأفرنج راجفةً
فؤادُ روميَّةَ الكُبْرى لها يَجِبُ(٢)
غَضِبْتَ للدين حتَّى لم يَفُتْكَ رضًا
وكان دينُ الهدى مَرْضاتُهُ الغَضَبُ
كُنَّا نُعِدُّ حِمَى أطرافِنا ظَفَراً
فَمَلَّكَتْكَ الظُّبَا ما لَيْسَ تحْتَسِبُ
فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذى لَجَبٍ
يُولِيكَ أقصَى المُنَى فالقدسُ مُرْتَقِبُ(٣)
وائذنْ لموجِكَ فى تطهير ساحِلِه
فإنَّما أنت بحرٌ لُجُّه لَجِبُ(٤)

والقصيدة التى أخذنا منها هذه الأبيات تعد من أروع ماقيل من الشعر فى

(١) القضب : جمع قضيب ، والمراد آلات الحرب .
(٢) يجب : يضطرب .
(٣) اللجب : صوت العسكر ، والمراد جيش عرمرم ذو كثرة .
(٤) لجه : ماؤه الكثير ، لجب : أى ذو أمواج مضطربة .

المدة ، ويظهر ويتضح الفرق بينها وبين ما قاله العماد في نور الدين أيضاً، وهذه الأبيات قريبة الشبه بما قاله أبو تمام في المعتصم مع اتفاق القصيدتين في الوزن والروى وإن تفوق الطائى على ابن القيسرانى كثيراً .

وعلى كل فهذا الشاعر كان من أفاضل الشعراء في هذه الحقبة ، وشعره ينبيء عنه ، وقد امتدح هنا نور الدين ، وجعل عزائمه الجبارة أقوى وأسبق مما ذكرته خطب الحروب وكتب التاريخ ، وذكر أن الإشمار تعجز عن وصفه، وأن صيته بلغ عاصمة الفرنجة ، وكان غضبه للدين فأباد جيوش المحتلين ، وحقق مالم يحلم به ، ثم ناشده أن ينهض إلى المسجد الأقصى بجيشه الجرار حتى يعيده ويحرره فالقدس لازال في انتظاره يدعوه ويناديه حتى يزيل عنه وجس المعتدين، وحتى ينتقل إلى ساحل فلسطين ، فيطهره ، ويفك أسره من قيود الإحتلال البغيضة .

٣ — صلاح الدين :

ينتسب صلاح الدين إلى أسرة كردية عريقة استقرت في عهد جده شاذى ابن مروان الكردى بقلعة (تكريت) بالعراق . ثم أمر والده (نجم الدين أيوب) بالرحيل عنها في عام ٥٣٢ ه (١١٣٧ م) .

ولد صلاح الدين يوسف في اليوم الذى أمر فيه والده وعمه أسد الدين شيركوه بمغادرة تكريت ، ثم نشأ في الموصل التى انتقلت الأسرة إليها ، واكتملت نشأته في بعلبك حيث كان والده حاكماً عليها من قبل عماد الدين زنكى

وقد حفظ القرآن الكريم ، ودرس اللغة العربية ، وتعلم الفروسية ، وانتقل مع والده إلى دمشق ، وأسندت إليه رئاسة الشرطة فيها ، ونال التقدير

والاحترام من الجميع ، واشترك مع عمه فى حملات ثلاث إلى مصر ، ثم استقر فيها ، وآلت إليه وزارتها .

وبعد فاة نور الدين استكمل الناصر تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر التى نظمها داخلياً ، وضم إليها اليمن والحجاز ، وانتقل إلى الشام ، وضمه إليه ، وأصبح سلطاناً على مصر والشام وسواحل شمالى أفريقية ، واليمن والحجاز ، ثم أخذ يجهز نفسه للحرب الحقيقية ضد الصليبيين فى إماراتهم بالشام ، والتقى بهم ، وهزمهم فى مواقع كثيرة لعل أشهرها موقعة حطين فى سنة ٥٨٣ ﻫ (١١٨٧ م) . واسترجع بيت المقدس ، وحارب ملوك أوربا الكبار ، ثم اصطلح معهم لظروف أحاطت به ، ولليأس من تحقيق آماله فى القضاء التام عليهم ، وعمل على إصلاح حال رعيته ، ثم ذهب إلى دمشق ، واستقر بها ، ومات فيها ـ بعد مرض قصير ـ فى سنة ٥٨٩ ﻫ بعد حياة حافلة دامت سبعة وخمسين عاما .

وقد عمت شهرته الآفاق ، وطار ذكره بين الشرق والغرب ، وتعلقت به قلوب المسلمين عندما كانوا يرون عبث الفرنجة بالمقدسات الإسلامية واستهتارهم بالدم العربى الذى أريق فى مصر والشام والعراق من غير ذنب ، وقد أكمل صلاح الدين ما بدأه أسلافه الزنكيين ، وإن كان قد زاد عليهم لتحريره بيت المقدس ، ولكثرة انتصاراته على الفرنجة ، واتساع مملكته ، والتفاف الناس من حوله .

ولقد أخذ الناصر حقه من الشهرة وذيوع الصيت ، بل ونال أكثر من حقه فلقد مات والفرنجة رابضون على سواحل الشام بينما لم ينل واحد من المماليك الذين قضوا على الصليبيين قضاءاً تاماً وأزاحوهم من الشام عشر ما ناله صلاح الدين ، وعلى كل فقد جاهد الجميع كلٌّ على قدر ما وفقه الله ، على أن معيار الشهرة والذيوع لدينا هو الشعر الذى قيل فى هذا أو ذاك ، فلقد تضافر على

الإشادة بصلاح الدين ورسم بطولته أكثر من خمسين شاعراً ، وهذا عدد ضخم لا يتوفر — فى مدى علمنا — لكثير من الرجال على مر العصور . نذكر من هؤلاء علم الدين الشاتانى الموصلى[١] الذى أشاد به فقال :

أرى النصرَ معقوداً برَايَتِكَ الصَّفْرَا
فسِرْ وافتحْ الدُّنيا ، فأنتَ بها أحْرَى

وأشاد به أبو على الحسن بن على الجوينى فقال :

أضْحَتْ ملُوكُ الفرنج الصيد فى يَدِهِ
صَيْداً ، وما ضَعُفُوا يوماً ، وما هانُوا

وهكذا اجتمع حوله وأشاد به شعراء كثيرون[٢] من الأندلس كابن جبير ، ومن مصر كابن قلاقس وابن سناء الملك ، ومن أصبهان كالعماد (محمد بن محمد) ومن العراق كسبط بن التعاويذى ، ومن الشام كأسامة بن منقذ ، وغيرهم كثير مثل عبد المنعم بن عمر حسان ، ومحمد بن أسعد الجوانى ، وابن الشِّحْنة (عمر بن محمد) وابن الدهان (عبيد الله بن أسعد) ، والحسين بن عبد الله بن رواحه ، والأسعد بن مماتى ، فضلا عن القاضى الفاضل (عبد الرحيم البيسانى).

وكان بعض شعراء صلاح الدين لا يتخذون لهم وطناً واحداً ، بل ينتقلون بين البلدان الإسلامية كابن عنين وابن الساعاتى . ولعل فى هذا العدد الكبير

---

(١) توفى سنة ٥٧٩ هـ .

(٢) راجع شعراء صلاح الدين فى كتاب الروضتين لأبى شامة ، وفى بعض الكتب الحديثة مثل كتاب الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوى ص ٤٠٦ وما بعدها ، طبعة دار نهضة مصر .

من الشعراء وغيره كثير مايؤكد التفاف الشعراء حول الأبطال، خاصة إذا كان هـذا البطل هو صلاح الدين الذى يحقق الانتصارات فى معامع القتال ، ويحب القراءة ، ويتذوق الشعر ويحفظ كتاب الحماسة ، ويستجوب الـكلمة الجميلة والجملة الرقيقة فى مجالس السلم .

كان الشاعر سبط بن التعاويذى يعيش فى العراق بعيداً إلى حد ما عن أتون الحروب الصليبية ، ولم يكن شاعرا خاصا لصلاح الدين لـكنه عاش متفاعلا معه، متجاوبا مع أعماله ، وكان يرسل إليه القصيدة تلو القصيدة فى ضوء النهار أو فى غبش الليل فيحثه على القتال ، ويشيد به فى الإنتصارات مجداً بطولاته متحمسا لـكفاحه ونضاله ، قال فى قصيدة طويلة[1] :

حَمَلَتْ بِهِ بَعد العُقَام وأنجبتْ
أمُّ العُلى ما كل أمٍّ مُنْجِبُ
مَلَـكَتْ سَجَايَاهُ القـلوبَ محبَّةً
إنَّ الـكريمَ إلى القلوبِ مُحَبَّبُ
كف تـكفُّ الحادثاتِ وَراحَةٌ
ترتاحُ للجدوَى وَقَلْب قُلَّبُ[2]
وندىً يَهشُّ إلى العُفَاةِ تَـكَرُّمًا
وَمُوَاهِبٌ بالطارقينَ تُرَحّبُ

(١) راجع القصيدة فى الديوان ص ٢٢ ومابعدها طبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠٣ طبع ونشر المستشرق مرجليوث وأبياتها ستة وسبعون ، وقد أرسل سبط هذه القصيدة إلى الناصر بدمشق سنة ٥٨٠ هـ ، وتوفى سنة ٥٨٤ هـ .

(٢) قلب قلب : متقلب متلون يحتال للأمور ، ويعرف تقلبها .

وصرامةٌ كالنَّارِ شابَ ضِرامُها
خُلُقٌ أرقُّ من المُدام وأطيبُ
تُغْرِيهِ بالعفوِ الجُنَاةُ كأنَّمَا أَلْـ
ـجَانى إليه بذنبـــهِ يَتقرَّبُ
فيرى لهم حقًّا عليه ، ولم يَكُنْ
ليبينَ فضلُ العفو لولا المُذْنِبُ
يا طالبى شأوَ ابْنِ أيُّوبٍ قِفُوا
أَنْضَاءكُمْ ما كلُّ شأوٍ يُطْلَبُ

ذكر الشاعر فى هذه الأبيات بعضا من ملامح صلاح الدين ، ووصفه بأنبل الصفات ، وأكرم الخصال ، وجعله يأتى إلى الحياة وهى أكثر احتياجا إليه لما فيه من الكرم والعطاء ، وحسم الأمور والعفو عن المقدرة . ثم تحدث عن كفاحه وجهاده فقال :

وَغَضِبْتَ للدين الحنيفِ ولم تزلْ
فى الله تَرْضَى مُنْذُ كُنْتَ وَتغضَبُ
غادرْتَ أهْلَ البَغْى بين مُجَدَّلٍ
لَقِى الحِمَامَ وخائفٍ يَتَرَقَّبُ(١)
أو هاربٍ ضاقَتْ عليه بُرْجها الأ
أرضُ الفضاء وأين منك المَهْرَبُ
فاصبحْ بلادَ الرُّوم منكَ بغارةٍ
للنصر فيها رائدٌ لا يَكْذِبُ

---

(١) مجدل : صريع وملقى على الأرض .

وَاحسِمْ بحدِّ ظُباكَ داءا حَسْمُهُ
وَدوَاؤهُ بعد التَّفاقم يَصْعُبُ
حتَّى يَرَى المشرفيّةِ مطعَمٌ
بالفتْكِ من تلك الدماء وَمَشْرَبُ
لا تعفُوَنَّ إذا ظفَرْتَ بمُجْرِمٍ
منهم فرُبَّ جريمة لا تُوهَبُ
فلتشكُرنَّكَ أمَّـــةٌ تحنُو عَلَى
ضُعَفائها حَدَبًا كما يحنُوا الأبُ

ذكر الشاعر أن غضبة صلاح الدين لم تكن نزوة أو شهوة ، وإنما كانت غضبة فى سبيل الدين ، قال إنه ترك الأعداء بين صريع وخائف من الموت ، وهارب ضاقت به الأرض ، ثم ناشده مواصلة الإغارة على بلاد الروم لحسم أمرهم والقضاء عليهم حتى لا يصبحوا داءا يصعب شفاؤه .

وكان الصليبيون يجتمعون فى القسطنطينية ثم ينطلقون منها لغزو بلاد المسلمين ، فالشاعر لا يفرق بين الروم كجيران للمسلمين والأفرنج كغزاة محتلين فهم جميعاً من حملة الصليب .

ولعل القارىء يلاحظ معى أن الشاعر فى هذه الأبيات لم يتناول موقعة معينة وإنما قصد إلى ذكر الصفات والخصائص البطولية فى شخصية صلاح الدين من خلال هذه الأبيات الحماسية .

وابن التعاويذى فى هذه الأبيات متأثر بالقدامى من الشعراء ، وإن لم يصل إلى عمق معانيهم وأخيلتهم . ومع مافيها من صنعة لكنها أفضل كثيرا مما قاله الشعراء المصريون فى ذلك الوقت .

وقد قصدت أن أذكر موطن هذا الشاعر حتى يتأكد الفرق بين بيئة الشعر فى العراق، وبيئته فى مصر والشام أيضا فقد كان الشعر العراقى - والحماسى منه بخاصه - فى هذه الفترة يفضل الشعر المصرى كثيراً ، فالعراق إبان ذلك كانت موطن الخليفة العباسى ، ومركز الحكم ، ومستقر الأدباء ، وملتقى الشعراء . أما فى مصر والشام فكانت القيادة أيوبية كردية ، ومع حرص رجالاتها على الأدب وتذوقهم له ، وحفظهم للكثير منه ، فقد بقى الشعر فى العراق متقدما فى القرن السادس الهجرى وهو العام الأول من عصر الحروب الصليبية .

وقد تتأكد هذه المعانى إذا قدمنا أبياتا لشاعر مصرى معاصر لابن التعاويذى كابن سناء الملك إذ أن له العديد من القصائد التى تحدث فيها عن بطوله صلاح الدين وحماسته فقال فى إحداها[1] .

تَجْتَنِي النصرَ من ظُبَاكَ كأنَّ الْ
عَضْبَ قد صحفوه أو صار غُصْنَا[2]
قَصَدَتْ نَحْوَكَ الأعادى فردَّ الْ
لهُ ما أمَّلُوه عَنْكَ وَعنَّا
لم تلاقِ الجيوشَ منهم ولكنَّ
كَ لاقيتَهُمْ بلاداً وَمُدْنا
خانَهُمْ ذلك السلاحُ فلا الرُّمْ
حُ تَثَنَّى ، ولا المُهَنَّدُ طَنَّا[3]

---

(١) راجع القصيدة فى الديوان ص ٣٤٠ ومابعدها ، طبعة دار الكاتب العربى .
(٢) تجتنى : تلتقط الجنى وهو مايلتقط من الشجر ، العضب : السيف القاطع .
(٣) طن : صوت .

وتوالَتْ تلك الخيولُ فكمْ يُثْـ
نَى عليها بأنها ليسَ تُثْنَى
واستحالت شقائق الكفر صفْراً
حين عادَتْ تِلْكَ الشجاعةُ جُبْنا
وَجَرَتْ منهم الدِّماء بحاراً
فَجَرَتْ فَوْقها الجزائرُ سُفْنا[1]
صُنِّعَتْ منهمُ وليمةُ وَحْشٍ
رقص المشرفيُّ فيها وَغَنَّى

جعل ابن سناء السيف غصنا يجنى منه النصر ، وقد استعان صلاح الدين بالله في مقاومته الأعداء الذين كانوا قلاعا ومدنا ، ولم يكونوا جيوشا فقط تسهل مقاومتهم . وقد خانهم سلاحهم ، وتجمد في أيديهم ، وتحولت شجاعتهم وأصواتهم العالية إلى خور وجبن ، وجرت دمائهم بحاراً وفيها جثثهم كالسفن التي صنعت منها وليمة للوحوش قام فيها السيف بالرقص والغناء . وقال :

وحوَى الأسر كلَّ مَلْكٍ يَظُنُّ الدَّ
هْرَ يَفْنَى ومُلْكُهُ ليس يَفْنَى
والمليكَ العظيمُ فيهمْ أسيرٌ
يتثنى في أدهم يتثنى[2]
يَحْسِبُ النومَ يَقَظَةً ويظنُّ الشَّ
خصَ طَوْداً ، وَيُبْصِرُ الشمسَ دَجْنا[3]

---

(١) الجزائر : جمع جزور وهو الذبيح .
(٢) الأدهم : القيد .
(٣) الدجن : الغيم .

كمْ تمنَّى اللقاءَ حتى رآهُ
فتمـــــنَّى لو أنه ما تَمنَّى

رقَّ من رحمةٍ لهُ القيدُ وَالغُلُّ
عليـــــه فكلَّما أنَّ أنَّا(١)

وتهادتْ عرائِسُ المُدْنِ تُجْلَى
وثِمـارُ الأموَالِ منهن تُجْنَى

وابن سناء الملك فى هذه الأبيات يشيد بصلاح الدين عقد إيقاعه بملوك الفرنجة فى الأسر ، ثم خص بالذكر مليك بيت المقدس الذى كان يرزح فى ذل الأسر حتى فقد وعيه ، وشاهد الأشياء على غير حقيقتها ، كما ندم على سابق أمانيه فى لقاء صلاح الدين ندما رق له قيده ، وشاركه فى أنينه ، ثم جاءت مدن الشام وعرائسه إلى صلاح الدين لتقدم له ثمار ملكها حتى ينهض بقطفها .

وقد سبق أن طرق هذه المعانى شعراء سابقون، وحاول ابن سناء أن يقلدهم ويحتذيهم ، ولكنه بدأ متكلفا متصنعا .

ولنقرأ له تلك الصورة التى جعل فيها دماء الأعداء أنهاراً ، وفى هذه الأنهار تطفو عليها جثثهم كالسفن . ثم أقرأ له عن الصورة التالية التى جعل فيها السيف يغنى ويرقص فى وليمة الوحش فى أعقاب النصر ، ولاحظ أيضا كلف الشاعر بالبديع ، وعنايته بالطباق ، والجناس منه بخاصة .

فالشعر فى مصر والشام فى هذه الفترة لم يصل إلى مرتبة نظيره العراق والشعر فى معظم الأقطار حتى نهاية العصر العباسى الثانى قد تحول عن قوته وروعته التى كانت فى أول هذا العصر .

---

(١) الغل : القيد .

٤ — خلفاء صلاح الدين :

التف الشعراء بخلفاء صلاح الدين ممن حملوا لواء الكفاح من بعده ضد الفرنجة في مصر والشام ، فأشادوا بانتصاراتهم ، وتغنوا بأمجادهم ، وسجلوا ما دار في معاركهم .

ومن هؤلاء الخلفاء الملك العادل أخو صلاح الدين ، والذى رفع لواء المقاومة لفترة طويلة بعد وفاة أخيه ، وفى تمجيد البطولة عنده قال ابن سناء الملك[1]

وياأعاديه لا يَغْرُرْكُمْ مَهَلٌ
مِنْهُ فإنكمُ منهُ عَلَى غَرَرِ[2]
أَلَمْ تَدَعْكُمْ على رَغْمٍ بَوَاتِرُهُ
وكلُّ دِرْعٍ عليكُمْ قُدَّ مِنْ دُبُرِ[3]
وَدَّ العِدَى أنْ يكونُوا من رَعِيَّتِهِ
فليأخذُوا الأمْنَ تَعْوِيضاً من الحَذَرِ
يَرْمِى الشُّجَاعَ وإنْ أضحى وَبَيْنَهُمَا
نَقْعٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّخْصِ وَالبَصَرِ
تَقَلَّدَ الدينَ سَيْفاً منه ما بَرِحَتْ
سُيُوفُهُ البيضُ حُمْراً مِنْ دَمٍ هَدَرِ
لِلهِ مَوْقِفُ حربٍ كُنْتَ قائمَهُ
وقائمُ النَّصْرِ فيه غير مُنْتَظِرُ

---

(١) راجع القصيدة فى الديوان ص ١٤٢ ومابعدها .
(٢) غرر : خطر .
(٣) بواتر : جمع باتر وهو السيف القاطع .

هَزَمْتَ فيها جموعَ الشِّرْكِ فانفطروا
إن الزُّجاجة لاَ تقوَى عَلَى الحجر
يا مَنْ قضاياهُ فى الأيامِ عادلةٌ
أفنيتَ بالعدلِ أهْلَ الشِّرْكِ والأشَرِ (١)

وهذه الأبيات لا تقترن بموقف محدد ، ولم يذكر الديوان لها مناسبة معينة، وإنما تحدث فيها الشاعر عن جهاد الملك العادل ، الذى قاد بنى أيوب بعد صلاح الدين فى قتالهم ضد الصليبيين بمصر والشام .

وقد أشاد الشعراء بغير العادل من خلفاء صلاح الدين الذين قادوا من بعده حملات الجهاد ضد الصليبيين .

رابعا ــ الفخر الحماسى

اشترك كثير من شعراء الحروب الصليبية فى المعارك ، وأسهموا فى تحقيق الانتصارات ، ولذلك قرأنا لهم شعراً حماسياً يفتخرون فيه بشجاعتهم وبأسهم فى أيام القتال ، وكان هذا اللون الشعرى يغرى الأبطال الذين لم يقولوا الشعر بأن يوجهوا شعراءهم ، ويطلبوا منهم أن يقولوا شعراً فخريا حماسيا ولكن على ألسنة الأبطال أنفسهم ليمجدوا بطولاتهم ، ويتغنوا بانتصاراتهم ، ويفتخروا بما حققوه وأنجزوه على سائر السلاطين والأمراء .

ويعد طلائع بن رُزِّيك فى مقدمة الشعراء البارزين الذين بذلوا جهوداً مخلصة لتطويق الفرنجة ، وإجلائهم عن مدن الشام ، وكان طلائع وزيراً

---

(١) الأشر : البطر .

مصريا ، وشاعراً حماسيا فى عهد الدولة الفاطمية ، فإذا افتخر بحماسته ، أو تحمس فى نخره ، فإن ما لديه من المواهب والإمكانات فى الشعر والتقال لكاف فى التدليل على صدقه وحسن نواياه .

وقد أرسل بالقصيدة التالية من القاهرة إلى صديقه الأمير أسامة بن منقذ بالشام لكى يتوسط له عند نور الدين محمود من أجل توحيد جهودهما فى حرب الفرنجة بحيث يتكفل نور الدين بحربهم من الشمال ، وينهض لهم ابن رزيك من الجنوب ، لكى يقضيا عليهم ، قال[1] :

أَلاَ هكذا فى الله تُمضَى العزائمُ
وتَمضِى لدى الحربِ السيوفُ الصَّوارمُ
وَتُستنزَلُ الأعداء من طودِ عِزِّهمْ
وليس سوى سُمْرِ الرِّماح سَلاَلِمُ
وَتُغزَى جيوشُ الكُفر فى عُقْر دارها
ويُوطأَ حِماها ، والأنوفُ رَوَاغِمُ
وَيُوفِى الكرامُ الناذِرُون بنذرِهِمْ
وإنْ بُذِلت فيه النفوسُ الكرائِمُ
نَذَرْنَا مسيرَ الجيش فى صَفَرٍ ، فما
مَضَى نصفُهُ ، حتى انثَنى وهو غانِمُ
بَعَثْناهُ من مصر إلى الشام ، قاطِعاً
مفاوزَ ، وخد العيس فيهنّ دائِمُ[2]

---

(١) ديوان طلائع بن رزيك ص ٩٢ .

(٢) المفاوز : جمع مفازة وهى الفلاة ، الوخد : الإسراع ، العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .

فما هالهُ بُعْدُ الدِّيارِ ، ولا ثَنَى
عزيمتَهُ جُهْدُ الظَّما وَالسمائمِ[1]

يُهَجِّرُ وَالمنصورُ في قَفْرٍ وَكَرِهِ
وَيَسْرِي إلى الأعْدَاء ، وَالنَّجْمُ نائمُ[2]

وَرُفقتُهُ عينُ الزمان ، وَحاتمٌ
وبحيي ، وإنْ لاقى المنيَّةَ ، حاتمٌ[3]

مَضَى طاهِرَ الأثوابِ من كلِّ ريبَةٍ
شَهِيداً ، كما تمضِي السَّرَاةُ الأكارمُ[4]

استنهض الشاعر في هذه الأبيات عزائم رجاله وهمم أبطاله ، وبدا متحمساً متأهباً كارهًا للصليبيين ، ولهذا جمع جيشاً مسلمًا كبيراً هاجمهم به في عقر دارهم (التي أقاموا بها محتلين لها) دون أن يعبأ بمشقات السفر ووعثاء الطريق الذي كان ملتويا بمفاوزه وفلواته ، ومن غير أن يقيل بالنهار أو يهجع في بعض الليل ، وعلى قيادته أعاظم الأبطال الذين نذروا فأوفوا بنذرهم . وحقق الجيش أهدافه بعموتهم وحسن قيادتهم ، ورجع غانمًا ، ومن مات منهم مضى شهيداً مؤمنًا ونقيًا طاهراً .

وانتقل الصالح إلى الحديث عن فرق جيشه ، وعما قامت به في الشام ، وأشاد بقدرتها في لقاء الأعداء ، قال :

---

(١) السمائم : جمع سموم وهى الريح الحارة .
(٢) يهجر : يسير في وقت الهاجرة ، وهى نصف النهار عند زوال الشمس .
(٣) الأسماء المذكورة أعلام لثلاثة قواد
(٤) السراة : السادة .

فلقوهم زرقَ الأسنّةِ ، وَانطوَوْا
عليهم ، فلم يَنجُمْ من الكُفرِ ناجِمُ[1]
وَحَسْبُكَ أنْ لم يبقَ فى القوم فارسٌ
من الجيش إلا وهو للرُّمح حاطِمُ[2]
وعادُوا إلى سلِّ السيوفِ ، فَقُطِّعَتْ
رُؤوسٌ ، وَحُزَّتْ للفرنج غَلاَصِمُ[3]
فلم ينجُ منهم يومَ ذاكَ مُخبِّرٌ
ولا قيلَ : هذا وَحدَهُ اليومَ سَالِمُ
كذلك ما ينفكُّ تُهدَى إلى العِدَا
وللوَحشِ أعراسٌ لهم وَمآتمُ
وَنَسْرِى لهم آراؤُنَا وَجُيُوشُنا
بداهيةٍ تَبيَضُّ منها المقَادِمُ[4]
نُقتِّلُهُمْ بالرَّأى طوراً ، وتارَةً
تدوسهم منا المَذَاكى الصَّلاَدِمُ[5]
وما نحنُ بالإسلامِ للشِّركِ هازمٌ
ولـكنّما الإيمانُ للـكُفر هادِمُ

---

(١) نجم : ظهر .

(٢) الحاطم : الـكاسر .

(٣) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق .

(٤) مقدم العين : مايلى الأنف ، ومقدم الوجه : ما استقبلت به .

(٥) المذاكى من الخيل : ما أتى عليها بعد قرحها (اكتمال أسنانها) سنة أو سنتان . والصلدم كزبرج : الأسد ، والصلب الشديد الحافر .

ذكر ابن رزيك أن جيوشه أغارت على الأعداء، وقضت عليهم فى معركة شديدة بدأها الفرسان بتحطيم رماحهم، ثم عمدوا إلى إخراج السيوف من أغمادها لقطع رقابهم فأبيدوا جميعا، وقدمت أجسامهم غذاء للوحوش، ثم أشاد بتعاون الرأى والشجاعة فى قتال الفرنجة حتى تحقق النصر للاسلام والإيمان على أهل الشرك والإلحاد.

وبعد أن تحدث عن جهوده في القتال بجنوب الشام، وافتخر بحماسة جنوده فى لقاء الأعداء، قال لنور الدين محمود فى هذه القصيدة التى بعث بها إلى أسامة بن منقذ:

فقولوا لنُور الدين لا فُلّ حَدُّه
ولا حَكّمَتْ فيه الليالى الغَوَاشِمُ،(١)

تجهزْ إلى أرض العدوّ ولا تَهُنْ
وَتُظْهِرُ فُتوراً أن مَضَتْ منك حَارِمُ،(٢)

وذكر فى الأبيات المتبقية من القصيدة ما سبق أن عرضنا له من حيث التعاون بين المصريين والشاميين فى قتال الصليبيين.

وتتضح فى شعر ابن رزيك غيرته على الإسلام، وحماسته فى القتال، وشجاعته فى الحق، وإخلاصه وصدق نواياه، وكثرة غاراته على سواحل الشام.

ولهذا يطلب من نور الدين أن يواصل هجومه عليهم من الشمال حتى يتحقق النصر، وتنجلى الغمة، ويذهب الأعداء إلى غير رجعة.

---

(١) الغشم: الظلم.
(٢) حارم: مدينة بالشام.

وقد رد أسامة على صديقه طلائع بميمية من الطويل أيضا ، وبدأها بقوله :

لك الفضلُ من دون الورَى والمكارمُ
فمن حاتمٌ ما نَالَ ذا الفخر حاتمُ
وَصَلتَ ، فأغنَيْتَ الأنامَ عن الحيَا
وَصُلْتَ ؛ فخافَتْ من سُطاك الصَّوارمُ

وانتقل أسامة بعد هذين البيتين إلى وصف غارات ابن رزيك فى أرض الشام ، ومضى فى متابعة جيشه وهو يلقى بثقله على الأعداء فيفنيهم قتلا وأسراً ، ليكونوا غذاء للوحوش ، أو غنائم المسلمين ، وأشاد بجهود المصريين بما لا يختلف أو يبعد عما قاله ابن رزيك .

وقد قام الأسطول المصرى فى هذا الوقت بغزوات موفقة ، وانتصر على الفرنجة فى عدة مواقع ، فامتدح أسامة هذه المعارك فقال فى حديثه إلى ابن رزيك :

فلما أبادَتْهُمْ سُيُوفُكَ ، وَانجلَتْ
عن الأرضِ منهُمْ ظُلمَةٌ وَمَظَالِمُ
غزوتَهُمُ فى البحر ، حتَّى كأنما الـ
أَسَاطِيلُ فيه موْجُه المتلاطِمُ
بفرسَان بَحْرٍ فوق دُهْمٍ كأنها
على الماءِ طيرٌ ، ما لَهُنَّ قوَادمُ(١)
إذا دفعُوها قلتَ : فُرْسَانُ غارةٍ
سَرَوْا بجيادٍ ، ما لَهُنَّ قوَائمُ

(١) القوادم : ريشات فى مقدم الجناح .

يسوقُ أساطيلَ الفرنج إليهمُ
حِمامٌ ، وطيرٌ للفرنج أشائمُ
دماؤهُمُ في البحر حُمْرٌ سَوائحٌ
وهامهمُ في البرّ سُحْمٌ جوائمُ(١)
فلم يَخْفَ في فج من الأرض هاربٌ
ولم ينجُ في لُجّة من الماء عائمُ

وبعد أن وصف أسامة ما دار فى هذه المعركة البحرية امتدح قريض بن رزيك ، وأثنى عليه فى شعر لا يخلو من المبالغة ، ثم أشاد بجهوده فى معية نور الدين .

وقد تأثر هذان الشاعران (الوزير والأمير) بشعر المتنبى ، واحتذيا كثيراً من معانيه ، بل اقتبسا كثيراً من أفكاره مما قاله فى ميمية الحدث الحمراء ، وضمن أسامة بعض شعره منها ، واقرأ له البيت الذى قال فيه :

إذا دفعُوها قلت : فرْسانُ غارةٍ
سَرَوْا بجيادٍ ما لَهُنّ قوائمُ

تجده ضمّن بيته الشطر الثانى من بيت المتنبى الذى قال فيه :

أتوْكَ يجرون الحديدَ كأنّهُمْ
سَرَوْا بجيادٍ ما لَهُنّ قوائمُ

وقد تأثرا أيضا فى قصيدتيهما بألفاظ أبى الطيب وتراكيبه ، فضلا عن تأثرهما بمعانيه وأفكاره .

---

(١) سحم ، جمع أسحم وهو الأسود .

وقد كانا يحطبان فى حباله إلا أنهما لم يصلا إلى مرتبته أفكاراً وألفاظا، وصياغة وحماسة .

عرفنا نور الدين محمود بطلا حربيا ومقاتلا إسلاميا ، ولم نعرف حبه للشعر العربى ، ذلك أنه طلب من أسامة بن منقذ أن ينشىء له قصيدة على لسانه يفتخر فيها بانتصاراته على الفرنجة ، فأنشده واحدة من حماسياته ، وهى من أطول ما قال أسامة فى هذا الغرض ، قال[1] :

أبى اللهُ إلاّ أن يكون لنا الأمْرُ
لتحيا بنا الدنيا ، وَيَفتَخرَ العصرُ
وتخـــدُمُنا الأيامُ فيما نرومه
وينقادَ طَوْعاً فى أزِمّتنا الدّهْرُ[2]
نسيرُ إلى الأعداء وَالطيرُ فوْقَنا
لها القوتُ من أعدائنا ولنا النصرُ
فتحنا الرُّها حينَ استباحَ عِدَاتُنا
حِمَاها ، وسنّى ملكها لهم الختْرُ[3]
وَنحنُ فتَحْنَا تلّ باشرَ بَعْدَها
وقد عجَزَتْ عنه الأكاسِرَةُ الغُرُّ[4]
وتلُّ عِزَازٍ ، صَبَّحَتْهُ جيُوشُنا
فلم تَحْمِهِ مِنّا الرّجَالُ ولا الجُدْرُ[5]

---

(١) راجع القصيدة بديوان أسامة ص ٢٠١ وما بعدها .
(٢) أزمتنا : جمع زمام وهو للقود .
(٣) سنى : سهل ، الختر : الخديعة .
(٤) تل باشر : موضع بالشام .
(٥) تل عزاز : موضع بالشام .

وَصِلتنا إلى بُرْجِ الرَّصَاص وإنهُ
كالشُّدِّ ، لكن الرَّصَاصَ له قِطْرُ[1]

وقد افتخر نور الدين – فيما قاله أسامة على لسانه – بما حققه لآل زنكى فى قتال الصليبيين ، وذكر العديد من المعارك ، التى استرجع فيها المدن والحصون المختلفة ، كالرُّها وتل عزاز وبرج الرَّصاص وغيرها .

ويبدو أن أسامة قد جمع جهاد الزنكيين جميعاً فى هذه الرائية الطويلة التى بلغت تسعين بيتاً ، حتى يعلم ابن رزيك أن أمراء الشام لا يغفلون عن جهاد الصليبيين . وقد نسج على هذا المنوال الشعرى شعراء كثيرون تتويجا للحماسة والفخر فى عصر الدولتين الفاطمية والأيوبية بمصر والشام .

(١) برج الرصاص : موضع بالشام ، والقطر : النحاس الذائب .

الفصل الثالث

من شعراء الحماسة والفخر الحربى

لقد طالت الحروب الصليبية ، وامتدت عبر قرنين من الزمان ، وحزن لها المسلمون فى كل مكان ، واكتوى بنارها العرب فى مصر والشام وشمالى العراق ، وكثرت المعارك بما فيها من هزائم وانتصارات ، وارتفعت الأسهم لأبطال عظام ، فالتف حولهم ، وأشاد بهم شعراء كثيرون ، اختلفت أوطانهم ، وتباعدت أزمانهم ، لكنهم اتفقوا جميعاً فى إخلاصهم ، وصدق عواطفهم .

كان من بين هؤلاء الشعراء من شغلته هذه الحروب ، فأسهم فيها ، وتحدث عنها ، وحرص عليها ، نذكر منهم طلائع بن رزيك ، وأسامة بن منقذ .

ومن الشعراء من ليست له معرفة بفنون القتال ، لكنه قام بدوره فى حمل أمانة الكلمة ، وبعث الهمم ، واستنهاض العزائم والإشادة بالأبطال ، ووصف المعارك ، والفخر بما تحقق فى ميدان القتال ، ومن هؤلاء ابن سناء الملك .

وسوف نتحدث عن هؤلاء الشعراء الثلاثة من بين الكثيرين الذين يضيق المقام بالتحدث عنهم .

- طلائع بن رُزِّيك :

كان طلائع واحداً من الولاة الفاطميين فى صعيد مصر حتى شهر المحرم من سنة ٥٤٩ هـ ، وأوشك اسمه أن يطوى فى متاهة النسيان لو لم يحدث ما جرى

بالقاهرة فى ذلك الوقت عندما قُتل الخليفة الفاطمى (الظافر) وأخواه . غير أن نساء القصر قصصن شعورهن ، وأرسلن بها فى كتب كلها سواد يستنجدن بطلائع من عبث القتلة وخياناتهم ، وهذا أقصى ما يمكن أن تتوسل به المرأة فى مثل هذه الأحداث .

وحزنت القاهرة ، وارتسمت الكآبة على وجوه الناس فيها حتى أقبل إليها طلائع : « لابساً السواد ، حاملا شعور حرم الخليفة على الرماح ، ودخل قصر الوزارة ، فى التاسع من ربيع الأول ، وتلقب بالملك الصالح ، وأخرج جسد الظافر من البئر التى قد رمى فيها بعد قتله ، وجعله فى تابوت ، ومشى بين يديه إلى مرقده الأخير ، حافيا مكشوف الرأس ، وفعل الناس مثل ذلك ، وكثر فى هذا اليوم الضجيج والبكاء والعويل »[1] .

وتولى الرجل الوزارة للخليفة الفاطمى الفائز[2] ، وعمل على استتباب الأمن « فكان هو الرجل الذى تحتاج إليه مصر فى ذلك الحين ، أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر معاقلهم فى فلسطين التى استولى الصليبيون عليها »[3] .

وبعد أن استقرت الأمور لهذا الوزير القوى والشاعر الطموح تاقت نفسه إلى خدمة الدين والوطن ، فأرسل جيشاً بريا وأسطولا بحريا إلى فلسطين لغزو

---

(١) مقدمة ديوان ابن رزيك ص ٤ تحقيق د / أحمد بدوى .

(٢) كان طفلا عمره خمس سنين ، وتولت عمة له كفالته ؛ وقام ابن رزيك بالدور التنفيذى لهذه الكفالة .

(٣) تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨٧ ؛ الدكتور حسن إبراهيم حسن ، طبعة النهضة المصرية .

غزة وعسقلان ، وقد رجع الجيش غانماً منتصراً ، وشجعه ذلك على استثمار وجود نور الدين بشمالى الشام ، فأخذ يرسل له الرسائل والقصائد والهدايا لكى يتعاونا فى الإجهاز على الفرنجة من الشمال والجنوب ، ولكن هذه الآمال لم تتحقق ، وضاعت سدى ، لأن نور الدين فيما يبدو لم يقتنع بمن فى مصر من الخلفاء والوزراء وأسهم فى اهتزاز ثقته بهم الاختلاف فى العقائد المذهبية ، فهو سنى المذهب ، وولاؤه للخليفة العباسى ببغداد ، وطلائع شيعى متعصب . ولهذا أخفق ابن رزيك فى آماله ، وفشل فى عقد هذه الصلة التى ألح فيها ، وسعى إليها ، وبقى وزيراً ناجحا حتى مات الخليفة (الفائز) فى سنة ٥٥٥ هـ وهو لا زال طفلا صغيراً ، لم يزد عمره عن إحدى عشرة سنة وبضعة شهور ، وجاء بعده العاضد (آخر الخلفاء الفاطميين) وبقى ابن رزيك وزيراً ، له مطلق السلطة ، فاستاءت لذلك نساء القصر فدبرن مكيدة لقتله فأصيب بجرح أفضى به إلى القتل فى رجب سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، « وكان مما ندم عليه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ، أنه لم يوجه كل جهوده لإخراج الصليبيين من الشام ، وقد حزن الناس عليه يوم مات ؛ لما كان منه : من حفظ النظام ، واستتباب الأمن »[1] .

ورثاه الشاعر عمارة اليمنى بشعر كثير منه قوله :

وَإِنِّى أَرَى فوقَ الوُجُوه كآبةً
تدلُّ عَلَى أَنّ الوُجُوه ثواكِلُه

وَلِمَ لا نبكيهِ ، ونندب فَقْدَهُ
وَأَوْلاَدُنَا أَيْتَامُـــهُ وَأَرامِلُه ؟!

(١) مقدمة الديوان ص ٨ .

شعره :

ذكر ابن خلكان أنه رأى شعر طلائع فى ديوان كبير من مجلدين فى كل فن ، لكن أين هذا الديوان ؟ لقد ضاع فيما ضاع من تراث العرب ، وبقى القليل منه فى كتب التراث كالبداية والنهاية لابن كثير ، وحسن المحاضرة للسيوطى ، والروضتين لأبى شامة : والكامل لابن الأثير وغيرها ، ثم هيأ الله الدكتور أحمد بدوى لهذا الشاعر فجمع شعره أو ما تبقى منه بالكتب المختلفة وجمعه فى ديوان صغير يقرب من مائة صفحة .

ولا يمثل هذا الشعر ابن رزيك تمثيلا كاملا ، ولكنه يكشف عن مواهبه وقدراته ، ويؤكد ضياع شعره ، فما قاله مما بين أيدينا لكاف فى التدليل على أن هذا الشاعر قد صال وجال فى رياض القريض ، والتقى بالعديد من الشعراء كعمارة اليمنى ، والحسن بن الزبير ، والمهذب بن أسعد وغيرهم ، وراسل أسامة ابن منقذ بالشام لما بينهما من صداقة ومودة .

وقد تعددت الأغراض الشعرية فيما وصل إلينا من شعره ، فقال فى الغزل والحكمة ، والعقائد والفخر والسياسة ، والمدح والإخوانيات . والكثير من شعره فى الحماسة والفخر الحربى من خلال تلك الفنون ، فله قصائد كثيرة متعددة الأغراض .

ولقد شُغل هذا الشاعر بحرب الفرنجة ، وكان شعره فياضاً بالروح الحماسية التى لا تتوارى سواء أكان حثًا وتحريضًا على القتال أو وصفًا لغزواته وسراياه أو فخراً بما حققه فى أرض القتال .

١ — التحريض على القتال :

أرسل الملك الصالح إلى أسامة بن منقذ قصيدة ينبهه فيها بالذهاب إلى نور الدين ليحثه على القتال ويحرضه على الجهاد ، ومنها قوله :

ألمم بنور الدين وا علمه بهاتيك القضيه
فهو الذى ما زال يخلص منه أفعال ونيه
فعساه ينهض نهضة يفنى بها تلك البقيه
إما لنصرة دينه أو ملكه ، أو للحمية[1]

والمعانى واضحة وصريحة ومباشرة ، وقال فى أبيات لنور الدين محمود وقلج أرسلان لكى يوحدا جهودهما لقتال الفرنج ، وينبذا ما بينهما من خلافات :

تعالوا ، لعل الله ينصر دينه
إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم

وكتب إلى أسامة ليكون رسوله عند نور الدين من أجل توحيد الجهود لقتال الفرنج فى وقت واحد ، قال :

قصدنا أن يكون منا ومنكم
أجل فى مسيرنا مضروب

وقال أيضا محرضا لنور الدين فى رسالة بعث بها إلى ابن منقذ :

وحسم أصول الداء أولى لعاقل
لبيب ، إذا استولى على المدنف الخلط[2]

---

(١) الحمية : الأنفة .

(٢) المدنف : المريض ، الخلط بالكسر : أن يخالط الرجل فى عقله (ببناء الفعل للمجهول) .

فدعْ منكَ مَيْلاً للفرَنج وَهُدْنةً
بها أبدا يَخْطِي سواهُمْ ، ولم يَخطُوا
تأمَّلْ فكم شرطٍ شَرَطْتَ عليهِمُ
قديماً ، وكم غَدْرٍ به نُقِضَ الشَّرْطُ
وَشمِّرْ ، فإنا قد أعَدَّا بكُلِّ ما
سَأَلتَ ، وَجهَّزْنا الجيوشَ ، وان يُبطوا

وهكذا كان الشاعر متحمسا لقتال الصليبيين ، حريصا على توحيد الجهود ، صادقا فى دعوته ، وشعره يكشف عن عقيدة دينية راسخة ، وإحساس عظيم بالقومية ، متجاوزاً حدود الأطماع والخلافات الشخصية . وابن رزيك فى فكره وشعره نموذج فريد لم يتعود الناس عليه فى عصره . وألفاظه سهلة لينة أقرب إلى النثر منها إلى الشعر ، وصوره قليله لاعتماده على الواقع ، وعاطفته صادقة وقوية .

٢ — وصف غزواته :

كان ابن رزيك فى قصائده إلى أسامه يصف غزواته إلى الفرنجه لكى يؤكد لقادة الشام صدق نواياه ، وليقتنعوا بوجهة نظره التى فشل فيها للأسف الشديد ، فلو توحدت مصر والشام فى ذلك الوقت لكان من الممكن أن يفعلوا شيئا ولكنهم اختلفوا فدفعوا الثمن غاليا .

قال :

سَارَتْ سَرَايَانَا لِقَصْـ ـدِ الشامِ ، تَعْتَسِفُ الرِّمَالا
تَمْضِي خِفَــــافا المُغَا رِ بها ، وتأتينـا ثِقَالا[1]

(١) المنار : الإغارة .

حَتَّى لقـد رامَ الأعا دِى منْ ديارهمُ ارتحالا
هذا ، وفى تل العُجُو لِ ملأنَ بالقتلى التِّلالا[1]
سارتْ إلى أرض الخليـ ل ؛ فلَمْ تَدَعْ فيها خلالا[2]

فقد وصف سراياه التى تحركت إلى أرض الشام خفيفة ، وعادت بعد الإغارة محملة بالأثقال من المواضع التى أغارت عليها كتل العجول وأرض الخليل .

وفى قصيدة أخرى بعث بها إلى أسامة - من خلال هذه الرسائل الإخوانية التى انتقلت من النثر إلى الشعر - حيث وصف فيها الأسطول المصرى الذى كانت له شهرة كبيرة فى ذلك الوقت، لكن مما يؤسى له أن المصريين لم يحسنوا استغلاله فى قتال الإفرنج الذين كانت لهم سفن وأساطيل حربية اعتمدت عليها بعض جيوشهم فى التنقل من صقلية إلى الشام لأن هذه الجيوش كان منها من يأخذ طريق البر ، ومنها من يركب سفن البحر غير أن شعر ابن رزيك فى هذه القصيدة التى قال فيها .

لا كتابٌ ، ولا جوابٌ ، ولا قوْ
لٌ به لليقين منّا حصُولُ

من ذلك الذى يعمد فيه إلى ذكر الحقائق دون الحرص على المعانى الجميلة والصور الخلابة .

٣ — حماسة وفخر :

ذكرنا من الأشعار الملك الصالح طلائع بن رزيك مايكشف عن معدنه وحقيقة أصله بما يحق له أن يزهو ويفتخر ، قال :

---

(١) تل العجول : موضع بالشام .
(٢) الخلال : جمع خل وهو الطريق ، وتطلق على الصديق أيضا .

تَوالَتْ علينا في الـكتائبِ الـكُتْبِ
بشائرُ من شَرْقِ البلادِ ومن غَرْبِ
بشائرُ تُهْـدَى الموالي مَسَرَّةً
وَتُحْدِثُ للباغِينَ رُعْباً على رُعْبِ

وقال أيضاً :

وإنا بنو رُزّيكَ ما زالَ جارُنا
يَحِلُّ لَدَيْنَا بالـكَرامَةِ وَالخِصْبِ
وَنَفنيكُ بالأموالِ في السِّلْمِ دائماً
كما نحنُ بالأعداءِ نفنيكُ في الحَرْبِ

والـكثير من شعر طـلائع في الفخر الحربي حيث امتدح رجال قبيلته ، وكبار قواده ، ورجال جيشه ، وافتخر بجهودهم في ميادين القتال، ومن أصدق ماقاله في هذا الفن الحماسي :

أبى اللهُ إلاَّ أنْ يَدِينَ لنا الدَّهْرُ
وَيخدُمُنا في مُلْـكِنا العِزُّ وَالنَّصْرُ
عَلِمْنا بأنَّ المـال تَفْنَى أُلوفُهُ
ويبقى لنا مِنْ بَعْدِهِ الأجر وَالذِّكْرُ
خَلَطْنا النَّدَى بالبأسِ ، حتى كأننا
سَحَابٌ لديه البَرْقُ والرَّعْدُ والقَطْرُ

هذه هي الحماسة بما فيها من فخر حربي عند ابن رزيك ، وهذا اللون غالبا مايكون عند الشعراء المقاتلين الذين يملأهم الإعجاب والزهو بما حققوه في أرض القتال ولم يكن هذا الشاعر ممن يفتخرون على ألسنة غيرهم ، فإن عمره

فى الوزارة كان قصيراً وحياته فى القاهرة لم تدم إلا سبع سنوات، ولديه من الإمكانات مما لايجعله شاعراً متكسبا أو محترفا ، بل كانت له مجالس مشهودة يحضرها بعض الشعراء كعمارة اليمنى والمهذب بن الزبير .

ونلاحظ أن شعر ابن رزيك يفيض بالحماسة والقوة ، لأن معظمه فى حرب الفرنجة ويمتاز بالتماسك والترابط بين أجزائه ، فالشاعر ينتقل من فكرة إلى فكرة انتقالا طبيعيا من غير تعسف فى القول أو إرهاق فى التعبير، وقد تنحدر الألفاظ فيتحول الشعر إلى مايشبه النثر خاصة عند ذكر الحقائق التى نراها فى شعره فيفقد كثيراً من رونقه وجماله، وهو يعتمد على السرد والقص كأنه يكتب رسالة نثرية لا قصيدة شعرية ، مقتربا بذلك من الشعر القصصى، وربما كان ذلك أثراً ونتيجة لكثرة رسائله الإخوانية التى كتبها شعرا .

وشعره جيد أو متوسط الجودة على العموم ، ذلك لأنه كان يعرض مايقوله على أصدقائه الشعراء فيصلحون مايكون فيه من هفوات وسقطات مما جعل العماد يستكثر كل هذا الشعر على طلائع ، ويرى أن بعضه المهذب بن الزبير ، على أن هذه الريب كثيراً ماتتواجد بين الشعراء ، فتكثر الإتهامات من غير أدلة وبراهين ، وقد جمع الدكتور أحمد بدوى فى مقدمته للديوان عددا من أراء مؤرخى الأدب فى طلائع فليرجع إليها من أراد .

أسامة بن منقذ

أسامة بن منقذ من شعراء القرن الأول من عصر الحروب الصليبية ، وقد نقلت عنه وذكرت له كتب التاريخ والأنساب سلسلة طويلة من نسبه امتدت إلى يعرب بن قحطان ، ويكفى ماقاله ابن خلكان فى هذا النسب عند الترجمة له

من أنه : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى الشيزرى الملقب بمؤيد الدولة مجد الدين .

ولد أسامة فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ (يوليو ١٠٩٥ م) فى شيزر ، وهى إمارة وقلعة حصينة يلتف بها نهر العاصى من ثلاث جهات ، وتقع إلى الشمال الغربى من حماة ، وعلى مسافة خمسة عشر ميلا منها .

وقد نشأ أسامة فى كنف أسرته التى توارثت إمارة شيزر ، وعنى والده بتربيته وتثقيفه ، وشمله عمه أبو العساكر سلطان حاكم شيزر بعطفه ورعايته إذ أنه لم يكن قد أنجب فجعل منه ابنا له ووليا لعهده ، وهكذا كانت نشأته فى هذه البيئة الأدبية المثقفة ، العامرة بالشعراء ، فشب على الفروسية ، وحب الأدب ، وممارسة الصيد .

إلا أن تحولا قد حدث فى مجرى حياته عندما أنجب عمه أولاداً فالتوى بهم عن أسامة وامتلا قلبه بالبغض عليه : « خوفا على أولاده من مكانة أسامة ، وحذراً أن يئول الملك إليه دونهم ، فمضى أسامة إلى الموصل ، لدى عماد الدين زنكى ، الذى صار أكبر أبطال الحروب الصليبية فى وقته ، وأول خطر حقيق داهم الصليبيين ، فانتظم فى جنده ، وحارب تحت قيادته فى عدة معارك[1] »

ثم ترك الموصل وأقبل إلى دمشق سنة ٥٣٢ هـ ، وأقام إلى جوار حاكمها معين الدين أنر الذى استفاد بأسامة فى تصريف شئونه ، وإدارة مملكته مع أن لهذا الرجل موقفا غير مشرف عندما استعان بالصليبيين لحرب نور الدين . وعاد ابن منقذ إلى شيزر لمعاونة أهله فى الدفاع عن وطنه : « عندما هاجمه الفرنج والروم سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) فقد مضى إليه ، وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عنه، وربما

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢ تحقيق د . أحمد بدوى وحامد عبد المجيد .

كان قد عزم على البقاء فى شيزر ، بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١ هـ ، غير أن عمه أبا العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر ، فقد أيقن أنه أصبح خطراً على ملكه ، وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة فى شيزر ، فأمره وإخوته بالرحيل ؛ فتشتتوا فى البلاد وكان فى ذلك الخير لهم ، فإنهم نجوا من الزلازل التى هدمت شيزر ، وقضت على بنى منقذ بأسرهم ، وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢ هـ[1] .

ثم مضى إلى دمشق ، وبقى فيها حتى ساءت العلاقة بينه وبين حاكمها (أنر) فتركها إلى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ (نوفمبر ١١٤٤ م) فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، ووجد فى مصر مايتوق إليه من مال،وابتعد عن المشاركة فى الأحداث السياسية ثم مالبث أن ألقى بنفسه فيها فى عهد الخليفة الظافر حتى قيل : إنه شارك فى المؤامرة التى أودت بحياته وأتت بابن رزيك إلى القاهرة وفى غضون هذه الأحداث ترك أسامة القاهرة هاربا ، ولحق به أهله إلى دمشق فى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) . ولم يذهب إلى شيزر لسوء العلاقة بينه وبين حاكمها ابن عمه الذى ورث عن أبيه كراهية أسامة .

بقى هذا الشاعر الذى نبا به وطنه ومربع صباه بقى فى دمشق مع نور الدين مايقرب من عشر سنين ، ثم ترك دمشق ، وإعتزل فى حصن كيفا ، وعمد إلى القراءة والتأليف إلى سنة ٥٧٩ هـ عندما استولى صلاح الدين على دمشق : « وكان لأسامة ولد يدعى « أباالفوارس مرهف بن أسامة » وكان ذا منزلة عالية عند صلاح الدين ، فظل يصدع لأبيه عند السلطان حتى استدعاه إلى دمشق وهو شيخ قد تخطى الثمانين ، فحاز إعجاب صلاح الدين وتقديره ، وجعله من

---

(١) المرجع السابق ص ٣ .

خاصته بمنزلة المؤامر المستشار وظل أسامة فى دمشق حتى وافته منيته[1] « التى أذن الله بها فى رمضان ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . ودفن بدمشق[2] ، وترك ديوانا شعريا كبيرا وعدة كتب فى الأدب والنقد والتاريخ .

شعره :

قام أسامة فى حياته بجمع معظم شعره فى ديوان ، ثم عنى به من بعده وحافظ عليه ابنه (مرهف) ، وكان الشاعر قد رتب ديوانه على حسب الأغراض الشعرية ، وليس ترتيبا تاريخيا أو هجائيا بالنظر إلى حروف الروى .

وكان ينظر إلى القصائد ذات الأغراض المتعددة فيحيل كل جزء منها إلى موضوعه ، أما لماذا لم يدون كل شعره ؟ فلأن بعضه لم يرق له ، أى أنه كان يتوق إلى مستو ونمط خاص ، وهذا اتجاه حسن حبذا لو التزم به الشعراء فى كل العصور .

وقد ابتدأ ديوانه بالغزل ، لأن الأقدمين قد درجوا على ابتداء قصائدهم به ، وأفرد بابًا للمديح قال فى التقديم له : « ويتشبث به القول فى الفخر المتضمن مآثر الإنسان وخلاله ، ثم الحماسة الراجع معناها إلى التمدح بالشجاعة والبسالة »[3] ، وكان يبتدأ قصائده بالغزل متبعا فى ذلك المنهج التقليدى ، على أن شعره فى هذا الفن خال من دفء الحب وحرارة العاطفة سواء أكان فنا مستقلا أم مدخلا ومطلعا للفنون الأخرى ، وجعل الباب الأخير المراثى .

---

(١) من مقدمة لكتاب العصا لأسامة ضمن كتاب نوادر المخطوطات ص ١٧٧ للمؤلف والمحقق البارع عبد السلام هارون متعه الله بالصحة والعافية .

(٢) عند سفح جبل قاسيون . (معجم الأدباء حـ ٥ ص ١٩٢) .

(٣) الديوان ص ٤٤ .

ومن يقرأ ديوانه تتضح له معالم هذه الشخصية التى طالت حياتها ، وظهر ذلك فى شعر ابن منقذ ، فهو القائل :

خمسون من عمرى مضت لم أنحظ
فيهـــــا ، كأنى كنت غائبا

لحياته وشعره وجهان لعملة واحدة كما يقال . ونجد فى ديوانه تحسره على اختلاف قومه ، وحزنه على تبدد ثروته ، وضيقه بالفرقة والاغتراب ، لكثرة ترحاله ، ثم اقتناعه بهذا التنائى الذى أبعده عن مواطن النزاع والشقاق .

وخلا شعره من الهجاء ، فعاش محبًا لأهله ، ولغيرهم من سائر الناس .

شعره الحماسى:

لأسامة شعر حماسى كثير افتخر فيه بشجاعته فى الحروب ، وبسالته فى قتال الأعداء ، ومنه ما توجه به إلى الأبطال المسلمين الذين دخلوا المعارك مع الصليبيين ، وأبلوا فيها بلاء حسناً ، فأشاد بهم ، وامتدح بطولاتهم ، وسجل انتصاراتهم .

١ — الفخر بحماسته :

عاش أسامة فى عز منيف ، وتربى فى حماية رجال أبطال ، ونشأ أميراً مجهزاً لأن يكون حاكماً مدافعاً عن وطنه ، فتعلم الفروسية ، وشارك فى القتال وهو لا يزال شاباً يافعاً ابن خمس عشرة سنة ، قال :

لخمس عشرةَ نازلْتُ الـكُماةَ إلى
أن شبتُ فيها ، وخيرُ الخيل ما قَرَحا[1]
أخوضُها كشهابِ القذْفِ مبتسمًا
طَلْقَ المُحَيَّا ، ووجه الموتِ قد كَلحا
بصارمٍ ، من رآهُ فى قتامِ وَغًى
أفرى به الهامَ ، ظنَّ البرقَ قد لمحا[2]
فسلْ كُماةَ الوغى عنّى ، لتعلمَ كم
كَرْبٍ كشفتُ وكم ضيقٍ بىَ انفسَحا

فهو يشهد القتال شابا وشيخا ، ويدخل المعارك ، ويلقى الموت مبتسما ، ويحمل سيفا يفرى به رءوس الأعداء ، ومن يبغ معرفته فليسأل عنه أبطال الحروب .

وقد عرض له وهو فى السبعين مرض ألمّ به فمنعه من الركوب ، فأخذ يشتكى بما يكشف عن شجاعته وبأسه فقال :

رجلاىَ والسبعونَ قد أوْهَنَتْ قُوَاى عن سَعْيى إلى الحَرْبِ
وكنتُ إن ثَوَّبَ داعى الوَغَى ابيته بالطعنِ والضَّرْبِ[3]
أنازلُ الأقرانَ يُرْدِيهمُ من قبل ضَرْبى هامَهُمْ رُعْبى

---

(١) الـكماة : جمع كمى وهو الشجاع أو لابس السلاح ، وقرح الفرس : اكتملت أسنانه ، وذلك عند إكمال خمس سنين .

(٢) قتام : غبار ، وغى : حرب ، الهام : جمع هامة وهى الرأس .

(٣) ثوب : دعا .

فلم تدعْ منى الليالى سوى صَبْرِى على الأوَاء والخطْبِ[1]
ألقى الرّزايا رابط الجأشِ فى أحْـداثها مجتمعَ اللُّبِ
ما خانَنِى عَزْمِى ، ولا عزّنى صَبْرِى ، ولا ارتاعَ لها قَلْبِى[2]

ففى هذه الأبيات يشيد بحماسته ، ويفتخر بمنازلته الأقران من غير ضجر أو تحسر . وهو يلبى داعى الجهاد ، ويقبل على الموت إقبـاله على الحياة ، ولا يتبرم إلا عندما يرى نفسه وقد عجز عن المشاركة فى القتال .

وهو فى شعره الحماسى يمتدح بطولته ، ويذكر عظيم خصاله ، فهو شجاع فى الحرب ، يلقى الحوادث هادئا وادعا ، ولا تؤثر فيه خطوبها ، ويرى أن ذخر الإنسان ما يحققه من شرف وكرامة فى الدفاع عن أهله ، وليس فى جمع المال والإكثار منه ، ولا يجزع مما يلم به بل يصبر عليه ، ويحنو على قلبه الذى لا يعرف القلق : قال :

رَمَتْنِى الليـالى بالخُطوبِ جم'لةً
بصَبْرِى على ما نَابَنِى وعَرَانى
فما أوْهَنَتْ عظمى الرّزايا ، ولا لها
بحُسْنِ اصطبارى فى الملِمِّ يَدَانِ
وكم نَـكْبةٍ ظنّ العدا أنها الرّدى
سَمَتْ بى ، وأعْلَتْ فى البريةِ شانِ
وما أنا ممن يَسْتَـكِينُ لحادِثٍ
ولا يملأُ الهوْلُ المخوفُ جَنَانى

---

(١) اللأواء : الشدة .
(٢) عزنى : غلبنى ، ولم يطعنى .

وكأنه أراد أن يؤكد بسالته فى الحروب ، وقدرته على القتال ، فقال :

سلْ بى كُماة الوَغَى فى كلِّ معركةٍ
يضيقُ بالنَّفس فيها صدرُ ذى الباسِ
يُنبِئُوكَ بأنِّى فى مَضايقِهـا
ثبْتٌ ، إذا الخوفُ هزَّ الشاهقَ الرّاسى (١)
أخوضُها كشِهابِ القَذْفِ يَصْحَبُنِى
عَضْبٌ كبَرْقٍ سَرَى أو ضوءِ مِقْباسِ (٢)
إذا ضربتُ به قِرْناً أنازِلُهُ
أوحاهُ عن عائدٍ يَغْشَاهُ أو آسِى (٣)

وربما ظن خصومه فى كثرة ترحاله هروبًا من لقـاء الأعداء ، وعجزاً عن حضور المعامع ، فأفهمهم أن ابتعاده لا يمثل إلا بعداً فى همته ، وأن ترحاله لم يكن بإرادته وإنما لأن الديار نبت به ، وتنكرت له ، ولهذا يطلب أن تكون السيوف حكما بينه وبينهم ، قال :

ولو حكمتْ بينى وبينهمُ الظُبا
رضيتُ بما تقضى المهنّدةُ البُتْرُ (٤)
ولـكن تولى الحاكمان قضاءنا
فـكان أبو موسى لنا ، ولهم عَمْرُو (٥)

---

(١) الشاهق : الجبل .

(٢) العضب : السيف ، المقباس : شعلة نار تقتبس من معظم النار .

(٣) الآسى : الطبيب .

(٤) البتر : السيوف القاطعة .

(٥) يشير إلى مهزلة التحكيم التى حدثت بعد لقاء صفين بين على كرم الله وجهـه ومعاوية رضى الله عنه .

وقد تأثر ابن منقذ فى هذه المعانى بأسلافه القدامى من الجاهليين والإسلاميين فالإحتكام إلى شهادة من حضر المعارك من المعانى التى جاءت فى شعر عنترة، ومواجهة الأعداء بوجه مبتسم مشرق أعادها أبو الطيب المتنبى وكررها. أما الفخر الحماسى فكان أبو فراس رائداً ومبرزاً فيه، وهو وأسامة كلاهما أمير وفارس وشاعر. وهكذا تأثر هذا الشاعر بالأقدمين فى المعانى والأخيلة فضلا عن تأثره بهم فى الألفاظ الجزلة القوية والصياغة الجميلة المعبرة، وهو متأثر بتراث أمته الإسلامية، وعليم بمواطن النزاع فى ماضى الإسلام التليد.

٢ — الإشادة بالأبطال وامتداح حماستهم :

حارب أسامة فى شبابه مع عماد الدين زنكى، ومع ذلك وقف حدود علمى لم يتوجه إليه مشيداً به، وببطولته فى قتال الأعداء كما فعل مع غيره، ولم يكن مبغضا له حتى ينصرف عنه بشعره. ولهذا فإنى أضع أكثر من احتمال فى تبرير ذلك فلربما أصاب واحد منها عين الحقيقة.

لقد أفسح التاريخ فى العديد من صفحاته لتكون سجلا لجهاد عماد الدين، ولم يكن ذلك الرجل على هامش الأحداث حتى يغفله أسامة، وأغلب الظن أنه قال فيه الكثير من الشعر ثم رجع إليه ليضمه إلى الديوان. فلم يرق له، فألقى به، وأغفله. أو أن قريحة أسامة قد تجمدت وتحجرت فى الفترة التى اتصل فيها بعماد الدين لكثرة الشحناء بين أمراء شيزر وما أعقبها من وفاة والده، وهجوم الفرنجة على هذه القمة، على أن فى الديوان بعض الأشعار الحماسية التى اتجه بها إلى أشخاص لم يحدد هويتهم، ولهذا لا نستطيع أن نجزم بمن وجهت إليه وقيلت فيه. فهل توجه بها إلى عماد الدين أو قصد بها غيره؟

ولو وضع عند جمع ديوانه تاريخ القصيدة ومناسبتها لأراحنا من هذه الافتراضات التي ليس لها دليل يقيني، ولا تعدو أن تكون مسائل ظنية.

ويبقى أن أذكر شيئاً من شعره الحماسي الذي قاله في الإشادة بالأبطال المسلمين، ووصف جهادهم ضد الصليبيين، قال:

أنتَ حلَّيتَ بالمكارم أهل الـ ... عَصْر حتى تعرَّف المجهولُ
والذي لم يَحِنْ بسيفِكَ مِنْ خَوْ ... فِكَ أمسى، وعقلُه مخبولُ[1]
مثَّلَ الخوفُ بين عينيه جيشاً ... لك في عُقْر داره ما يَزُولُ
فرأى من عزيمةِ الغزو ما كا ... دت له الأرض والجبالُ تميلُ
وأجابتْهُ بالصليل سيوفٌ ... ظامئاتٌ، وبالصَّهيل خيولُ

ولأسامة شعر كثير أشاد فيه بطلائع، وردّ به على رسائله التي كان يدعوه فيها إلى القاهرة وكنه تركها، وعقد العزم - فيما يبدو - على عدم العودة إليها، فقد أوشك أن يلقى فيها حتفه جزاء ما أقحم فيه نفسه عند مقتل الظافر، وكان طلائع يرى براءة أسامة مما لصق به، ويلقى بالجريرة على بعض الوزراء الخونة، وربما كانت جيرة أسامة لنور الدين عوضا عما في القاهرة من بريق ومجالس أنس: ومن شعره في ابن رزيك هذه الأبيات:

يا أميرَ الجيوش، ما زال للإسْـ ... ـلاَم والدين منك ركنٌ وَثيقُ
أَسْمَعَتْ دعوةُ الجهاد، فلبَّا ... ها مليكٌ بالمكرمات خليقُ
ما له عن جهاد الكُفر وَالعد ... ل وفعل الخيْرات شُغْلٌ يعوقُ
هو مثلُ الحسام: صدر صقيلٌ ... لَيِّنٌ مَسُّه، وحدٌ ذَليقُ[2]

---

(١) حان. هلك.

(٢) صقله: جلاه، وذليق حاد.

ذو أناةٍ يخالهـا الغِرُّ إهما لاً وفيها ، حتفُ الأعادي المُحيقُ[1]
فأسْلَمَتها للإسلام كهفين ما طو رَ ثوبَ الظلام برقٌ خفُوقُ[2]

ولعل القارىء يلاحظ معى أن المعانى متقاربة فى معظم هذه الأشعار ، والعاطفة عند أسامة أقل من نظيرتها عند طلائع من حيث الصدق والقوة ، مع أن لأسامة بعض القصائد الحماسية التى أبدع فيها وتفوق بها كثيراً على ابن رزيك إذ أنه كان شاعراً كبيراً متعدد المواهب والفنون .

قال فى صلاح الدين :

هُوَ مَنْ عرفتَ فلو عَصَاهُ نهارُهُ
أرماه نَقْعُ جُيُوشــه بالغيهبِ

ولم يشتمل ديوانه على هذا البيت ، وقد أراد أن يصف كثرة جيوش الناصر الشبيهة بالغيهب فى أنها تغطى الفضاء حتى لا يبصره مبصر ، فكأنه فى الظلام[3] .

ولم أجد أسامة فى شعره الحماسى يبدأ قصيدة أو مقطوعة بالغزل والتشبيب على كثرة ماقدمت له ، وعلى كثرة ما قال هو أيضاً ، كأنه كان يرى أن الغزل لا يتناسب مع شعر الحماسة والحرب فانصرف عن ذلك التقليد الذى لزمه غالباً فى سائر الأغراض الأخرى ، ولهذا نلمس فى شعره الجلال والوقار فهو حقيقة

---

(١) أحاق به : أحاط به .
(٢) الكهف : الملجأ .
(٣) راجع معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٠٧ .

أمير فى حياته وشعره . ونذكر له ذلك حتى لو اقتطع المطالع الغزلية وجعلها فى باب الغزل لأنه هو الذى قام بترتيب الديوان كما ذكرنا .

ومن حياته الطويلة ، وكثرة تجاربه وترحاله إلا أنه كان صلداً شامخا ، وقويا متماسكا فلم يستسلم أو يتضعضع بل قاوم المحن والإحن ، وخرج منها منصوراً منتصراً .

وارتدى شعره أثياب القوة والجزالة أسلوبا وعبارة ، أما المعانى فلم تكن فى معظمها من ابتكاره وإبداعه ، بل كان محتذيا ومقلداً . وقد كسا ما احتذاه أردية من الفخامة والقوة ، وساقها ممتزجة ملتحمة ، وإن كنا قد أخذنا عليه كسائر شعراء عصره الاهتمام بالبديع ، والحرص على الألفاظ على حساب المعانى كثيراً ، وإن كان ذلك عنده أقل بكثير مما ألفناه عند غيره من الشعراء فى عصره ، ولهذا فهو يعد فى مقدمة شعراء الحماسة الذين جمعوا بين القديم والجديد فى عصر الحروب الصليبية .

ابن سناء الملك :

عاش ابن سناء الملك حياته فى الفترة التى علا فيها صوت الحروب الصليبية بفضل ما حققه صلاح الدين من انتصارات عظيمة ـ وإن لم تكن حاسمة ـ على الصليبيين فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى . وحظى هذا الشاعر بما لم يحظ به شعراء عصره ، وقد أشاد بشعره ونثره كبار معاصريه من أمثال القاضى الفاضل ، والعماد الأصبهانى ، وغيرهما ممن لزم صلاح الدين ، وعمل معه .

وابن سناء هو هبة الله بن جعفر السعدى ، وهذا أقل ما يقال فى نسبه ، وإلا فهو القاضى السعيد هبة الله ، ووالده القاضى الرشيد جعفر ، وجده سنا الملك

محمد بن هبة الله بن محمد السعدي[1]. وقد عرف هبة الله بابن سناء الملك ، وهو اسم جده كما رأيت.

ولد بالقاهرة سنة ٥٥٠ هـ على أرجح الأقوال ، وهذا التاريخ قد اختاره محقق ديوانه[2] من بين غيره من التواريخ ذلك لأن ابن سناء : « في سنة ٥٧٣ هـ عرض في إحدى قصائده عن مدحهم من الشخصيات البارزة في المجتمع، ولم يلتفتوا إليه فقال :

تكمل فضلي قبل عشرين حجة
فكيف وقد جاوزتها بثلاث
وأنفقت عمرى في مدائح معشر
كموتى ، ولو أنصفت كن مواتى

فبذلك يكون قد حدد عمره ، وتاريخ مولده ، وأنه ولد في سنة ٥٥٠ هـ »[3].

نشأ الشاعر في أسرة غنية ذات مكانة اجتماعية مرموقة ، وكان والده يشغل وظيفة هامة ، ويحب الأدب ، ويحرص على مصادقة رجاله ، فأتاحت هذه البيئة لابن سناء أن يتلقى علومه على كبار الأساتذة في علوم الفقه والدين واللغة ،

---

(١) راجع معجم الأدبا جـ ١٩ ص ٦٥ ، وغيره من الكتب الكثيرة التي ترجمت لابن سناء الملك.

(٢) في طبعته المصرية ، وهو محمد إبراهيم نصر ، وقد سبق أن حقق الديوان باحث هندي هو الدكتور محمد عبد الحق عضو مجلس الموظفين لحكومة مدراس سابقا ، بإشراف مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ـ الهند في سنة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م ثم طبع في مصر بدار الكاتب العربي سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م ، وهي الطبعة التي بين أيدينا .

(٣) ابن سناء الملك حياته وشعره جـ ١ ص ٤٣ .

بل إن والده بعثه إلى الاسكندرية ليدرس الحديث على يد الحافظ السلفى وهو المحدث الكبير فى ذلك الوقت . ثم اكتملت ثقافة ابن سناء بتعلمه اللغة الفارسية ، فيسرت له الإطلاع على الموشحات الفارسية ، والتأثر بهما . وماذا يبغى الدارس فى ذلك الوقت أكثر من تعلمه لبعض اللغات الأجنبية ، وحفظه القرآن الكريم ، وتعلمه الأدب واللغة والنحو ، ودراسته لبعض العلوم الطبيعية كالفلك وغيرها ؟

ويبدو أن جعفرا السعدى قد أعد ابنه هذا الإعداد للعمل فى ديوان الإنشاء حيث يوجد القاضى الفاضل (عبد الرحيم البيسانى) وزير صلاح الدين والأديب المترسل ، والشاعر صاحب الطريقة المعروفة فى الشعر والنثر .

وتيسر لابن سناء من خلال اتصاله بالقاضى الفاضل أن يلتقى بالوزراء والأمراء وكبار القادة فى عهد صلاح الدين ، وأن يمدحهم ويشيد بهم ، وينال جوائزهم ، وعندما سافر القاضى الفاضل إلى دمشق فى سنة ٥٧٠ ﻫ لم تنقطع الصلة بينه وبين ابن سناء الذى بقى نائبا عنه فى القاهرة . ودام الإتصال بينهما .

وكان ابن سناء يرسل القصائد ، ويتولى القاضى تقريظها ، ولشدة ما كان بين الرجلين من إعجاب أرسل الوزير لشاعره يستقدمه إلى الشام فى سنة ٥٧١ ﻫ ، فسافر إليها ، والتقى فيها بالعماد الأصبهانى الذى أفاض فى تقريظه ، والإعجاب به ، لكن الشاعر تشوق إلى القاهرة ، وود لو عاد إليها ، وعاقه نيلها . ولما جاء صلاح الدين إلى مصر بحاشيته فى سنة ٥٧٢ ﻫ وكان معه القاضى الفاضل وابن سناء ، وأقام بها ، ثم أراد الرجوع إلى دمشق بقى ابن سناء فى مصر راعيا لمصالح القاضى الفاضل حتى توفى سنة ٥٩٦ ﻫ .

ثم تحول الشاعر إلى مدح الملك العادل أبى بكر وهو أخو صلاح الدين الذى

ولى مصر بعد أن تنازل عنها الملك الأفضل (ابن صلاح الدين) ، ومدح ابن سناء أيضا صفى الدين بن شكر وزير العادل ذلك الرجل الذى كان عدوا لدودا للقاضى الفاضل ، وقد ازداد عجبى لهذا التحول لابن سناء من غير أن يرعى حق الوفاء لأستاذه وصاحب الفضل عليه ، ولابد أنه قال فى هذا الوزير مالا يرضى عنه البيسانى لو كان حيا ، ثم ما الذى يرغم ابن سناء على هذا التحول وقد كان غنيا مترفا ؟ . . . يبدو أن ذلك التصرف كان سجية وطبعا . على أن الجانب الآخر من هذا الإتجاه يؤكد ولاء الشاعر وإخلاصه للأيوبيين من خلفاء صلاح الدين حتى توفى « يوم الأربعاء رابع شهر رمضان سنة ثمان وستمائة بالقاهرة[1] » وترك شعرا كثيراً ضمه ديوانه المطبوع فى أكثر من طبعه ، وله فى الموشحات ديوان اسمه « دار الطراز[2] » وله فى النثر ديوان رسائل سماه « فصوص الفصول وعقود العقول » ولتأثره الكبير بالجاحظ صنف كتابا أسماه « روح الحيوان » لخص فيه كتاب « الحيوان » للجاحظ .

شعره الحماسى :

لابن سناء الملك شعر كثير ، متعدد الموضوعات ، وأكثر من نصفه فى المدح متوجها به إلى القاضى الفاضل ، صلاح الدين وغيره من الأيوبيين ، والباقى من شعره فى الفنون التقليدية الأخرى كالرثاء والهجاء والوصف والفخر والزهد والاعتذار والحكمة . وعلى هذا فليس فى ديوانه قسم مستقل للحماسة كما رأينا عند غيره من الشعراء لكنه عرض لها من خلال فنين من فنون شعره وهما المدح والفخر ، وأكثر شعره الحماسى فى القصائد التى امتدح بها صلاح الدين

---

(١) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٦٥ .

(٢) حققة د جوده الركابى .

وبعض خلفائه ، وأشاد بحماستهم ، ووصف معاركهم ، وسجل انتصاراتهم ، أو فيما قاله متفخراً ببطولته وعظيم خلاله . وقد عرض في شعره الحماسي إلى ما يأتي :

١ — الإشادة بالأبطال ووصف معاركهم .

أشاد ابن سناء بالأبطال الأيوبيين الذين شاركوا في الحروب الصليبية ، وأبلوا فيها بلاء حسنا ، ووصف شجاعتهم ، وسجل معاركهم التي انتصروا فيها ، وقصد صلاح الدين بتسع قصائد وأخاه توران شاه بقصيدة واحدة ، وابنه الملك الأفضل بأجزاء كثيرة من بعض القصائد ، وبالنظر إلى هذا القدر الذي عرض له ابن سناء من خلال في المديح — كما يقول الديوان — نراه قليلا لا يتناسب مع شعره الكثير ، ولا يتناسب أيضاً مع مكانة صلاح الدين في قلوب الناس على عصره ، خاصة إذا كنا نعرف أن ما قاله الشاعر في مدح القاضي الفاضل بلغ سبعا وثلاثين قصيدة ، وأرى أن ذلك راجع إلى كثرة الشعراء من حول الناصر ، وانصرافه عنهم كثيراً إلى حروبه ، وأن ابن سناء لم يكن ملازماً له كالقاضي الفاضل والعماد الأصبهاني وغيرهما ، بل كان يبعث إليه بقصائده من مصر إلى الشام حيث يوجد صلاح الدين ورجال حاشيته ، فابن سناء كان بعيداً في أوقات كثيرة عن أضواء السلطان فاتجه إلى مدح الوزراء والإشادة بأبناء صلاح الدين وإخوته .

على أن القصائد التسع التي أشاد فيها بصلاح الدين هي معظم ما قاله ابن سناء في شعره الحماسي ، ذلك لأن هذا البطل « بهر الشعراء جميعاً ، وهزت مواقفه نفوسهم ، وخلق بمواقفه البطولية في صد الصليبيين لوناً من الشعر الحماسي »[1] .

---

(١) ابن سناء حياته وشعره ص ٦٦

وقد سبق أن أشرنا إلى بعض من تحدثوا عنه من الشعراء بعد حطين ، ومنهم – بالطبع – شاعرنا ابن سناء .

وفي سنة ٥٧٥ هـ عندما كان الشاعر بمصر بعث بقصيدة إلى الشام حيث كان صلاح الدين يحارب الفرنجة ، وينتصر عليهم ، ويأسر فرسانهم وشجعانهم ، وهذه القصيدة ذات مطلع غنائي يقول فيه[1] :

أَبَى صَدُّها أن يجمع الحُسْنَ وَالحُسْنَى
ووجدى بها أن أجمعَ الجَفْنَ وَالجَفْنَا

ثم أشاد به ، وامتدح بطولته فقال :

أقامَ بدار الكُفر تُجْنَى له الجزَا
وتودى له القتْلَى ، وَتُسْبَى له الحُسْنَى
أصاف وشتَّى بين عكَّا وعَزْقَة
هُمامٌ يراها ساعةً وهُو قد أَسْنَى
أقمْتَ بها التوحيدَ للهِ وَحْدَهُ
وأنسيْتَ فيها الزوجَ والأبَ والابْنَا

وقد وصف في هذه الأبيات شجاعة صلاح الدين ، وصور ما ألحقه بديارهم ، وأشاد به عندما أقام فيها التوحيد بدل التثليث مما جعلهم يتركونه هاربين ، ثم تابع إحدى هذه المعارك وما جرى فيها فقال :

وقد وقفُوا السكن لأسر رقابهم
وقطفِ رءوسٍ منهم آنَ أنْ تُجْنَى

---

(١) القصيدة بالديوان ص ٣٢١ .

ثَبَتَ لهم والسَّيفُ قد كره الطُّلَى
وجالدتهم والقِرْنُ قد سئم القِرْنَا
بضربٍ يذيبُ الشمسَ فى الأُفق حرُّهُ
وَيَخرِقُ ما بَيْنَ القلوبِ من الشَّحْنَا
مَضَى مَلْكَهُمْ فى أول الأمْرِ هارباً
يُحِسُّ قفاهُ الطعْنَ فيه ولا طَعْنَا
وما زالَ أعمى العَيْنِ والقلبِ فانثنى
وقرعُ العوالِى قَدْ أصمَّ له الأُذْنَا
وقد أنِفَتْ منه المواضِى لجبنه
فلما نَجَتْ حَوْبَاؤُهُ شَكَرَ الجُبْنَا(١)
ولم يَقْرَعِ النَّاقُوسَ بعد انهزامِهِ
ولكنَّهُ من بَعْدِهِ قرع السِّنَا

وبعد أن سجل المعركة بهذه الصورة ووصف انهزام ملك الأعداء انتقل إلى ذكر القواد الذين ماتوا ، أو أسروا فازدحمت بهم السجون .

وعندما مرض صلاح الدين فى سنة ٥٨١ هـ وهو بحران أرسل ابن سناء إليه قصيدة عن طريق القاضى الفاضل (كعادته) يشيد فيها ببطولته وبجهوده فى كسر شوكة الصليبيين ، ومطلعها :

أمجلسَ لهوى ليسَ لى منك مَجْلِسُ
لأوحَشْتَ لمَّا غابَ لى عنك مؤْنِسُ

(١) الحوباء : النفس .

وقد طال هذا المطلع الغزلى حتى بلغ عشرين بيتًا من مجموع الأبيات ، وهو ثمانية وخمسون .

ثم تحدث عن بطولة صلاح الدين ، وجهاده فى قتال الأعداء ، فقال :

وَيُرْسِلُ عَزْمًا للأعادِى مبكّراً
فيأتيـــه فتحٌ للأعادِى مُغلِّسُ(١)
يُرَى جَذِلاً فى حَوْمَةِ الحرب ضاحِكاً
فلا القَلْبُ منخوبٌ ولا الوَجْهُ مُعْبِسُ
أغارَ عبوسَ الوجه فيها جوادُه
ومن عَجَب أنَّ الجواد يُعَبِّسُ
تطير إليـــه طالباتٍ أمانَهُ
ومعتذراتٍ منه أيدٍ وأرؤُسُ
وفى كفِّهِ ماضٍ مَدَى وكأنهُ
من البَرْقِ يَجْنِى أو من النَّار يَقْبِسُ

ففى هذه الأبيات جعل ابن سناء السلطان مبتسما ضاحكا فى أرض القتال بينما كان حصانه عبوسا مكتئبا مما أثار العجب ، وأخذت أشلاء الأعداء تتطاير إليه طالبة منه الأمان من سيفه الذى كان يلمع ويتوهج من كثرة ضربه للأعداء .

ومما قاله فى هذه القصيدة عن لقائه بالصليبيين :

وأظلمَ فيها النقعُ واشتبكت الظُّبَى
فأصبحَ فيها الموتُ لا يتنفَّسُ

---

(١) أغلس : دخل فى ظلمة آخر الليل .

خيولهم أمّا على كلِّ قلعــةٍ
فتعلو وأمّا في الدّماء فتَنْغَمِسُ

أمَرْتَهُمْ أنْ يُنْذِرُوا قبلَ حربهم
ولم تَرضَ أن الجيشَ في السرِّ يَكْبِسُ

وأغناكَ عن كيدِ الأعادى احتقارُها
فما لكَ فيهم مُخبِرٌ يتجسَّسُ

لأعدائكَ الويلُ الطويلُ أما دَرَوْا
بأنكَ شمسٌ نورُها ليسَ يُطمَسُ

وقد تأثر ابن سناء في هذه القصيدة ببعض ما قاله المتنبي في موقعة الحدث ، وعندما نقرأ الأبيات السابقة ، ونراجع أخواتها في ديوان ابن سناء نسوف نراه قد تأثر بمعظم الأفكار في ميمية المتنبي .

فابن سناء جعل صلاح الدين يقف في المعركة ضاحكا مستبشراً عندما قال :

يُرَى جَذِلاً في حَوْمَةِ الحربِ ضاحكا
فلا القلبُ منخوبٌ ولا الوجه مُعْبِسُ

وقد سبقه المتنبي إلى هذا المعنى عندما قال :

تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً
ووجهكَ وضّاحٌ وثغرُكَ باسمُ

والقصيدتان من بحر الطويل ، وإن كان الروى فيهما مختلفا ، وهما في الإشادة ببطلين عظيمين من أبطال الإسلام ، كما أن قصيدة المتنبي في معركة معينة وهى الحدث بينما قصيدة ابن سناء ليست كذلك ، فقد قالها وصلاح الدين في فراش المرض ، ثم نرى الميمية من أولها إلى آخرها عن الحرب والقتال

بينما تبدأ سينية ابن سناء بمطلع غزلى بلغ عشرين بيتا ، ولعل هذه هي أهم الفروق الظاهرة بين القصيدتين . والقارىء لا يحتاج إلى من يؤكد له تفوق المتنبي في قصيدته من كل الوجوه[1] مع الإعتراف بمطاء ابن سناء وموهبته الفنية .

ولا يظن القارىء أن ما قاله ابن سناء في صلاح الدين من شعر كان يبدؤه بالغزل التقليدى كالقصيدتين السابقتين إذ أنه قد أشاد به في قصائد أخرى من غير هذا التقليد ، فله ميمية حماسية تبدأ بقوله :

أرَى كلَّ شىء فى البسيطةِ قد نما
بعدلِكَ حتى نمت أنجمُ السَّمَا

وقد عرضنا في شعره عن صلاح الدين لقصيدة تبدأ بقوله :

لستَ أدرى بأىِّ فتحٍ تُهنَّا
يا منيلَ الإسلامِ ما قد تمنَّى

وهكذا نراه في شعره عن صلاح الدين قد تخلى كثيراً عما سار عليه في معظم فنون شعره من الإبتداء بالغزل كعادة الأقدمين .

ولابن سناء أيضا قصيدة حماسية من أولها إلى آخرها ، أشاد فيها بصلاح الدين ، وهنأه بفتح حلب في سنة ٥٧٩ هـ . وقد كانت هذه المدينة ذات الماضى التليد ، والتى تذكرنا بأمجاد سيف الدولة ، وبروائع أبى الطيب وأبى فراس — كانت حتى التاريخ المذكور مما تبقى في أيدى آل زنكى ، فأغار عليها صلاح الدين ، واستسلمت له ، وأخذ صاحبها عماد الدين زنكى[2] سنجار[3] وعدة

(١) سبق أن عرضنا لها في الباب الأول من هذا الكتاب .
(٢) هو حفيد عماد الدين زنكى الذى فتح الرها ، وقهر الصليبيين .
(٣) بلد بالعراق .

مدن أخرى عوضا عنها ، ولعل صلاح الدين قد فعل ذلك اعترافا بما قدمه الزنكيون له ولآبائه ، وكان آخرهم نور الدين محمود صاحب الأيادى البيضاء على صلاح الدين نفسه ، وهكذا أصبحت حلب واحدة من البلاد الكثيرة التى تدين بالطاعة للأيوبيين . وانتهز ابن سناء هذه المناسبة فأرسل من القاهرة قصيدة فى هذا الفتح إلى صلاح الدين حيث يوجد بأرض الشام ، ولم يبدأها بالغزل ، بل أشاد فى مطلعها بالأكراد الذين كانوا يسمون بالأتراك ، قال :

بدولة الترك عزّتْ ملّةُ العرَبِ
وبابن أيُّوبَ ذلّتْ شيعَةُ الصُّلُبِ (١)

فالشاعر ينادى بما يمكن أن يسمى بالقومية الإسلامية . فهذه القصيدة ليست عن قتال صلاح الدين للصليبيين ، وإنما عن قتاله لبعض طوائف المسلمين ، فالباعث مختلف ، وإن كان استيلاء صلاح الدين على حلب يعد سببا من أسباب قوته لجهاد الصليبيين ، وهم العدو الحقيقى له ولسائر المسلمين ، ثم قال :

وفى زمانِ ابن أيُّوبٍ غدتْ حلبٌ
من أرضِ مصرَ وعادت مصرُ من حلبِ

وإذا كان الشاعر قد نبه فى البيت الأول إلى القومية الإسلامية فإنه هيأ الإحساس فى هذا البيت إلى الوحـــدة العربية التى كانت ولازالت أملا كبيراً ، وقال :

ولابن أيُّوبَ دانَتْ كلُّ مملكةٍ
بالصفحِ وَالصُّلحِ أو بالحرب وَالحَرَبِ (٢)

---

(١) ملة العرب : الإسلام . شيعة الصلب : أتباع الصلبان (يقصد الصليبيين) .
(٢) الحرب بالتحريك : النهب والسلب .

وَالدَّهْرُ بالقـدرِ المحتوم يخدُمُهُ
والأرضُ بالخلقِ، والأفلاكُ بالشُّهبِ
إنَّ العواصمَ كانَتْ أيُّ عاصمةٍ
معصُومَةً بمعاليهـا عن الرُّتَبِ
جليسةُ النجمِ في أعْلَى مَنَازِلِهِ
وطالما غابَ عنها، وهي لم تَغِبِ

والشاعر في هذه الأبيات يبدو متأثرا بأبي تمام في قصيدته التي أشاد فيها بالمعتصم لفتحة « عمورية » وقد يزداد هذا التأثر وضوحا في الأبيات التالية التي وصف فيها ابن سناء جيش صلاح الدين فقال :

أتى إليها يقودُ البحرَ ملتَطِماً
والبِيضُ كالمَوْجِ وَالبَيْضَاتُ كالحَبَبِ(١)
تبدو الفوارسُ منهُ في سوابغها
بين النقيضين من ماء ومن لهبِ
مُسْتَلْئِمِينَ ولولا أنهم حَفِظُوا
عوائد الحربِ لاستغنوا عن اليَلَبِ(٢)
جِمَالُهم منْ مغازيهم إذا قَفَلُوا
حَمَّالةُ السَّبْيِ ؛ لا حمَّالةُ الحَطَبِ

---

(١) البيض بكسر الباء : السيوف ، والبيضات : جمع بيضة ، وهى الخوذة . الحبب : تنضد الأسنان .

(٢) اليلب : الدروع .

وهنأه على هذا الفتح ، وأشاد به فقال :

فتحُ الفُتُوحِ بلا مَيْنٍ وصاحبُه
مَلْكُ الملوكِ ومولاها بلا كَذِبِ (١)

تَهَنَّ بالفتحِ يا أوْلَى الأنام به
فالفتحُ إرْثُكَ عن آبائِكَ النُّجُبِ

بك العواصِمُ طابَتْ بعدما خَبُثَتْ
بمالِكِيها ، ولولا أنْتَ لم تَطِبِ

ومع إعجابنا بهذه القصيدة الحماسية التى تعد إحدى القصائد الجيدة فى شعر ابن سناء لعدم إسرافها فى الصنعة ، وجودة صياغتها ، وجزالة ألفاظها ، وتوفر العديد من الصور المتحركة والنابضة فيها إلا أننا لا نوافق محقق الديوان (٢) عندما قال عن هذه القصيدة فى حديثه عن حياة ابن سناء وشعره : « وما أجدر هذه القصيدة أن توضع إلى فرائد المتنبي فى سيف الدولة ـ سجل الشاعر فيها الأحداث ، وانفعل بها ، وعبر عن مشاعره وأحاسيسه وتجربته الواعية الصادقة . . . » (٣) .

ولنقرأ له بعض ماقاله عن أبيات من النونية السابقة ذات المطلع الغزلى الذى قال فيه ابن سناء :

---

(١) المين : الكذب .

(٢) هو الأستاذ محمد إبراهيم نصر .

(٣) ابن سناء الملك حياته وشعره جـ ١ ص ٦٨ .

أبى صَدُّها أن يجمع الحُسْنَ وَالحُسْنَى
وَوجدى بها أن أجمعَ الجفنَ والجفنا

قال : « وقد أجاد الشاعر اختيار الألفاظ إجادة جعلته يقف ندا لندا مع المتنبي في سيفياته ..[1] »

ويبدو أن محقق الديوان قد أعجب بابن سناء إعجابا خالف به الحقيقة فذكر ما لو عرضه على ابن سناء نفسه لرفضه حيث جعله صنواً المتنبي ، ثم خالف نفسه ، وانتقد شاعره انتقاداً مراً ، فهدم به ما بناه له من إشادة وإعجاب .

وكثير من الباحثين – خاصة إذا كانوا في أول حياتهم التأليفية – يتعصبون لمن يكتبون عنه ، فيرفعونه إلى درجة لا يستحقها ، ولو طال بهم العهد لأيقنوا خطورة جرأتهم الغريبة وأعادوا النظر فيما سبق أن قالوه ، وتعصبوا له . فابن سناء لم يصل في (صلاحياته) إلى ما وصل إليه أبو الطيب في (سيفياته) وشتان بين هذه وتلك مع الإقرار بمكانة ابن سناء بين شعراء عصره وكتابه ، وقد برع في الموشحات ، وألف فيها ، فضلا عن إنتاجه الأدبي في مجال النثر الفني مع التأكيد على اختلاف طبيعة الأدب واتجاهاته بين القرنين الرابع والسادس الهجريين .

٢ — الفخر الحماسي :

لابن سناء قصيدتان في الفخر الحماسي ومقطوعة من ثلاثة أبيات ، ولم يكثر

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١١٦ .

فى هذا اللون لأنه كان يختص نفسه ببعض الأبيات فى القصائد التى أشا فيها بالأبطال الأيوبيين ووزرائهم ، فقد قال عن نفسه فى قصيدة له عن صلاح الدين :

وإنّى لى البشرى وإنْ فِرَاسَتِى تصحُّ لأنى مؤمنٌ أتفرّسُ(١)
لك المدحُ منِّى ينتشى السامعُونَ به كأنَّ مَديحِى فى مَعَاليك أكؤسُ
كلانا بديعُ الصنعِ مطبّقٌ وجاشك فى قهر الملوك مُجَنَّسُ

أما قصيدتا الفخر فمطلع الأولى منهما وهى البائية قوله :

أيَدْفَعُنِى الدهْرُ عن مَطْلَبِى وَيُكثرُ من لوْمِه المَطْلَ بِى
ويقصدُ صدى إذا ما صداى أراد الوُرُودَ عَلَى مَشْرَبِى

وقد افتخر بآبائه ، وبالغ فى الإشادة بهم ، وعاتب الدهر لعناده وكثر مطله ، ولم يطل نفس الشاعر فى هذه القصيدة حيث بلغت عشرين بيتاً

أما القصيدة الثانية فقد سارت بها الركبان كما يقول عنها ياقوت الحمو فى معجم الأدباء ، أو تقف دونها فرسان الحماسة كما يقول ابن حجة الحمو فى خزانة الأدب ، وهى متوسطة بين الطول والقصر إذ تبلغ أبياتها ثلا وأربعين ، ولم يذكر الديوان مناسبة لها ، ومطلعها :

سوَاى يخافُ الدهْرَ أو يرهبُ الردى
وغيرى يَهْوَى أنْ يكون مُخلّدَا
ولكننى لا أرهبُ الدهْرَ إن سَطا
ولا أحذر الموْتَ الزؤام إذا عدا

---

(١) لعله قد نظر إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ينظر بنور الله » .

ولو مدّ نحوى حادثُ الدهرِ طرفه
لحدثتُ نفسى أن أمدّ له يدا

وقد عبر الشاعر عما يملأ نفسه ونفوس المصريين من فخر وعزة وثقة بعد أن حقق صلاح الدين العديد من الانتصارات على الفرنجة وذلك فى ألفاظ سهلة وعاطفة متقدة ، وقال :

توقدُ عزمِى يترُكُ الماء جمرةً
وحِليةُ حِلمِى تتركُ السيفَ مبْرَدَا
وأظمأُ إنْ أبدى لى الماء مِنَّةً
ولو كانَ لى نهرُ المجرَّةِ مَوْرِدَا
ولو كانَ إدراكُ الهُدَى بتذلُّلٍ
رأيتُ الهُدَى ألاّ أميلَ إلى الهُدَى
وإنّكَ عَبْدِى يا زمانُ وإنّنِى
على الكُرْهِ مِنِّى أنْ أرَى لكَ سَيِّدَا
وما أنا رَاضٍ أنْ أرَى وَاطِىء الثّرَى
ولى هِمّةٌ ولا ترْتَضِى الأُفْقَ مُقْعَدَا
ولو عَلِمَتْ زهرُ النجومِ مكانَتِى
لخرّتْ جميعاً نحوَ وَجْهِىَ سُجَّدَا
أرى الخلقَ دونى إذْ أرَانى فوقَهمْ
ذكاءً وعلماً واعتلاءً وَسُؤْدَدَا
ولى قلمٌ فى أنمُلِى إنْ هَزَزْتُهُ
فما ضَرَّنى ألاّ أهُزَّ المُهَنَّدَا

وانظر كيف جعل الشاعر عزيمته المتقدة تحيل الماء إلى جمرة ملتهبة ، وكيف

يفل حلمة حد السيف ! وذكر أنه لقوة عزيمته يفضل الظمأ إذا أحس أن الماء يمن عليه ، وبالغ وأسرف فى مبالغته عندما رفض هدى الله ورضاه إذا كان يأتى عن طريق التذلل ، وبالغ فى فخره فجعل من نفسه سيداً للزمان ، وجعل من الزمان عبداً له ، ورأى أن مكانه فى أجواز الفضاء ، وكيف يكون على الأرض وهو فوق الناس ذكاء وعلما ومكانة وشرفًا ؟ وذكر أن همته فى الكتابة يقصر عنها حمل السيوف والمشاركة فى القتال .

وهذه الدالية من أشهر قصائد ابن سناء على الإطلاق لقوتها ، وسهولة ألفاظها ، وبعدها عن التوعر ، وعدم تكلفها ، ولا يؤخذ عليها إلا الغلو والإسراف فى المبالغة ، وقد عهد الناس ذلك من أكثر الشعراء .

وقد امتلأت هذه الأبيات بالحماسة والفخر الذاتى ، وبالنظر إلى القصيدة من خلال عصرها نجدها من أفضل ما قيل من شعر حماسى فى هذا العصر .

ويلاحظ أن الشعر الحماسى عند ابن سناء فى مستو جيد ، والعاطفة عنده تقوى وتضعف أو تعلو وتهبط ، والألفاظ تجمع بين السهولة والجزالة ، وتميل إلى الرونق البديعى كسائر شعراء العصر ، وقد انعكست ثقافته الدينية ، ومعرفته بعلوم الفلك على فنون شعره ، وبكل هذه الخصائص وغيرها كان ابن سناء رائداً ومبرزاً فى شعر الحماسة والفخر .

الفصل الرابع

الملامح العامة لشعر الحماسة

« من أول الحروب الصليبية حتى نهاية العصر العباسى الثانى »

قدمت فى صفحات سابقة شعراً حماسياً لقرابة خمسة عشر شاعراً من أوطان إسلامية متعددة على مدى حقبة زمنية قد تزيد عن مائة وخمسين سنة . ومما ينبغى ذكره أن هذا العدد من الشعراء يعد قليلا إذا ما قيس بالكم الهائل لشعراء الحماسة فى عصر الحروب الصليبية . ثم اخترت من هذا العدد ثلاثة شعراء تحدثت عنهم ، ومثلت لهم بعشرات الأبيات كتعبير عن الألوان المختلفة للشعر الحماسى إبان الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها .

— ١ —

لقد كثر الشعر الحماسى فى هذا العصر حتى يمكن أن يكون الشعر الصليبى كله شعراً حماسيًا متقداً . ففى شعر الحث والتحريض على القتال نرى الشعراء قد أسهموا بنصيب كبير فى إيقاظ الشعور العام ، وتحريك المسلمين للذود عن دينهم ووَطنهم ، وعبروا عما يدور فى نفوسهم من القضايا المصيرية التى شغلتهم لسنوات طويلة . وكشف الشعراء فى تسجيلهم للمعارك عما حدث فيها من بذل للجهد وَالمال ، وأوضحوا نشوة المسلمين بالنصر ، وفرحهم بكل إخفاق يحيق بالصليبيين ، وأشادوا بأخلاق الإسلام لما فيها من رحمة بالأسرى ، وعطف عليهم بالمن أو الفداء . وكانت الانتصارات تثير شهية الشعراء لقول الشعر فيكثرون من قرضه وإنشاده ، ويبالغون فى تهكمهم وسخريتهم من العدو الذى

أغار واعتدى وهكذا وقف الشعراء بجانب الأبطال ليشعلوا نار المقاومة، ويشيدوا بكل انتصار ، كما توجهوا بفنهم إلى الأبطال أنفسهم كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين . ولم يقف الشعراء عند هؤلاء بل مجدوا غيرهم ممن مدوا أيديهم إلى السيوف ورفعوها لاستنقاذ بلاد المسلمين ، وإذا تحققت الانتصارات انصرف الشعراء للفخر بما بذلوه فى ساحات القتال ، أو للفخر بجهاد الأبطال وحماستهم .

كان الشعر الحماسى صحيفة تربية ، ووسيلة إعلام ، وسلاحا معنويا خطيرا ، وفنا وجدانيا رفيعا ، ولاتصاله بالحياة وتعبيره عن هذه الحروب كثر هذا اللون كثرة كثيرة ، وزاد شعراؤه ومحبوه ، خاصة فى ظلال الأيوبيين .

٢

دار الشعر الحماسى فى هذه الحقبة حول قضيتين أساسيتين وهما الدين والوطن أما الدين فلأن الجيوش الغازية كانت تقاتل وهى تحمل الصليب ، وتسعى لتطويق المد الإسلامى ، وتهدف إلى الإستيلاء على القدس وتأميمه عن طريق فرض الاحتلال على أرض الشام . ثم تجاوز الأوربيون حدود ما كانوا يسعون إليه ، فامتدوا بجيوشهم إلى مصر ، وهددوا الحجاز كله مما أشعل الحماسة فى قلوب الشعراء ، وجعل الروح الدينية تسيطر على عواطفهم ومشاعرهم .

وأما الوطن فلأن الفرنجة كانوا يسعون له ، ليفوزوا بخيراته ، وينعموا بأرضه ومائه ، خاصة بعد أن شملهم القحط بأوروبة ، ففروا إلى الشرق العربى والإسلامى ، ولهذا كان الشعراء يكشفون عما يدور فى النفوس من ثورة وغضب للأرض التى اقتطعت من فلسطين ، وعلى كل فالحفاظ على الأرض ، والدفاع عنها ، من صميم الدين .

وقد حفلت الأشعار الحماسية بما يخدم الدين كالحث على الجهاد ، وكالاستشهاد

في سبيل الله ، والدفاع عن العقيدة . وانبرى الشعراء إلى تسفيه ما يثيره الصليبيون من زيف وتضليل مما جعل الناس يكرهون هؤلاء الغزاة ، ويسعون لمقاومتهم.

كما حظيت القدس بنصيب كبير من قريض الشعراء ، لأنها كانت الهدف الأسمى للفرنجة . ولما انتصر صلاح الدين في حطين وبيت المقدس أشاد المئات من الشعراء بجهاده ، وأثنوا على انتصاراته ، ومجدوا شخصيته ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها لاسترجاعه بيت المقدس .

وصاغ الشعراء الحماسيون كل هذه الأفكار في قالب تقليدي ومحاكاة واضحة لمن سبقوهم من الشعراء كأبي تمام والمتنبي وأبي فراس، خاصة إذا كان الموضوع يتعلق بإشادة ، ووصف للقتال ، وفخر بالإنتصارات . وكان لبعض الشعراء قصائد فيها إبتكار وجده كقصيدة سبط بن التعاويذي إلى صلاح الدين بعد الانتصار في حطين ، أو القصيدة التي قالها أسامة بن منقذ على لسان نور الدين محمود وأولها :

أبى اللهُ إلا أن يكون لنا الأمرُ
لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخرَ العصرُ

أو القصيدة التي افتخر فيها ابن سناء الملك بحماسته وجهاده وأولها :

سواى يخافُ الدهرُ أوْ يرهبُ الردَى
وغيرى يهوى أنْ يكونَ مُخلَّدا

والأفكار في معظم ما قيل في هذه الحروب من شعر حماسي تميل إلى الوضوح، ولا تجنح إلى الغموض إلا نادرا . ولماذا الغموض ؟ والشعراء يسجلون ما دار في المعارك أو يفتخرون بما تحقق من انتصارات . وكانت المعاني مكرورة فيما قاله معظم الشعراء احتذاء لشعراء الجاهلية والإسلام . ومع وضوح الأفكار الجزئية

فى هذه الأشعار إلا أنها قليلة التفصيلات إذا كان الشعر الحماسى فى التحريض والقتال أو فى الإشادة والتهنئة بالفتوح ، وإن كانت الصورة تختلف فى الشعر الذى سجل المعارك فقد أكثر الشعراء من تصوير الإلتحام بين الجيوش ، وأفاضوا فى بيان القتلى والأسرى ، وذكروا من التفاصيل ما يؤكد تواجدهم فى هذه المعارك أو إتصالهم بما يجرى فيها على الأقل . وليس للأفكار فى هذا الشعر عمق أو دقة بل تميل فى معظمها إلى السذاجة والسطحية والتكرار، فالمعانى عند ابن منير تقترب منها عند ابن القيسرانى ، وما عند ابن رزيك تجد قريبا منه عند أسامة وهكذا

وأما عن الأفكار وترتيبها فهى تختلف من شاعر إلى آخر ، بل من قصيدة إلى أخرى ، وإن كان أغلب الشعراء قد جاءت أفكارهم غير مرتبة تمشيا مع الاتجاه القديم الذى ينظر إلى البيت على أنه وحدة قائمة بذاتها ، وربما لا تتضح هذه الحقيقة فى معظم ماتقدم من شعر فى الفصلين السابقين لأننا كنا نختار من القصيدة بعض الأبيات ، ولا نعرض لها مكتملة ، ولننظر مثلا إلى ما قاله ابن القيسرانى فى عماد الدين ، فقد تحدث عن المعركة ، وما يجرى على ساحتها، وأشاد بالفوز فيها بين أبيات الحرب والالتحام ، وأنظر إلى البيت الثانى وموضعه بين ماقبله ومابعده قال :

فأضرمها نارين : حربا وخُدْعَةً فما راع إلا سورها وانهداده
فيا ظفراً عم البلاد صلاحه بمن كان قد عم البلاد فسادُه
فلا مطلق إلا وشـــــــد وثاقه ولا موثق إلا وحُلّ صِفادُه[1]

والشاعر فى هذا العصر الصليبى لايعبر عن نفسه وينسى أمته وأنسانيته

(١) راجع هذه الأبيات وغيرها ص ١٨١ من هذا الكتاب .

وإسلامه ، ولا يعبر عن غيره وينسى نفسه ، فالأفكار والمعانى تعبير عن الشاعر وأمته ووطنه ودينه ، ولهذا كانت الأشعار قوية ومؤثرة وصادقة مع مافى الكثير منها من ضعف فى الصياغة وسذاجة فى الأفكار .

٣

الشعر الحماسى هو شعر القوة والثورة ، والعواطف المتقدة ، والروح الدينية ، والغيرة المؤمنة ،شعر القومية الإسلامية والوحدة العربية ،وقد كان للعاطفة القوية الصادقة أثرها فى هذا الشعر لحاق كثير من الشعراء بخيالهم فى آفاق رحبة معبرين بحماستهم الدينية المتوهجة عما يحيق بأمتهم ، متغنين لنضال أبطالهم ، مشيدين بكل انتصار يحرزونه ضد الأعداء.

والعاطفة هى عاطفة العزة والفخر ،والحماسة والنصر ، عاطفة مشبوبة متوهجة، ولهذا كان الشعر الحماسى ينبعث عن إيمان قوى ، وعقيدة راسخة ، وانفعال عميق ، وثورة جامحة ، وغيرة بالغة ، كل ذلك بسبب الأرض المغتصبة والمقدسات المنتهكة والحقوق الضائعة

عاش الناس فى مصر والشام سنوات طويلة ، ولم ينسوا مع تطاول الأعوام مااغتصبه العدو ، ثم تحقق النصر ، ولم يغفل الشعر ذلك بل تجاوب معه ، وعبر عنه بحرارة وصدق ، ولنرجع إلى بعض ماقاله البهاء زهير بعد تحرير دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ هـ ، قال .

وما فرحت مصرٌ بذا الفتح وَحْدَها
لقد فرحَتْ بغدادُ أكثرَ منْ مصرِ
فمنْ مبلغٌ هـذا الهناءَ لمكةٍ
ويثربَ تنهيه إلى صاحبِ القبرِ

فهذان البيتان يشعران بحرارة العاطفة عند الشاعر ، ويؤكدان أن فكرة الوحدة العربية والإسلامية ليست وليدة اليوم . أرأيت كيف كان الشعراء يعبرون عن عواطف الشعوب بصدق وعقيدة وإيمان ؟ وقد تأكد لنا أيضاً أن هذه العاطفة الصادقة ذات طرفين الأول : هو الغضب والحقد من الأعداء ، والثانى : هو الإعجاب بما بذله المسلمون من مقاومة لهؤلاء الأعداء .

٤

يقال إن الخيال وليد العاطفة ، ولهذا كلما كانت العاطفة صادقة متقدة كان الخيال رحبا فسيحا ، وبه يتمكن الشعراء من رسم الصور الكلية والجزئية ، والشعراء الحماسيون فى هذه الحروب يختلفون من واحد إلى آخر فى صورهم وأخيلتهم ، فالصور الخيالية قليلة عند طلائع بن رزيك لتغلب الجانب العقلى عنده على الجانب الشعورى والوجدانى ، وهى كثيرة عن ابن القيسرانى والبهاء زهير فى ضوء ما ذكرنا لهم من أمثلة ، قال البهاء :

وجيش كمثل الليلِ هولاً وهيبةً
وإن زانه ما فيك من أنجم زهْرِ
فرويت منهُم ظامىء البيض والقنَا
وأشبعت منهم طاوى الذئب وَالنَّسْرِ

والصور الخيالية فى الشعر الحماسى ملائمة لأفكاره ومعانيه ، ومعبرة عن العاطفة الدينية والقومية عند الشعراء ، وما ذكروه من هذه الصور على ما بينها من تفاوت يتلائم مع البيئة التى عاشوا فيها ، ومع الانتصارات التى شهدوها ، وقد مال شعراء العراق إلى الوضوح والاعتدال فى صورهم على عكس شعراء مصر والشام الذين مالوا إلى المبالغة ، وأسرفوا فى التهكم والسخرية . كما جاءت

الصور عند بعض الشعراء سطحية ومتكلفة ، وفى بعضها غرابة (راجع نونية ابن سناء فى الإشادة بصلاح الدين) . والصور الخيالية مع كثرتها إلا أنها منقولة عن السابقين ، ومكررة على ألسنة أكثر الشعراء ، ويجاوز معظمهم حدود المبالغة المقبولة إلى الغلو المسرف ، فقد بالغوا فى أخيلتهم وأضفوا على أبطالهم هالات التمجيد إعجابا بجهودهم ، وفرحا بانتصاراتهم ، وشماتة فى الفرنجة الغزاة . فانظر إلى وصف أسامة لجيش صلاح الدين :

هو مَنْ عرفتَ فلو عَصَاهُ نهارُه
لرَمَاهُ نقعُ جُيوشِـــهِ بالغيهب

وتعجب مثلى من ابن سناء عندما افتخر فقال :

ولو كانَ إدرَاكُ المدى بتذلُّلٍ
رأيتُ المدَى ألا أميلَ إلى المدى

فالصور الخيالية تختلف من شاعر إلى آخر ، ومن بيئة إلى أخرى ، وقد كانت المبالغة مظهراً عاما ، وملمحا من ملامح الشعر الحماسى إبان الحروب الصليبية خاصة عندما يشتد الصراع ، وينزع الشعراء إلى إشعال الثورة ، وإيقاظ الحمية ، ووصف المعامع . وكان للشعر المصرى (بخاصة) ميل إلى التهكم والسخرية عند كل انتصار ، ويعد ما قاله ابن مطروح بعد موقعة المنصورة خير دليل على هذا الاتجاه .

٥

تختلف الأساليب بما فيها من ألفاظ وتراكيب من شاعر إلى آخر ، والمتعارف عليه فى الدراسات الأدبية أن أسلوب الحماسة والفخر هو الأسلوب القوى بمكوناته التعبيرية . وعندما نعيد النظر فيما قدمناه نجد أن الأسلوب يختلف قوة

وضعفا من شاعر إلى آخر فهو عند الجوينى فى انتصارات صلاح الدين مثال للأسلوب القوى ، المتلائم مع البطولة وما تحققه فى ساحات القتال ، وكذلك كان أسامة والبهاء زهير فى شعر المعارك والإشادة بالانتصارات ، من حيث الألفاظ الجزلة والعبارات المحكمة الرصينة ، ونرى شعراء كثيرين قد مالوا إلى الألفاظ السهلة اللينة التى تخلو كثيرا من الإيحاء الشعرى . وقد أغضينا الجفون عن شواهد كثيرة تكشف عن هذا الاتجاه،ومع ذلك ذكرنا لابن رزيك شعرا ذا أسلوب سهل لين قريب من الأسلوب النثرى .

وقد حرص شعراء كثيرون على اجتلاب ألفاظ غير ملائمة لمجرد ما فيها من حروف الروى يكتمل بها البناء الشعرى ، وتتم القافية ، فتذهب هذه الألفاظ بروعة الشعر وجماله ، وفى مقدمة هؤلاء الشعراء العماد الأصبهانى الذى تأثر كثيرا بطريقة القاضى الفاضل ، قال :

شـكا يَبَسا رأسُ البُرُنسِ الذى به
فقدَّى حسامٌ حاسِمٌ ذلك اليُبْسَا
حَسَا دمَه ماضى الغرار لغــدره
وما كانَ لوْلاَ غدره دمُه يحسى

وكذلك سبط بن التعاويذى الذى قال :

كفٌ تكُفُّ الحادثاتِ وَرَاحَةٌ
ترْتَاح للعدوى ، وَقلبٌ قُلَّبُ

وهكذا عمت سهولة اللفظ وضعف البنية التعبيرية معظم الشعر الحماسى ، وقد شاع ذلك بسبب الاتجاه فى هذا العصر الصليبى إلى الزخرف والزينة اللفظية، وصارهم الكثيرين توشية أساليبهم بالجناس والطباق ، وأسرفوا فى استخدام

التورية وسائر ألوان البديع ، وأدخلوا فى أساليبهم بعض الألفاظ غير العربية ، وحاولوا محاكاة الشعراء السابقين فى الأوزان والقوافى ، فلم يصلوا إليهم، فجاءت أساليبهم ضعيفة لفظا وعبارة . ويكاد يشترك معظم الشعراء فى استعمال ألوان البديع التى تضفى زينة وزخرفة على الأسلوب ، وإن كانوا يتفاوتون فيما بينهم إسرافا واعتدالا . وكانوا يحشرون فى أساليبهم أيضا أمثلة شعبية وكلمات عامية ، وممن أسرف وبالغ وأمعن فى تكلفه العماد الأصبهانى ، والشاعر المصرى ابن مطروح .

واستتبع هذا التفاوت الأسلوبى من حيث الألفاظ لينا فى الصياغة وتفككا وقلقا فى بعض التراكيب . وقد تحررت بعض القصائد من هذه القيود ومثلنا لها فى الحديث عن ابن منقذ وابن سناء .

فالخضوع للبديع ، والميل إلى الكلمات العامية والأعجمية، وضعف الصياغة كل هذه الخصائص وغيرها ذهبت بجمال الشعر وروعته لكنه بقى قويا مؤثرا لما فيه من صدق العاطفة وقوتها ، وسيطرة الروح الدينية ، وسلاسة الألفاظ عند بعض الشعراء .

٦

لقد تأثر الشعراء الحماسيون ببيئاتهم التى نشأوا فيها ، وبثقافة عصرهم التى نهلوا منها ، وبعادات مجتمعاتهم التى تربوا فى أحضانها ، وبأساتذتهم ومعلميهم الذين تلقوا عنهم ، وتتلمذوا عليهم ، فتأثر ابن سناء بعلوم الفلك ولغة الفرس ، وعبر ابن مطروح عما يجرى فى بيئته المصرية ، واقتدى العماد بالقاضى الفاضل ، وأشاد أسامة بنفسه كأمير ، وافتخر ابن زريك بشخصيته كوزير ، ثم عبر كل هؤلاء وغيرهم عن الحروب الصليبية ، لأنها قضيتهم الكبرى التى تمس عقيدتهم الدينية وتلتحم التحاما بأوطانهم وأراضيهم وأبطالهم وسلاطينهم .

لقد كثر الشعراء المصريون كثرة كبيرة إبان الحروب الصليبية ، وحتى نهاية العصر العباسى الثانى فى سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨ م) . وذلك لقيام الدولتين الفاطمية والأيوبية بتشجيع الأدباء ، ورعاية الشعراء ، ثم كان هناك استقرار سياسى فى عهد الدولة الأيوبية بخاصة ، وحظيت مصر بذلك لأنها كانت عاصمة الحكم للفاطميين والأيوبيين معا ، على عكس الشام مثلا التى اكتوت بلهيب الحروب بين العرب والأعاجم أو بين العرب بعضهم ببعض . وكان صلاح الدين عند تواجده بالشام لايجد الوقت الكافي حتى يجالس الشعراء ويستمع إليهم ، وينتقد أشعارهم كما كان يفعل سيف الدولة فى حلب أو الصاحب ابن عباد فى فارس .

كما غاب النقد الأدبى عن مجالس الشعراء ، ولم نجد فى هذه الحقبة نقادا يضارعون الآمدى (الحسن بن بشر) والجرجانى (على بن عبد العزيز) وغيرهما ، واقتصر من وجد من الأدباء على القيام بالتأليف الجمعى أو التلخيص ، بمعنى غياب النقد الموضوعى .

لقد قرأنا عن هذه الحروب أشعارا كثيرة ، ومع كثرتها لم تصل إلى ماقاله المتنبى وأبو فراس فى سيف الدولة ، فلم يوجد فى هذا العصر شعراء مطبوعون يخلدون الأبطال ويسجلون المعارك بالمستوى والقدر اللازمين . ولابد أيضا من التأكيد على أن الحروب الصليبية بما فيها من معارك طاحنة ، وانتصارات عظيمة كانت فوق مستوى الشعر الذى قيل فيها ، وكان أجدر بهذه الأحداث أن تجد شاعرا مطبوعا كأبى تمام أو المتنبى ، فلو وجد شاعر فى هذا المستوى لكان وحده كافيا للارتفاع بالشعر الحماسى إلى درجة أكبر وأكثر مما وصل إليه فى ذلك الوقت .

لقد أخلص شعراء هذه الحروب لفنهم ، وأجادوا فى هذه الأشعار الحماسية

بالنظر إلى مستوى الشعر فى عصرهم ، وبلغوا فيها مبلغا كبيرا ، لكنهم اهتموا بالزخرف والزينة ، وقلدوا الأسلاف العباسيين ، وأسرفوا فى هذا التقليد ، ومع ذلك فقـــد أدوا دورهم فى إيقاظ الشعور العام ، وإحياء القومية الإسلامية والوحدة العربيـة ، واستفاد الأدب كثيرا بهـذه الصحوة فى نطاق الشعر الحماسى على الأقل

خاتمة

نهض المماليك فى مصر والشام بجهد كبير فى التصدى للصليبيين بعد انهيار الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)، ولما كنا بصدد الحديث عن شعر الحماسة فى العصر العباسى الثانى فقد اقتصر الحديث على ما ارتبط بهذا العصر، ولإتماما للفائدة، واستكمالا للحديث عن الشعر الحماسى خلال هذه الفترة العصيبة، فسوف نتابع ذلك بإيجاز فى أول حكم المماليك .

لقد شغل المصريون بالتتار الذين أغاروا على البلاد الإسلامية حتى التقوا بالمصريين على أرض الشام، ولقوا الهزيمة على أيديهم فى عين جالوت ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)، ثم تفرغ المماليك ومعهم الجيش المصرى للصليبيين، وكانوا قد تشجعوا وتحمسوا بعد الانتصار على التتار، فالتقوا بهم فى عدة مواقع، وانتصروا عليهم انتصارات حاسمة، ثم اكتمل الانتصار الأكبر فى عهد الأشرف خليل بالاستيلاء على عكا، وكانت آخر معقل للصليبيين بالشام، وهكذا فشل الأعداء، وعادوا من حيث أتوا، ولم يحققوا أهدافهم، وأسدل الستار على هذه الفصول الدامية التى راح الآلاف المؤلفة من القتلى ضحية لها على مدى قرنين من الزمان .

وأسهم الشعر فى الإشادة بالأبطال والبهجة بالانتصار، وقام شاعر الحماسة فى أول عصر المماليك شهاب الدين محمود (شاعر الشام) بدور كبير وجهد عظيم فى تسجيل هذه الحروب وتمجيد أبطالها، فقد أشاد بالسلطان بيبرس الذى استولى على أنطاكية وطرسوس ويافا، وامتدح السلطان قلاوون الذى استولى من الفرنجة على طرابلس، وانتصر عليهم فى عدة مواقع، وأشاد بابنه الأشرف

خليل الذى أزاحهم عن عكا آخر معاقلهم بالشام فى سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) فقال فيه — مما قاله — قصيدة حماسية ، فكانت قصيدة النهاية التى طال انتظارها، وهى لا تبعد فى خصائصها الفنية عما كان عليه الشعر الحماسى فى عصر الحروب الصليبية وحتى نهاية العصر العباسى الثانى ، وسوف نورد منها بعض الأبيات ، قال :

الحمـــــدُ للهِ زالتْ دولة الصُّلُبِ
وعزَّ بالسيفِ دينُ المصطفى العربى
هذا الذى كانتْ الأمالُ لو طَلَبَتْ
رؤياه فى النومِ لاستحيت منَ الطلبِ
ما بعد عكا ، وقد هُدّتْ قواعدها
فى البحر للشِّركِ عند البحر من أرَبِ(١)
لم يبق من بعدها للكُفرِ إذ خربت
فى البر والبحر ما ينجى سِوَى الهرَبِ
ففاجئتها جنودُ الله ، يقـدمُهَا
غضبانُ للهِ لا للملك والنَّشَبِ(٢)
يا يوم عكا ، لقد أنسيت ما سبقت
به الفتوح ، وما قد خط فى الكُتبِ
لم يبلغ النطقُ حد الشكر فيك ، فما
عسى يقومُ به ذو الشعر والخطبِ
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم
لله ، أى رضا فى ذلك الغضب ؟

---

(١) أرب : مطلب .
(٢) النشب : المال والعقار .

والأبيات تعبر عما فى قلب الشاعر من حب المليك ، والقصيدة طويلة ، وقد طال فيها نفس الشهاب لفرحه بهذا الفتح الجليل ، وقد اخترنا منها الأبيات المذكورة لنكشف بها عن مدى فرح المسلمين ، واستبشارهم بهذا النصر العظيم ، فقد أطاح الأشرف بمن تبقى من الصليبيين .

وتتضح فى الأبيات روح الإيمان ، وصدق العاطفة ، ألم يكن الدين هو الباعث على الحماسة فى هذه الحروب ؟ وألفاظ الشاعر تواكب هذه الروح وتسايرها ، وقد احتذى أبا تمام فى بائيته الشهيرة التى قالها عند فتح عمورية مع ما بين الشاعرين من فرق ، فلكل منهما عصره وخصائص شعره .

ولا نجد فرقاً يذكر بين هذا الشعر الذى قيل فى أواخر الحروب الصليبية فى أول حكم المماليك ونظيره الذى قيل فى الغرض نفسه فى عهد الأيوبيين بمصر والشام فى نهاية العصر العباسى الثانى . فملامح الأدب لا تتغير تغيراً جذريا فى هذا الأمد القصير من عمر التاريخ الأدبى .

وبعد انتهاء الحروب الصليبية تجمدت الأشعار الحماسية ، وسايرت أغراض الشعر الأخرى فى ضعفها مما أحيا ألواناً بديلة من القصص الشعبى انصرف الناس إليها ، وانشغلوا بها فى العصر المملوكى ، ثم عادت الحماسة لليقظة والنهوض مع العصر الحديث ، وهذه تستحق دراسة أخرى نأمل أن نوفق إليها فى القريب العاجل ، وعلى الله قصد السبيل .

أهم المراجع والمصادر

(١) الإبانة عن سرقات المتنبي : للعميدي ، طبعة دار المعارف ١٩٦٩ م

(٢) أبو الطيب وما له وما عليه : لأبي منصور الثعالبي ، الطبعة الأولى ١٣٣٣ هـ — ١٩١٥ م .

(٣) أدب الحروب الصليبية : للدكتور عبد اللطيف حمزة ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ م ، دار الفكر العربي .

(٤) الأدب العربي في مصر : محمود مصطفى ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .

(٥) الأدب في العصر الأيوبي : للدكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف ١٩٦٨ م .

(٦) الأدب في عصر صلاح الدين : للدكتور محمد زغلول سلام ، دار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٥٩ م .

(٧) أسرار الحماسة : سيد علي المرصفي ، مطبعة أبي الهول ١٩١٢ م ، الطبعة الأولى .

(٨) الإسلام والحضارة : محمد كرد علي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ م ، الطبعة الثالثة .

(٩) البهاء زهير : للدكتور عبد الفتاح شلبي ، دار المعارف ١٩٨٠ م .

(١٠) تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، طبعة دار الهلال .

(١١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني : د. إبراهيم أبو الخشب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية .

(١٢) تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) : الشيخ محمد الخضري بك ، دار الفكر العربي .

(١٣) تاريخ الدولة الفاطمية : د . حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٨١ م .
(١٤) الحروب الصليبية : حسين أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣ م .
(١٥) الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى : محمد سيد كيلانى ، دار الفكر العربى .
(١٦) حسن المحاضرة : للسيوطى ، طبع مصر ١٩٢٧ م .
(١٧) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : لآدم متز ، ترجمة أبى ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ م
(١٨) الحماسة : للسواحى بيومى وآخرين ، مطابع المصرى (تحت الحراسة) .
(١٩) الحماسة فى شعر الخالدين (الأشباه والنظائر) عالم الفكر .
(٢٠) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية : د . أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر ١٩٧٩ م ، الطبعة الثانية .
(٢١) الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى : د . طه أبو كريشة ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ م .
(٢٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين : د . محمد كامل حسين ، دار الفكر العربى ١٩٥٧ م .
(٢٣) دولة السلاجقة : د . عبد المنعم محمد حسنين ، الأنجلو المصرية ١٩٧٥ م .
(٢٤) ديوان ابن سناء الملك : تحقيق محمد إبراهيم نصر ، دار الكتاب العربى ١٩٦٧ م .
(٢٥) ديوان أبى الطيب المتنبى : شرح البرقوقى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٨٠ م .
(٢٦) ديوان أبى الطيب المتنبى : تحقيق د . عبد الوهاب عزام ، لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٤ م .

(٢٧) ديوان أبي فراس الحمداني . طبعة دار صادر بيروت .

(٢٨) ديوان أسامة بن منقذ : تحقيق د . أحمد بدوى وحامد عبد المجيد .

(٢٩) ديوان البهاء زهير : تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وطاهر الجبلاوى ، دار المعارف ١٩٨٢ م ، الطبعة الثانية .

(٣٠) ديوان سبط بن التعاويذى : تحقيق مرجليوث ، مطبعة المقتطف بمصر ١٩٠٣ م .

(٣١) ديوان الشريف الرضى : طبعة دار صادر بيروت .

(٣٢) ديوان طلائع بن رزيك : تحقيق د . أحمد بدوى ، دار نهضة مصر .

(٣٣) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام : دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م .

(٣٤) زهر الآداب : للحصرى ، تحقيق البجاوى ، طبعة عيسى الحلبي ، الطبعة الثانية .

(٣٥) شرح ديوان الحماسة : للمرزوقى ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ م .

(٣٦) شعر الحرب فى أدب العرب : د . زكى المحاسنى ، دار المعارف ١٩٧٠ م ، الطبعة الثانية .

(٣٧) شعر الفتوح الإسلامية : النعمان القاضى ، الدار القومية ١٩٦٥ م .

(٣٨) الشعر فى ظل سيف الدولة : د . درويش الجندى ، الأنجلو المصرية ١٩٥٩ م ، الطبعة الأولى .

(٣٩) الشعر وطوابعه الشعبية : د . شوقى ضيف ، دار المعارف ١٩٧٧ م .

(٤٠) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي : للبديعى ، دار المعارف ١٩٧٧ م ، الطبعة الثانية .

(٤١) الصعلكة والفتوة فى الإسلام : د . أحمد أمين ، دار المعارف .

(٤٢) صلاح الدين الأيوبى : د. عبد الله علوان ، دار السلام ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م .

(٤٣) عصر الدول والإمارات : د. شوقى ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م .

(٤٤) عماد الدين زنكى : د. عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ م .

(٤٥) فارس بنى حمدان : على الجارم ١٩٧٥ م .

(٤٦) فتوح البلدان : للبلاذرى ، النهضة المصرية .

(٤٧) الفتوة عند العرب : عمر الدسوقى ، نشر نهضة مصر ، طبع لجنة البيان العربى ١٩٥١ م .

(٤٨) الفخر والحماسة : حنا الفاخورى ، دار المعارف ١٩٨٠ م ، الطبعة الرابعة.

(٤٩) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : د. شوقى ضيف ، دارالمعارف ١٩٧٨ م، الطبعة العاشرة

(٥٠) فنون الأدب فى مجتمع الحمدانيين : د. مصطفى الشكعة ، الأنجلو المصرية ١٩٥٨ م .

(٥١) فى النقد والأدب : إيليا الحاوى ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٠م ، الطبعة الأولى ج ٣ .

(٥٢) الكامل فى التاريخ : لابن الأثير ، طبعة دار صادر بيروت ، الأجزاء ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ .

(٥٣) المتنبى : للعلامة محمود محمد شاكر ، طبعة المدنى (فى سفرين) .

(٥٤) مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى : د. عبد العال الشامى ، الطبعة الأولى ١٩٨١ م .

(٥٥) مصر فى ظلال الخلفاء : د . أحمد مجاهد مصباح ، طبعة دار الطباعة المحمدية ١٩٧١ م ، الطبعة الثانية .

(٥٦) معجم الأدباء : لياقوت الحموى ، طبعة إحياء التراث العربى ١٩٣٨ م .

(٥٧) معجم البلدان : لياقوت الحموى ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٧٧ م .

(٥٨) معجم الشعراء : المرزبانى ، دار الكتب العلمية ١٩٨٢ م ، الطبعة الثانية.

(٥٩) مع المتنبي : د . طه حسين ، دار المعارف ١٩٨٠ م ، الطبعة الثانية عشرة .

(٦٠) ملامح أدبية : د . أحمد الشرباصى ، مطبعة الرسالة ١٩٦٩ م .

(٦١) المنتخب من أدب العرب : المطبعة الأميرية ١٩٥٠ م

(٦٢) الموازنة بين الشعراء : د . زكى مبارك ، طبعة مصطفى الحلبى ١٩٣٦ م .

(٦٣) موسوعة التاريخ الإسلامى : د . أحمد شلبى ، النهضة المصرية ، الطبعة الخامسة ١٩٨٢ م ، ج ٥ .

(٦٤) نوادر المخطوطات : عبد السلام هارون (كتاب العصا) لأسامة بن منقذ المجلد الأول ص ١٧٥ ، طبعة مصطفى الحلبى ١٩٨٢ م ، الطبعة الثانية .

(٦٥) يتيمة الدهر : للثعالبى ، مطبعة الصاوى ١٩٣٤ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع ص

الموضوع	ص

رقم الإيداع ٧٠٧٧ / ١٩٨٤


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوي نمرة ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩
١١٩٩٧٠